فقه الواقع

بين الدعاوى والبينات

٣٤٣٠٤

بقلم
سعود بن محمد العقيلي

مؤسسة الريان

حُقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - هاتف: ٧٠٥٩٢٠ - فاكس: ٦٥٥٣٨٢ - ص.ب: ١٤/٥١٣٦
رمز بريدي: ١١٠٥٢٠٢٠ - بريد الكتروني: ALRAYAN@cyberia.net.lb

بين يدي الكتاب

إن لهـــذا الكـــتاب قصة طويلة تخللتها مواقف عديدة، لو ذكرناها بالتفصيل لقاربت حجم الكتاب، لكن أُذكِّر القارئ بأن هذا المؤلَّف أُعد منذ عقد من الزمان. ولا يخفـــى أنه عقد مليء بالأحداث الجسام التي غيرت المفاهيم وقلبت التصورات، وقـــد كان من المناسب أن يخرج قبل عدة سنوات، لكن حالت دون ذلك عوائق، فالكتاب في الجملة يحمل قضيتين: الأولى الدفاع عن علماء ما زالت الأمة تبكي على فقدهـــم، والأخرى دفاع عن العلم الشرعي. ورجائي من الله أن يكون فيما كتبت فائدة لطلاب العلم. كما أني أعتذر عن التأخر في إخراج الكتاب وذلك بسبب أمور خارجة عن إرادتي.

المؤلف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة :

الحمد لله الذي جعل هذه الأمة أكرم الأمم واتخذهم على الناس شهداء، وأرسل إليهم أفضل الرسل واتخذه خليلاً، وأنزل إليهم القرآن وجعله على الكتب مهيمناً، وشرع لهم الإسلام أعظم الشرائع ورضيه ديناً، وصار لعباده صراطاً مستقيماً، من مات عليه كان في جنات النعيم، ومن مات على غيره فأولئك أصحاب الجحيم.

ولا يخفى أن الله قد أتم النعمة وأكمل الدين وأن رسوله بلغ البلاغ المبين.

أما بعد :

فإن هذه الأمة ابتليت بعد عصر الصحابة بأقوام أفسدوا الدين، وذلك بما أدخلوا فيه من علوم الزنادقة والملحدين. ونتج عن ذلك فساد عقائد كثير من المسلمين. والمتأمل في الفرق التي نشأت في الإسلام يجد أن أصولها ليست من الإسلام وإنما هي أصول فاسدة موروثة عن مناهج متعددة منها ما هو عقلاني، ومنها ما هو سوفسطائي، ومنها ما هو متحلل عنهما أو مركب منهما. ومن رحمة الله أن جعل لهذه الشريعة حراساً ومجاهدين ينفون عنها كل ما أدخل فيها أو تلبس بعلومها.

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - في معرض كلامه عن حفظة الشريعة : "والثاني: الاعتبار الوجودي من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآن، وذلك أن الله عز وجل وفر دواعي الأمة للذب عن الشريعة والمناضلة عنها بحسب الجملة والتفصيل.

أما القرآن الكريم فقد قيض الله له حفظة بحيث لو زيد فيه حرف واحد لأخرجه آلاف الأطفال الأصاغر فضلاً عن القراء الأكابر.

وهكذا جرى الأمر في جملة الشريعة فقيض الله لكل علم رجالاً حفظه على أيديهم، فكان منهم قوم يذهبون الأيام الكثيرة في حفظ اللغات والتسميات الموضوعة

على لسان العرب، حتى قرروا لغات الشريعة من القرآن والحديث، وهو الباب الأول من أبواب فقه الشريعة، إذ أوحاها الله إلى رسوله على لسان العرب.

ثم قيض رجالاً يبحثون عن تصاريف هذه اللغات في النطق فيها رفعاً ونصباً، وجراً وجزماً، وتقديماً وتأخيراً، وإبدالاً وقلباً، وإتباعاً وقطعاً، وإفراداً وجمعاً، إلى غير ذلك من وجوه تصاريفها في الإفراد والتراكيب، واستنبطوا لذلك قواعد ضبطوا بها قوانين الكلام العربي على حسب الإمكان، فسهل الله بذلك الفهم عنه في كتابه ومن رسوله في خطابه.

ثم قيض الحق سبحانه رجالاً يبحثون عن الصحيح من حديث رسول الله ﷺ وعن أهل الثقة والعدالة من النقلة، حتى ميزوا بين الصحيح والسقيم، وتعرفوا على التواريخ وصحة الدعاوى في الأخذ لفلان عن فلان، حتى استقر الثابت المعمول به من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكذلك جعل الله العظيم لبيان السنة من البدعة ناساً من عبيده بحثوا عن أغراض الشريعة كتاباً وسنة ، وعما كان عليه السلف الصالحون وداوم عليه الصحابة والتابعون وردوا على أهل البدع والأهواء، حتى تميز أتباع الحق عن أتباع الهوى.

وبعث الله تعالى من عباده قراء أخذوا كتابه تلقياً من الصحابة، وعلموه لمن يأتي بعدهم، حرصاً على موافقة الجماعة في تأليفه في المصاحف، حتى يتوافق الجميع على شيء واحد، ولا يقع في القرآن اختلاف من أحد من الناس، ثم قيض الله تعالى ناساً يناضلون عن دينه ويدفعون الشبه ببراهينه، فنظروا في ملكوت السماوات والأرض، واستعملوا الأفكار وأذهبوا عن أنفسهم ما يشغلهم عن ذلك ليلاً ونهاراً ، واتخذوا الخلوة أنيساً وفازوا بربهم جليساً، حتى نظروا إلى عجائب صنع الله في سماواته وأرضه، وهم العارفون من خلقه، والواقفون مع أداء حقه، فإن عارض دين الإسلام معارض أو جادل فيه خصم مناقض، غبروا في وجه شبهاته بالأدلة القاطعة فهم جند الإسلام وحماة الدين.

وبعـــث الله من هؤلاء سادة فهموا عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فاســـتنبطوا أحكاماً فهموا معانيها من أغراض الشريعة في الكتاب والسنة، تارة عن نفـــس القول وتارة عن معناه، وتارة من علة الحكم حتى نزلوا الوقائع التي لم تذكر على ما ذكر ، وسهلوا لمن جاء بعدهم طريق ذلك، وهكذا جرى الأمر في كل علم توقف فهم الشريعة عليه أو احتيج في إيضاحها إليه، وهو عين الحفظ الذي تضمنته الأدلة المنقولة وبالله التوفيق"[1].

وتأثـــر المســـلمين بغيرهم قد يكون مباشراً وقد يكون غير مباشر وله طرق متنوعة معروفة ليس هذا مجال بسطها.

ويوجد من أبناء الإسلام من أضر به من حيث يشعر أو لا يشعر. فكثير منهم يظـــن أن الكمال في فكر غيرهم وليس في شريعتهم. فصاروا يقرأون تلك الثقافات فما استحسنوه بعقولهم أدخلوه على الشريعة، فإن علموا أنه سينكر عليهم تحايلوا، فيأتون إلى نصوص الشريعة ويبحثون عن أية كلمة قد تدل بظاهرها على ما يريدون وقـــد لا تدل، ولكن يكفي عندهم التطابق اللغوي للاستدلال. ليبنوا على ذلك ما كـــانوا قد استحسنوه بعقولهم فيؤصلون ويقسمون ويفرعون. وما علموا أنهم بذلك قـــد اتهموا الشريعة بالنقص وابتدعوا في دين الله ما لم يشرعه الله. وما لم يأذن فيه. وصار الإسلام بذلك شعاراً يوضع على أي شيء ليروج بين المسلمين.

فتجد الفلسفة الإسلامية، الزخرفة الإسلامية، الفكر الإسلامي، الفن الإسلامي، الموسيقى الإسلامية، التمثيل الإسلامي، الإعلام الإسلامي ... وهذا واضح.

ومـــا يعنيـــنا هـــنا هو ما يسمى بالفكر الإسلامي، وهم يعنون به الشريعة الإسلامية. ويجعلون الشريعة بمثابة الفكر الذي تنتجه العقول.

وإذا تأملت الكتب الموجودة في الساحة وجدت التلوث الفكري العقلاني سمة مشتركة فيها. والله المستعان.

---

(١) الموافقات (١/٣٧٠).

وهـــذا الكتاب الذي بين يديك هو عبارة عن مناقشة لكتاب الدكتور ناصر العمـــر والمسمى"فقه الواقع" وقبل البداية في مناقشة الكتاب سوف أتكلم عن أصل فكـــرة الكـــتاب ومن أين اكتسب اسم الواقع. وما هي جوانب التأثر الفكري فيه. فأقول :

إن أشهر المناهج الفكرية العصرية ثلاثة هي : المنهج الفكري المقارن، والمنهج الفكري التحليلي، والمنهج الفكري الواقعي ويطلق على الأخير المدرسة الواقعية.

والواقعية مقولة فنية ظهرت مع البدايات الأولى لعصر التنوير الأوربي، وكان ظهورها محصلة لمسيرة طويلة مع التحولات الاجتماعية والفكرية استقرت وتحددت بـــين القرنين الخامس عشر والثامن عشر إلى أن أصبحت أساساً لتيارات أدبية وفنية وسياسية في القرن التاسع عشر.

وفي الخمسين سنة الماضية ظهرت الواقعية الأدبية والفنية في أوربا بشكل أكبر وأوضـــح من الواقعية السياسية بسبب الحرب العالمية الأولى والثانية وبما أحدثت من انعكـــاس في قـــلوب الناس، نتج عنه كره السياسة وأيضاً فإن الأدب والفن يتعلقان بالمشاعر، والسيطرة على المشاعر أسهل بكثير من السيطرة على العقول. وأدى هذا الوضـــع بالمدرســـة الواقعية السياسية إلى انتهاج طريقة جديدة تستطيع من خلالها كسب العامة وبالتالي التأثير عليهم ليكونوا قوة مؤثرة على الواقع بجميع اتجاهاته.

والواقعيـــة بشكل عام تدعو إلى إعادة الاعتبار إلى العقل الإنساني وإلى اعتبار الشرط الاجتماعي أساساً لتكون العقل والإنسان. لأنها تمجد العقل وتحاول السيطرة عليه بأي شكل من الأشكال.

وتدعـــو أيضـــاً إلى التعامل مع الواقع الموضوعي بمنظار علمي يقبل التحليل والتركيب.

وتدعـــو أيضاً إلى ربط الحركة الواقعية بالحركة التاريخية، ولم تدع إلى ربط الحـــركة الواقعيـــة بالحـــركة الدينية، لأن الحركة الدينية في أواسط العامة في أوربا

معدومـــة. ولكنها في الوقت نفسه تدعو إلى ربطها بالحركة الدينية في أي بلد يوجد للحركة الدينية فيها تأثير على العامة.

وقـــد أكـــد أنغلز على الآثار المعرفية للعمل الأدبي، فأقام الأدب على دوره التنويري التحريضي، الذي يكشف الواقع ويبدد الوعي الوهمي.

ويدفـــع إلى الفعل والحركة في تصحيح الوعي ليتجلى الدور المعرفي للأدب. ومن خلال دعوة أنغلز إلى الفعل الثوري يتجلى الدور السياسي.

وكـــان مـــن أهداف أنغلز الوصول إلى واقعية ترتبط بالطبقة العاملة شكلاً ومضموناً. ويقول أيضاً: إن المقاومة الثورية التي تواجه بها الطبقة العاملة مضطهديها، ومحاولاتهـــا الواعية أو شبه الواعية لانتزاع حقوقها الإنسانية هي ملك للتاريخ ولها الحق أن تطالب بما كان لها في ميدان الواقعية (أي الميدان الواقعي).

ويقـــوم مفهـــوم أنغـــلز عن الواقعية، على وحدة السياسة المعرفية، فالفعل السياســـي يســـتدعي تراجع الوعي الزائف واستبداله بوعي جديد يتعامل مع الواقع المادي لا مع الصورة الوهمية له.

ويقـــول عن منهجه أنه متمايز عن الانعكاس الميكانيكي الذي يكتفي بظاهر الأشـــياء ويعجز عن النفاذ إلى علاقتها الداخلية ومتمايز عن التعامل المثالي مع الواقع الـــذي يكـــتفي بالدوران حول العلاقات الداخلية بدون أن يستطيع تلمس أثر هذه العلاقات على العلاقات الخارجية.

وعرف بريشت الواقعية بأنها ممارسة متعددة المركبات فقال : (الواقعية ليست قضية أدبية فحسب، إنها أكبر من ذلك بكثير فهي قضية سياسية، فلسفية عملية، أي قضية تمس مجمل الحياة الاجتماعية).

وكـــان عمـــر فاخوري من أوائل من دعا إلى الواقعية وكانت دعوته محصلة لجمـــلة أفكاره الاجتماعية والسياسية التي استمدها من الثقافة الأوربية والتي جعلت شعارها الأول والأخير تحرير العقل والإنسان. وكان ذلك بأسلوب ثقافي محدد وهو:

إعـــداد العقل وتهذيب النفس وترويض الجسم فإذا وجد ذلك في المجتمع كان ذلك مقدمة في تغير ذلك الواقع أياً كان.

ولا أريد أن أطيل في التحدث عن هذه الحركة والذي يريد المزيد من المعرفة عن هذه الحركة فعليه الرجوع إلى الكتب التي تتحدث عن الواقعية السياسية.

ولكـــن من المهم جداً أن نعلم أن هيكل الواقعية العام أثر على الثقافات العربية وخصوصاً في مصر بمؤثرات مباشرة معروفة، وبما أنه كان هناك علاقة كبيرة بين رموز الأدب والفكـــر في مصر وبين رموز الدعوة الإسلامية فيها. فقد تسرب منهج الواقعية بشـــكله العام إلى هؤلاء الدعاة فجاءت كتبهم ومقالاتهم تعكس هذا المنهج بنوع من التهذيب. وبعد ذلك انتشر في كثير من البلاد الإسلامية بواسطة التصدير السلبي.

ومـــا لا شك فيه أن كتاب الدكتور ناصر أحدث نوعاً من البلبلة في أوساط الخاصة والعامة. وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الموضوع ليس من المواضيع الإسلامية أو الفقه الإسلامي.

وكـــثر النقاش حول هذا الموضوع ما بين مؤيد ومعارض - ولكن جميع هذه النقاشـــات كانت سطحية إلى حد ما- فأحببت في هذا الكتاب أن تكون الدراسة أشبه ما تكون بالنقد لأنه بذلك تتبين جوانب كثيرة من الخلل لا يمكن أن تتبين من خلال الرد المجرد. ومن المعلوم أن الدراسة النقدية أعمق من مجرد الرد. وقد حاولت الجمع بين الأمرين فعسى أن أكون قد وفقت.

وإني أنصـــح القارئ لهذا الكتاب أن يكون همه البحث عن الحق؛ لأن الحق يطلب لذاته ويحب لذاته. وقد جاء في الأثر أن الحق أبلج.

ومن الناس من يمتنع عن قبول الحق؛ لأنه أتى من الطريق الفلاني، ولا يعلم أنه بذلك يفوت على نفسه خيراً كثيراً؛ لأنه أتى في الحديث الصحيح (**إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم**). فالواجب على المسلم البحث عن الحق أياً كان ومع من كان.

ولـــن يصل إلى هذا الحق إلا إذا جرد المتكلم (المؤثر) من اسمه ولسانه وتاريخه، ولا ينظر إلا إلى لب الكلام. وعليه هو (المتأثر) أن يجرد نفسه من الهوى ومن الأفكار المسبقة السلبية التي لم تبن على يقين وكلما كان عن المؤثرات أبعد كان للحق أقرب.

وثمـــة أمـــر آخـــر تجدر الإشارة إليه هنا، وهو أن مقدم المحاضرة الشيخ عائض القرني – قال عن الدكتور ناصر : "إنه لم يأت بعد شيخ الإسلام ابن تيمية مثله". وهذه مبالغة عظيمة وخطيرة. والأئمة الذين عاشوا في الحقبة المذكورة أشهر من أن يذكروا.

ولا أظن أن أحداً من المسلمين يوافق القرني على قوله. وليست هذه بالأولى منه، فقد وقع فيما هو أقبح. فقد قال عن معاذ رضي الله عنه : "إنه لا يعلم إلا بحمل الإســـلام".[1] وقـــد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه : **(معاذ بن جبل، أعلم الناس بحلال الله وحرامه)**. **وقال : (معاذ بن جبل، إمام العلماء يوم القيامة برتوه)**. وهي أحاديث صحيحة.

فســـبحان الله ألا يكفـــي القرني هذه الشهادة من رسول الله ﷺ وهذا النص الصريح الذي هو كالشمس.

فانظر إلى القرني كيف رفع هذا فوق قدره، وكيف بخس هذا قدره، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى الحق وأن يوفقنا للعمل به وأن يلهمنا رشدنا وأن يتولانا في الدارين. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) محاضرة واقعنا المعاصر.

بداية الكتاب :

قال الدكتور ناصر في بداية كتابه وتحت عنوان :

بين يدي هذه الرسالة :

[أقـــدم هذه الرسالة المختصرة لمشايخي الفضلاء من علماء الأمة، الذين حملوا أمانة العلم والرسالة اعترافاً بفضلهم وجهادهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، يبصرون الأجيال ويصدعون بكلمة الحق، ينطلقون من عقيدة صافية وعلم غزير، ووعي بالواقع المعاصر].

أقول وبالله التوفيق :

قـــال عـــبد الله بن المبارك - رحمه الله - : ما قرأت كتاب رجل إلا عرفت مقدار عقله.[1]

وقال بعض الحكماء : يعرف الرجل بعقله والكتاب بمطلعه.

والدكـــتور قـــد أخطأ في تقديمه هذه الرسالة إلى علماء الأمة؛ لأن في ذلك إشـــارة واضحة إلى أنهم هم الذين بحاجة إلى فقه الواقع وأن هذا الأمر ينقصهم. ولا يخفى ما في ذلك من خطورة خصوصاً والفتنة قد طلت برأسها.

والواجـــب عـــلى طلاب العلم احترام العلماء وتقديرهم والإشادة بفضلهم وربط الأمة بهم. وهذا في حد ذاته مطلب شرعي.

أمـــا غمـــزهم ولمزهم فينافي أدب الطلب منهم. ويزهد الأمة فيهم وفيما يتلقونه منهم.

ولكن وللأسف الشديد فقد أكثر الدكتور ناصر في كتابه من هذا الأسلوب وسوف تأتي أمثلة كثيرة على ذلك.

---

(١) الفاضل في صفة الأدب الكامل، ص(٤١).

وفي الصفحة نفسها (٣) قال:

وآمل من كل قارئ أن يعي هذه الحقائق:

١ - [أن لحـــوم العلماء مسمومة، وسنة الله في منتقصهم معلومة وعلى أولئك الذين يتبعون المثالب ويبحثون عن المعايب أن يتقوا الله، وبخاصة ما يتعلق بعلماء الأمة وقـــادة الأجيال. وأذكرهم بما قاله العلامة، سماحة شيخنا الفاضل عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، جواباً على اتهام العلماء بأنهم لا يفقهون الواقع، حيث قال .... إلى أن قال ولا يتسنى ذلك للعلماء].

قـــلت: لا أقـــول إلا كما قال عليّ رضي الله عنه لما سمع خطيب الخوارج، "كلمة حق أريد بها باطل".

وذلك لأسباب عديدة وهي :

١ - انفصـــال هذه الفقرة تماماً عن موضوع البحث فالكلام منعقد حول فقه الواقع وليـــس حول الغيبة أو الوقوع في العلماء. ولكن لما كان اتهام العلماء بعدم فقه الواقع متردداً في نفسه قدم هذا الكلام توطئة، مثله في ذلك كمثل إخوة يوسف عليه السلام عندما قالوا لأبيهم : ﴿ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف : ١١] ويعقوب عليه السلام لم يقل لهم إني لا آمـــنكم عـــلى يوسف وأنكم غير ناصحين له. قال ابن كثير - رحمه الله - وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيـــه له). وأيضاً قولهم له : بعد أن فعلوا بيوسف عليه السلام ما فعلوا ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف : ١٧] ويعقوب عليه السلام لم يتهمهم بعد.

قال ابن كثير: "هذا تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه".

٢ - إن الدكتور ناصر وأمثاله هم الذين كانوا وراء اتهام العلماء بهذه الفرية المشينة وهـــي أنهـــم لا يفقهون الواقع ومجرياته؛ وذلك بسبب محاضراته التي لا تخلوا

واحـــدة منها من الطعن في العلماء. وخاصة هذه المحاضرة المسماة "فقه الواقع" فهي التي ألّبت صغار طلاب العلم على العلماء وأمدتهم بالحجج الواهية ضدهم.

٣ - إشـــارة الدكـــتور ناصـــر بأن العلماء لديهم معايب ومثالب، ولكن بطريقة (دبلوماســـية) لا تخفـــى على الحاذق. ولا أدري هل الدكتور ناصر يعدُّ العمل بالكـــتاب والســـنة واتـــباع منهج السلف - رضوان الله عليهم أجمعين - من المعايب والمثالب. فالله أعلم.

٤ - إن الأسلوب الذي يستخدمه الدكتور ناصر هو من أساليب التعريض، وقد أقام عمـــر رضي الله عنه الحد على من عرَّض بصاحبه - عندما قال : ما أمي بزانية ولا أبي بزانٍ، فاستشار من حوله فقالوا : يا أمير المؤمنين مدح أمه وأباه - قال رضي الله عنه : بل عرض بصاحبه، وأقام عليه الحد.[1]

ويؤخـــذ من هذا أن التعريض الذي يستخدمه الدكتور ناصر هو من أساليب التعريض بالعلماء واتهامهم - لكن بطريقة غير مباشرة-.

وفي ص (٤) قال أيضاً :

٢ - [إن ممـــا هو مقرر في قواعد الشريعة، أن (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب) و(الحكم على الشيء فرع عن تصوره).

ولذا فعلى من يتصدى للحكم على الواقع، والخوض في غماره، أن يكون ملماً بهذا الواقع، مدركاً لأسراره، عالماً بأصوله وفروعه وإن لم يتخصص فيه فعليه بالرجوع إلى المتخصصين ....]

ومناقشتي لهذا الكلام من عدة وجوه :

١ - أن حكـــم الدكتور بأن تعلم فقه الواقع "المزعوم" واجب قول على الله بغير علم؛ لأنـــه لا يملك دليلاً على ذلك من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه

---

(١) سيأتي فيما بعد تخريج الحديث والكلام على هذه المسألة.

وسلم ومن إجماع أمته، ولا من قياس صحيح.[1] وأخشى أن يكون ذلك من اتباع الهـــوى – أو من تزيين الشيطان وقد حذرنا الله منه فقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [البقرة : ١٦٩].

وقولـــه إن تعلم فقه الواقع (المزعوم) واجب يجر خلفه إلزامات كثيرة؛ منها: أن شـــراء الدش والتلفزيون والراديو والصحف والمجلات وكتب السياسة كل ذلك واجب على حسب قوله، لأنها من المصادر الأساسية لفقه الواقع كمـــا ذكر في ص (٧٣)، وبتطبيق القاعدة التي ذكر "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" نحصل على النتيجة السابقة. وهي أن شراء الأمور المذكورة واجب.

قال ابن القيم – رحمه الله – "ولكن لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهاده و لم يظفر فيه بنص عن الله ورسوله أن الله حرم كذا، وأوجب كذا".[2]

٢ – إن الواقع الذي يتكلم عنه الدكتور ناصر هو واقع غير محدد المعالم ونتمنى لو أنه عرَّف لنا هذا الواقع الذي يطالب الناس أن يتفقهوا فيه، فهو فرض عليهم على حد زعمه.[3]

---

(١) قال ابن القيم – رحمه الله – : إن القول على الله بغير علم أشد تحريماً من الشرك وأن الترتيب في قوله تعالى : **﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن... الآية﴾** مقصود. وقال شيخ الإسلام: إن الله حرم القول بغير علم عموماً – والقول عليه بغير علم خصوصاً.

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٤٣).

(٣) قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن الفقيه هو الذي يتكلم في دليل معين في حكم معين. (١١٩/١٢) من مجموع الفتاوى.

والذي ننكره على الدكتور ناصر تعميمه الكلام على الواقع دون تفصيل أو تحديد، ومن المعروف أن الواقع يحتوي على مشكلات سياسية ومشكلات اقتصادية، ومشكلات دينية إلى غير ذلك. من المستحيل أن يلم إنسان بها جميعها بدقائقها وتفاصيلها مهما كان شأنه في عصرنا الحاضر عصر التخصص.

ولكن المسلمين يكمل بعضهم بعضاً فأهل السياسة يتولون أمور السياسة، وأهل الاقتصاد يتولون أمور الاقتصاد، والتخطيط يتولاه أهل التخطيط، إلى غير ذلك، وقد قال الرسول ﷺ : (**المؤمنون كالبنيان المرصـــوص يشـــد بعضه بعضاً**)، بل وصف نفسه بأنه اللبنة الأخيرة التي يكمل بها البناء الذي بناه الأنبياء من قبله عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ونحن نقول : إن الواقع الذي يتكلم عنه الإخوان المسلمون هو واقع نظري لا يعدوا أن يكون حديث مجالس يردد للاستهلاك. أو هو دجل إعلامي ليس له رصيد من الحقيقة أو الصدق. والدليل على ذلك : أن منهج الإخوان المسلمين كان عائقاً أمام تقدم الدعوة في البلاد التي عشش فيها ذلك المنهج. لأنه شغل الناس عن العلم الشرعي الحقيقي وعن الدعوة إلى الدين.

٣ - أن مما يدل على ضعف منهج الدكتور العلمي هو كثرة إطلاقاته، وعدم دقة عباراته، مثل قوله : **[فعلى من يتصدى للحكم على الواقع، والخوض في غماره، أن يكون ملماً بهذا الواقع]**.

فهو كما ترى جعل الواقع كله قضية واحدة يمكن لشخص واحد إدراكها وهذا مستحيل.

فإذا كانت الشريعة وهي منحصرة في الكتاب والسنة لا يمكن أن تجتمع في صدر أحد بعينه، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ **[العنكبوت : ٤٩]** فلم يقل في صدر من أوتي العلم، بل جعله مبثوثًا في صدورهم جميعاً. وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى انعدام المجتهد المطلق منذ أزمنة بعيدة حتى قال الرافعي : "الخلق كالمتفقين على أنه لا مجتهد اليوم".[1]

وذهب المحققون إلى جواز تجزؤ الاجتهاد يعني في باب دون باب، فإذا كان ذلك في حق الشريعة فهو في فقه الواقع من باب أولى.

ومن المعلوم أن علماء السلف رحمهم الله اختلفوا فيما إذا حكم القاضي أو المجتهد في قضية معينة ثم تكررت هذه القضية، فهل يلزمه الاجتهاد من جديد أو يكفيه الاجتهاد الأول.

---

(١) البحر المحيط (٢٠٧/٦)

إذًا أليس من الخطأ جعل الواقع كله قضية واحدة تخضع لحكم واحد دون أي قيد؛ لأن الواقع كما هو معلوم قضية كلية غير محددة، وبالتالي يستحيل إدراكها ومن ثم الحكم عليها. وإن شئت فقل إنه من باب التكليف بما لا يطاق.

٤ - قوله: **[عالماً بأصوله وفروعه وإن لم يتخصص فيه فعليه الرجوع إلى المتخصصين فيه]**.

والسؤال الذي يجب أن يطرح على الدكتور ناصر، هو : ما أصول هذا العلم وفروعه؟ وفي أي كتب السلف يبحث عنها؟

ومن الذين تخصصوا فيه من علماء السلف ؟ وإن كان أحد منهم قد تخصص فيه فما هي المؤلفات التي ألفت في هذا الباب ؟ وهيهات أن يأتي بشيء من ذلك .

وقد يقول قائل: إن مراد الدكتور أن يسأل أهل التخصص في كل باب؛ فنقول: إذا كان هذا مراده، فلماذا يجعله علماً مستقلاً قائماً بذاته ،ويتكلم عنه باعتباره قضية كلية. ثم إن سؤال أهل التخصص في كل فن جار العمل عليه في جميع الهيئات العلمية وهو ضرورة علمية وشرعية لا يمكن الإنفكاك عنها، ومن تصفح مجلة البحوث العلمية علم ذلك يقيناً.

وفي ص (٥) قال :

[إن كان يسع طالب العلم ألا يتعلم كثيراً من العلوم الدنيوية كالطب والاقتصاد والهندسة، فإنه لا يسعه ألا يلم بفقه الواقع إلماماً عاماً وإن لم يتخصص فيه.

والفرق بين هذا العلم وغيره، أن فقه الواقع من علوم الشريعة التي يبنى بعضها على بعض، أما تلك فمن علوم الدنيا، مما لا يلزم الفقيه علمها ودراستها، بخلاف فقه الواقع الذي لا يستغني عنه طالب العلم للحاجة إليه في كثير من مسائل الفتوى المعاصرة].

قلت وبالله التوفيق :

إن قول الدكتور إن كان طالب العلم يسعه أن لا يتعلم العلوم الدنيوية مثل الطب والهندسة والاقتصاد فإنه لا يسعه أن لا يلم بفقه الواقع. وفي الحقيقة هذا

الكـــلام ينفي الاحتمال الذي أوردناه سابقاً على لسان القائل، لأنه جعل هذا الفقه عـــلماً قائماً بذاته يلزم تعلمه لذاته. ولا يكون قصده أن يسأل كل أهل تخصص في فنهم كما مرَّ سابقاً.

ثم إن مناقشة مثل هذا الكلام المخلط من أصعب ما يكون؛ لأنها تجبر المتكلم أو المـــناقش على الإطالة والتفصيل وهذا ما أردنا تجنبه في هذا الكتاب لكنني سأجمل المناقشة في النقاط التالية :

١ - ذهب الدكتور ناصر يقرر حقيقة مسلمة، وليس فيها خلاف بين أهل العلم - وهي أن الفقيه لا يلزمه تعلم هذه العلوم الدنيوية كالتي ذكر (الطب والاقتصاد والهندســـة) - بل الاتفاق قائم على أنه لا يلزمه سوى معرفة آيات الأحكام، وأحاديث الأحكام، والناسخ والمنسوخ، وما يتفرع عنها من علوم، دون معرفة أحاديث الرقائق والآداب والفتن وأحاديث الترغيب والترهيب وشبه ذلك.

وتقريره لها بهذه الصورة يدل على أن هناك خلافاً فيها والأمر ليس كذلك.

٢- أنه ناقض نفسه بنفسه حيث قال في هذه الفقرة (فإنه لا يسعه ألا يلم بفقه الواقع إلمامـــاً عاماً وإن لم يتخصص فيه). وقد قال قبل ذلك بقليل (فعلى من يتصدى لـــلحكم عـــلى الواقع والخوض في غماره، أن يكون ملماً بهذا الواقع، مدركاً لأســـراره، عالمـــاً بأصـــوله وفروعه. وإن لم يتخصص فيه فعليه بالرجوع إلى المتخصصين).

وهو كما ترى تارة يريد من طالب العلم أن يتخصص فيه (فقه الواقع) وأن يكون مدركاً لأسراره عالماً بأصوله وفروعه؛ وأنه لا يجوز له التحدث فيه، أو الحكم عـــليه إلا إذا كان كما ذكر. وتارة - أخرى - تراه لا يطالب بالتخصص فيه وإنما يكفيه أن يلم به إلماماً عاماً، وكلا القصدين غير صحيح.

فـــلو ألـــزم طلبة العلم بقراءة المجلات والصحف ومشاهدة التلفاز واستماع المذياع وغير ذلك فقد أوجب عليهم ما لم يوجبه عليهم الله ولا رسوله عليه الصلاة

والسلام، خصوصاً على طالب العلم الذي ليس من أهل الحل والعقد وليس من أهل التأثير العام، وإن كان يريد الوجه الآخر وهو أن يكون ملماً به إلماماً عاماً، فإنه في هذه الحالة لا يجوز له التحدث فيه ولا الحكم على مسائله. لأن أنصاف الفقهاء والمتعلمين لا يجوز لهم الإفتاء في مسائل لم يتخصصوا فيها ولا يجوز لهم الاجتهاد في أي حكم من الأحكام الشرعية، وكذلك في أمور الدنيا فإن أنصاف الأطباء لا يجوز لهم شرعاً أن يعالجوا الناس ما لم يكونوا أطباء حاذقين. ولأنه يقول لا بد لمن يتكلم في الواقع أن يكون عالماً به مدركاً لأسراره، عالماً بأصوله وفروعه، وقد تقدم.

٣ - وقبل أن أشرع في التحدث عن هذه النقطة أريد أن أوضح أمراً حول تسميته هذا الموضوع بـ "فقه الواقع".

قال الفيروز آبادي في القاموس[١] : الفقه، بالكسر : العلم بالشيء إذا أدركته، وإدراك علم الشيء فقه إلا أن الاختصاص في إطلاق الفقه إنما هو لمعرفة الحلال والحرام والقضاء بتأويل الأحكام، وذلك كقولنا للقصد حج، وإذا أطلقنا الحج لم نعن به إلا قصد البيت الحرام).[٢]

ولذلك فالأولى أن لا يتوسع في إطلاق الفقه على أي علم، بل يقتصر فيه على علم أحكام الشريعة. والله تعالى أعلم.

أما قوله : (إن فقه الواقع من علوم الشريعة التي يبنى بعضها على بعض) فهذه

---

(١) مادة : فقه.

(٢) وكذا وافقه صاحب "لسان العرب" فقال في مادة فقه: وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم كما غلب النجم على الثريا- وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة، وتخصيصاً بعلم الفروع منها.

وقال الفتوحي في شرح الكوكب المنير: "والفقه شرعاً هو (معرفة الأحكام الشرعية) دون العقلية (الفرعية) دون الأصولية، وزاد من تحليل وحظر وإباحة".

فقل لي بارك الله فيك - هل علم الجرائد والمجلات والتليفزيون وغيرها مما ذكره الدكتور ناصر من الشريعة في شيء ؟.

مقولـــة خاطـــئة وللفائدة فقد نقلت نصاً من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع. قال فيه -رحمه الله -:

"قول الناس : العلوم الشرعية والعقلية قد يكون بينهما عموم وخصوص وقد يكون أحدهما قسيم الآخر. ويكون الصواب في مواضع أن يقال : السمعية والعقلية، وذلك أن قولنا : للعلوم الشرعية قد يراد به ما أمر به الشارع، وقد يراد به ما أخبر به الشارع، وقد يراد به ما شرع أن يعلم، وقد يراد به ما علمه الشارع.

فـــالأول : هو العلم المشروع - كما يقال : العمل المشروع - وهو الواجب أو المستحب وربما دخل فيه المباح بالشرع.

والـــثاني : هو العلم المستفاد من الشارع وهو ما علمه الرسول لأمته بما بعث بـــه مـــن الإيمـــان والقرآن والكتاب والحكمة، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة أو الإجماع، أو توابع ذلك فالأول إضافـــة له بحسب حكمه في الشرع، والثاني : إضافة إلى طـــريقه ودليلـــه، فقولنا في الأول: علم شرعي، كما يقال : علم عقلي وسمعي. الأول : نظـــر فيـــه من جهة المدح والذم، والثواب والعقاب، والأمر والنهي، وهو خطـــاب التكـــليف. والـــثاني : نظر فيه من جهة طريقه ودليله، وصحته وفساده، ومطابقته ومخالفته، وهو من جهة خطاب الإخبار.

ثم كل من القسمين على قسمين : فإنه إذا عرف أن الشرعي إما أن يكون ما أخـــبر بـــه، وإما أن يكون ما أمر به. فما أخبر به : إما أن يبين له دليلاً عقلياً أو لا يذكر. وما أمر به : إما أن يكون مقصوداً للشارع : أو لازماً لمقصود الشارع. وهو ما لا يتم مقصوده الواجب أو المستحب إلا به فهذه أربعة أقسام.

وإن شـــئت أن تقســـم المأمور به إلى ما يعرف بالعقل فقط وإلى ما يعرف بالشرع أيضاً، فيكون شرعياً خبراً وأمراً فإن ما علم بالشرع لا يخلو : إما أن يراد به إخبار الشارع أو دلالة الشارع، فإذا عني به ما دل عليه الشارع مثل دلالته على آيات الربوبية ودلالة الرسالة ونحو ذلك، فإنه يجتمع في هذا أن يكون شرعياً عقلياً،

آيات الربوبية ودلالة الرسالة ونحو ذلك، فإنه يجتمع في هذا أن يكون شرعياً عقلياً، فـــإن الشارع لما نبه العقول على الآيات والبراهين والعبر اهتدت العقول، فعلمت ما هداها إليه الشارع.

واعـــلم أن عامـــة مســـائل أصول الدين الكبار : مثل الإقرار بوجود الخالق وبوحدانيته،وعـــلمه وقدرته، ومشيئته وعظمته، والإقرار بالثواب والعقاب، وبرسالة محمـــد صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما يعلم بالعقل، قد دل الشارع على أدلته العقلية، وهذه الأصول التي يسميها أهل الكلام العقليات وهي ما تعلم بالعقل، فإنها تعـــلم بالشـــرع لا أعني بمجرد إخباره فإن ذلك لا يفيد العلم إلا بعد العلم بصدق المخـــبر. فالعلم بها من هذا الوجه موقوف على ما يعلم بالعقل من الإقرار بالربوبية وبالرســـالة، وإنمـــا أعني بدلالته وهدايته. كما أن ما يتعلمه المتعلمون ببيان المعلمين وتصنيف المصنفين إنما هو لما بينوه للعقول من الأدلة.

فهـــذا موضـــع يجب التفطن له : فإن كثيراً من الغالطين من متكلم ومحدث وعـــامي وغيرهم، يظن أن العلم المستفاد من الشرع إنما هو لمجرد إخباره تصديقاً له فقط، وليس كذلك، بل يستفاد منه بالدلالة والتنبيه والإرشاد جميع ما يمكن ذلك فيه من علم الدين.

والقســـم الـــثاني من الشرع : ما يعلم بإخبار الشارع. فهذا لا يخلو. إما أن يمكن علمه بالعقل أيضاً، أو لا يمكن، فإن لم يمكن. فهذا يعلم بمجرد إخبار الشارع. وإن أمكـــن علمه بالعقل فهل يوجد مثل هذا؟ وهو أن يكون أمراً أخبر الشارع به وعـــلمه ممكـــن بالعقل أيضاً، و لم يدل الشارع على دليل له عقلي، فهذا ممكن ولا نقـــص إذا وقع مثل هذا في الشريعة، فإنه إذا عرف صدق المبلغ جاز أن يعلم بخبره كل ما يحتاج إليه، ولا ريب أن كثيراً من الناس لا ينالون علم ذلك إلا من جهة خبر الشارع، وقد أحسنوا في ذلك حيث آمنوا به : لكن هل ذلك واقع مطلقاً ؟

وقـــد ذهب خلائق من المتفلسفة والمتكلمة والمتفقهة والمتصوفة والعامة وغير ذلك إلى وقوع ذلك. وهو أن فيما أخبر به الشارع أموراً قد تعلم بالعقل أيضاً وإن كان الشارع لم يذكر دلالته العقلية.

وهذا فيه نظر : فإن من تأمل وجوه دلالة الكتاب والسنة وما فيها من جلي وخفـــي وظاهر وباطن قد يقول : إن الشارع نبه في كل ما يمكن علمه بالعقل على دلالـــة عقـــلية كما قد حصل الاتفاق على أن ذلك واقع في مسائل أصول الدين الكبار. وفي هذا نظر.

فصارت العلوم بهذا الاعتبار : إما أن تعلم بالشرع فقط. وهو ما يعلم بمجرد إخبار الشرع مما لا يهتدي العقل إليه بحال، لكن هذه العلوم قد تعلم بخبر آخر غير خـــبر شـــارعنا محمد صلى الله عليه وسلم. وإما أن تعلم بالعقل فقط : كمرويات الطب والحساب والصناعات، وإما أن تعلم بهما، فإما أن يكون الشارع قد هدى إلى دلالـــتها كمـــا أخبر بها أم لا، فإن كان الأول فهي عقليات الشرعيات، أو عقلي الشارع، أو ما شرع عقله، أو العقل المشروع، وإما أن يكون قد أخبر بها فقط فهذه عقلية من غير الشارع. فيجب التفطن.

لكن العقلي قد يعقل من الشارع وهو عامة أصول الدين وقد يعقل من غيره ولم يعقـــل مـــنه. فهذا في وجوده نظر. وبهذا التحرير يتبين لك أن عامة المتفلسفة وجمهـــور المتكلمة جاهلة بمقدار العلوم الشرعية ودلالة الشارع عليها ويوهمهم علو العقلية عليها، فإن جهلهم ابتني على مقدمتين جاهليتين :

إحداهما : أن الشرعية ما أخبر الشارع بها.

والثانية : أن ما يستفاد بخبره فرع للعقليات التي هي الأصول. فلزم من ذلك تشريف العقلية على الشرعية.

وكلا المقدمتين باطلة. فإن الشرعيات : ما أخبر الشارع بها وما دل الشارع عـــليها. ومـــا دل الشارع عليه ينتظم جميع ما يحتاج إلى علمه بالعقل وجميع الأدلة والـــبراهين وأصول الدين ومسائل العقائد، بل قد تدبرت عامة ما يذكره المتفلسفة والمتكلمة والدلائل العقلية، فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتي بخلاصته الصافية عن الكدر وتأتي بأشياء لم يهتدوا لها. وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها وقد بينت تفصيل هذه الجملة في مواضع.

وأما إذا أريد بالشرعية ما شرع علمه، فهذا يدخل فيه كل علم مستحب أو واجب، وقد يدخل فيه المباح، وأصول الدين على هذا من العلوم الشرعية أيضاً. وما علم بالعقل وحده فهو من الشرعية أيضاً : إذا كان علمه مأموراً به في الشرع.

وعلى هذا فتكون الشرعية قسمين : عقلية وسمعية وتجعل السمعية هنا بدل الشرعية في الطريقة الأولى. وقد تبين بهذا أن كل علم عقلي أمر الشرع به أو دل الشرع عليه فهو شرعي أيضاً. إما باعتبار الأمر أو الدلالة أو باعتبارهما جميعاً.

ويتبين بهذا التحرير أن ما خرج من العلوم العقلية عن مسمى الشرعية، وهو ما لم يأمر به الشارع، ولم يدل عليه فهو يجري مجرى الصناعات، كالفلاحة والبناية والنساجة وهذا لا يكون إلا في العلوم المفضولة المرجوحة،[1] ويتبين أن مسمى الشرعية أشرف وأوسع وأن بين العقلية والشرعية عموماً وخصوصاً، ليس أحدهما قسيم الآخر وإنما السمعي قسيم العقلي، وأنه يجتمع في العلم أن يكون عقلياً وهو شرعي بالاعتبارات الثلاثة: إخباره به ، أمر به، دلالة عليه. فتدبر أن النسبة إلى الشرع بهذه الوجوه الثلاثة.

ثم ما أمر به الشارع من العلم : إما أن يكون أمره به يعود [إلى مقصود الشارع حقيقة] أو لزوماً من جهة ما لا يأتي المشروع إلا به.

---

(١) وقد سبق ابن عبد البر – رحمه الله – شيخ الإسلام إلى هذا التصنيف،ولكن بأسلوب آخر فقال: والعلوم عند جميع أهل الديانات ثلاثة : علم أعلى، وعلم أسفل، وعلم أوسط. فالعلم الأعلى عندهم: علم الدين الذي لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزل الله في كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصاً.

والعلم الأوسط : هو معرفة علوم الدنيا التي يكون معرفة الشيء منها بمعرفة نظيره، ويستدل عليه بجنسه ونوعه، كعلم الطب والهندسة والآفات العارضة وطبائع الأزمان والبلدان، ومنافع الحركة والسكون، وضروب المداواة والرفق والسياسة".

فهذا هو ابن عبد البر ينقل هذا التقسيم مقراً له، وقد أخرج السياسة (التي ليست مبنية على أحكام الله) من العلوم الشرعية، والسياسة التي يقصدها ابن عبد البر هي السياسة المبنية على الأفكار المجردة والأهواء المتبعة حيث لا ضابط لها، ولا مرجع لها يرجع إليه عند الاختلاف.

انظر : جامع بيان العلم وفضله (٢/٤٥ ، ٤٩).

وكذلـــك الحكم الشرعي يريد به المعتزلة ما أخبر به الشارع فقط. ويريد به الأشعرية ما أثبته الشارع.

وقد وافق كل فريق قوم من أصحابنا وغيرهم، والصواب أن الحكم الشرعي يكون تارة ما أخبر به، ويكون تارة ما أثبته وتارة يجتمع الأمران. والله أعلم". انتهى كلام شيخ الإسلام - رحمه الله- .[1]

وليـــس بعـــد كلام شيخ الإسلام أي تعليق فهو كلام جد نفيس، ما على القـــارئ سوى التدبر في معانيه، ومن ثم ينظر هل "فقه الواقع" الذي ذكره الدكتور من علوم الشريعة أم لا ؟

ولا يغرنك ما قال الدكتور من أن فقه الواقع حماية للأمة، وأن الأمة لن تفلح إلا بمعرفتها لهذا الفقه "فقه الواقع" لأن كلامه هذا ليس عليه دليل شرعي، ولم يسبق أن قاله أحد من علماء السلف وما قاله تضخيم مفرط، بل إن هذا الفقه الذي ذكر أصـــوله وفروعه قد يجر الأمة إلى ما لا تحمد عقباه لأنه يضعف جانب التوكل على الله، ويعـــزز قضية الاعتماد على الذات، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين).

ولا يهم حسن مقصد الدكتور فإن حسن المقصد يدل على سلامة النية وليس عـــلى ســـلامة الطـــريقة والمنهج، فسلامة النية وحسن القصد شيء، وصحة العلم وصواب العمل شيء آخر.[2]

وفي الصحيح عن عمر رضي الله عنه أنه قال : **"إن الوحي قد انقطع، وإنما نـــأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس إلينا من سريرته شيء الله يحاسب سريرته. ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة".**[3]

---

(١) انظر الفتاوى (١٩/٢٢٨ - ٢٣٤).

(٢) قال أبو محمد ابن حزم -رحمه الله - في كتابه الفصل في الملل : ولا ينتفع بإصابته الحق إذا لم يصبه من الطريق التي لم يجعل الله تعالى له طلب الحق وأخذه إلا من قبلها. ص (٢٤٥) من الكتاب المذكور.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب الشهداء العدول.

والعجيب أن الناس قبلوا كثيراً من البدع وسكت كثير من طلاب العلم عن التحذير منها بحجة سلامة نية قائلها أو مقصد مرتكبيها. وهذه ليست حجة أمام الله.

مثال ذلك :

إن مساجدنا ظلت فترة من الزمن خالية من البدع ومن طرق أهل البدع ولكن الحاصل اليوم أن الناس يجتمعون فيها لإحياء الطرق الصوفية، وما من منكر أو ناصح فتجد أحد الوعاظ الجهال يأتي (وهم في هذا الوقت كثير) فيقيم للناس سماعاً يغني لهم فيه بالموعظة والناس يهزون رؤوسهم طرباً أو تباكياً!.

وقد تعدى هذا الأمر من كونه يقام في المحاضرات العامة إلى خطب الجمعة، والله المستعان.

وما علم هؤلاء الجهال أنهم في البدعة غارقون، ولسنة سيد المرسلين مخالفون.

فالواجب على ولاة الأمور من حكام وعلماء منع هؤلاء الوعاظ وزجرهم من استخدام المساجد لهذه الأمور البدعية.[1]

والخلاصة أن قول الدكتور أن فقه الواقع من علوم الشريعة باطل؛ لأنه لم يذكر عليه دليلاً حقيقياً من كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا من إجماع.

يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله - : (المقدمة السابعة) : "كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى فبالتبع والقصد الثاني لا بالقصد الأول، والدليل على ذلك أمور :

أحدها : أن كل علم لا يفيد عملاً فليس في الشرع ما يدل على استحسانه، ولو كان مستحسناً شرعاً لبحث عنه الأولون من الصحابة والتابعين، وذلك غير موجود، فما يلزم عنه كذلك.

---

(١) وللاستزادة يرجع إلى المجلد (١١) من فتاوى شيخ الإسلام فإنه مليء بنقد مثل هذه السماعات البدعية.

والـــثاني : أن الشرع إنما جاء بالتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام ؟ ... ثم ذكر آيات تدل على ذلك.

والثالث : ما جاء من الأدلة الدالة علىأن روح العلم هو العمل، وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به ... ثم ذكر أدلة صريحها قول النبي ﷺ **(لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس خصال وذكر فيها وعن علمه ماذا عمل فيه)**.

وقال في المقدمة الثامنة : (العلم الذي هو العلم المعتبر شرعاً، أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق هو العلم الباعث على العمل الذي لا يُخلّي صاحبه جارياً مع هواه كيف كان).

وقد قال قبل ذلك : كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي. ثم ذكر أدلة على ذلك منها قوله : إن الشرع قد جاء ببيان ما تصلح به أحوال العبد في الدنيا والآخرة على أتم الوجوه وأكملها، فما خرج عن ذلك قد يظن أنه على خلاف ذلك، وهو مشاهد معتبر في التجربة العادية، فإن عامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلق بها ثمرة تكليفية، تدخل عليهم الفتنة والخروج عـــن الصراط المستقيم، ويثور بينهم الخلاف والنـــزاع المؤدي إلى التقاطع والتدابر والتعصب حتى تفرقوا شيعاً، وإذا فعلوا ذلك خرجوا عن السنة، ولم يكن أصل التفرق إلا هذا السبب، حيث تركوا الاقتصار من العلم على ما يعني وخرجوا إلى ما لا يعني، فذلك فتنة على المتعلم والعالم... وألمح إلى أنه إعراض عن الشرع أيضاً.

وســـوف تـــأتي المناقشـــة فيما بعد حول الأدلة التي ذكرها، ثم نبين مجانبته الصواب في الاستدلال بها.

٤ - ثم إن كـــان الدكتور ناصر يدعي أن هذا الفقه "فقه الواقع" من علوم الشريعة فسوف نطرح عليه سؤالاً مهماً وهو :

ما دام أن هذا الفقه من علوم الشريعة، فهل كان أئمة وعلماء السلف عالمين بـــه أم لا ؟ وسوف نجيب على الاحتمالين؟ فإن قال : نعم. قلنا له: إذاً سوف نسير

على طريقتهم ونتبع أثرهم وسنكون عالمين بهذا الفقه كما كانوا. والحمد لله أننا لم نجد في كلامهم ولا مؤلفاتهم ما يدل على ما قاله الدكتور مطلقاً.

وإن كانت الإجابة بـــ "لا" فلازمه أن عامة أئمة وعلماء السلف جهلاء بالواقع، وهذه طامة كبرى يجب عليه التفطن لها. وفي الوقت نفسه يكون أثبت أن هذا الفقه "فقه الواقع" هو من تلقاء نفسه. وهذا إلزام له؛ وعليه أن يختار أحد الاحتمالين.

وفي ص (٥) قال أيضاً :

[هـــذه الرســـالة خلاصة جهد وبحث وعناء، التقيت من أجلها بعدد من طلاب العلم والعلماء وناقشتهم وسألتهم ووجهوني، وأفدت من ملاحظاتهم وأفكارهم. ولكن حقي على إخوتي الكرام ، . . . الخ].

سبحان الله - والله أكبر.

أهذه الرسالة خلاصة جهد وبحث وعناء !! أنا لا أعلم ماذا سيكون حالها لو خرجت من غير هذا الجهد والعناء؟! إنها رسالة أشبه ما تكون بالخلق البالي يحسب عـــلى صاحبه وهو لا ينتفع به ولا يستطيع أن ينفع به غيره، والغريب أنه ذكر في الشريط أنها ما خرجت إلا بعد سنتين.

حين ذاك فلا أقول إلا كما قال الأول : غبَّر شهرين ثم أتى بكلبين.[١]

ولم يذكـــر الدكتور أسماء هؤلاء العلماء الذين ناقشهم وناقشوه. علماً بأني لأظن أحداً من كبار العلماء يقره على مثل ذلك.[٢]

---

(١) الأمثال للميداني قيل في شرحه : يضرب لمن أبطأ ثم أتى بشيء فاسد.

(٢) الغـــريب أن الدكتور ناصر دائم التحفظ عن بيان أسماء هؤلاء العلماء ، ففي شريطه (التوحيد) قال : وقد كان أحد المشايخ يدرسنا العقيدة الطحاوية ويربطها بواقعنا المعاصر، ثم أثنى على هذا الشيخ ولم يذكر اسمه. ولا أدري ما هو السبب في ذلك ؟ مع العلم أن السلف كانوا حريصين على معرفة شيوخ المتكلم، ولا أظن أنه يخفى على طالب العلم ذلك.

وفي ص (٧).

"بدأ بخطبة الحاجة، وهذه من حسنات الرسالة وهي طريقة كثير من علماء السلف - رحمهم الله - ولفضيلة الشيخ الألباني رسالة صغيرة جمع فيها طرق خطبة الحاجة، وأشار إلى استحباب البدء بها في الدروس والمحاضرات والخطب، وحتى الكتب والرسائل وفي قوله بالاستحباب نظر".

وفي ص (٨) قال :

[وقد قلبت النظر في هذا الواقع متلمساً الأسباب،وباحثاً عن سبل العلاج، محاولاً المساهمة في الخروج من هذا الوضع إلى المكانة التي تليق بنا، نصحاً للأمة وإبراءً للذمة].

قلت وبالله التوفيق :

هذا شعور طيب من الدكتور وحرص منه محمود، ولكنه لم يوفق في تحديد ما تحتاج إليه الأمة حتى تعود إلى مكانتها.

وأقول: إن جميع العلماء المخلصين والدعاة الناصحين يفكرون فيما تفكر فيه من الرغبة في صلاح أمر الأمة، وقد مر بالأمة فعلياً أئمة وعلماء مخلصون استطاعوا بعد توفيق الله أن يعيدوا للأمة مكانتها نسبياً وإلا فإن الوصول بها إلى ما كانت عليه في القرون المفضلة لن يكون؛ لأن الأدلة الشرعية دلت على ذلك وليس هذا موضع بسطها.

وما على الدكتور وغيره من الراغبين في صلاح الأمة إلا النظر في الشريعة والعمل بمقتضاها والاقتداء بأولئك الأئمة المصلحين الذين تحقق فيهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)**.[1]

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) وغيره، وسنده حسن وهو مشهور عند أهل العلم.

فـــتأمل قول الرسول صلى الله عليه وسلم (يجدد لها دينها) فهو دليل على أن الأمـــة لا تحـــتاج إلى أكـــثر من ذلك، وتجديد الدين لا يحصل إلا بتعلمه ثم تعليمه والدعـــوة إليه وكل ذلك على الوجه الصحيح، وتأمل أن هؤلاء الأئمة الذين جاءوا وجددوا للأمة دينها. لم يقل أحد منهم أن الأمة لا ينقصها إلا (فقه الواقع) أو ألف فيه كتاباً ودعا الناس إليه، وهذا لم يحصل مع كثرتهم عبر القرون الماضية ومع تعدد أماكنهم كما هو معروف.

وفي ص (٨) قال :

[بعـــد أن كـــنا الســـادة والقادة،وحماة البيضة والدار ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّـــةٍ أُخْـــرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـــأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـــوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]".

قـــلت : وفي هذا إشارة إلى أن الخيرية الواردة في الآية خاصة بالقرون الثلاثة الأولى، وهذا غير صحيح، فإن الخيرية المذكورة عامة لأمة محمد حتى تقوم الساعة. قال ابن كثير في تفسير الآية : والصحيح أن هذه الآية في جميع الأمة كل قرن بحسبه.

وقال الشوكاني - رحمه الله - : (فيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت متفاضلة فيما بينها.

ولا خلاف بأن محمداً عليه الصلاة والسلام هو أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن أمته هي خير الأمم ما دامت على الدين، والأدلة على ذلك كثيرة.

وفي آخر ص (٨) قال :

[أصبحنا عالة على أعدائنا - وهمّاً على أمتنا].

أقول وبالله التوفيق :

هذه الجملة مشكلة على كل حال وكأنها جمع بين متناقضات؛ لأنه إن كان يقصد "بأصبحنا" هو وأمثاله ومن على شاكلته فالأمر كما قال ولا حاجة ليمين بعد إقرار، والاعتراف سيد الأدلة.

وإن كان يقصد بـــ "أصبحنا" عموم الأمة، فقد أخطأ خطأً عظيماً.

وخالف صريح الآية ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] أفتكون خير الأمم عالة على الأمم وخصوصاً أعداءها.

وقـــد أخرج البخاري وغيره تفسير أبي هريرة رضي الله عنه لهذه الآية فقال رضي الله عنه: (خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام).[١]

وهو وإن كان موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه إلا أنه في حكم المرفوع؛ لأن أبا هريرة رضي الله عنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث (**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**).[٢]

وقـــول الدكتور مخالف لقول الرسول ﷺ : (**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة**).[٣]

قال ابن حجر في آخر شرحه لهذا الحديث : وفيه بيان واضح لمزيد فضل هذه الأمة على الأمم السابقة زادها الله.

وهو أيضاً مخالف لقول الرسول صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة : (**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر . . .**).[٤]

وعند الإمام أحمد بزيادة (مع كل ألف سبعون ألفاً)- قال الحافظ وسنده جيد.

وهو كذلك بخلاف قول الرسول صلى الله عليه وسلم : "**إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها**).[٥]

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، سورة آل عمران ، باب كنتم خير أمة.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب الأسارى في السلاسل.

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب فرض الجمعة.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب البرود والحبر والشملة.

(٥) أخرجه أحمد في المسند عن معاوية بن حيدة. وأخرجه الترمذي وحسنه ، كتاب التفسير ، سورة آل عمران، ﴿كنتم خير أمة . .﴾. والحاكم أيضاً وصححه. وسكت عنه الذهبي.

أيصـــح بعـــد ذلك أن يقال: إن هذه الأمة عالة على الأمم وهي خير الأمم وأكرمها.

ولا أعلم ما هي الأسباب التي جعلت الدكتور ناصر يقول مثل هذه الكلمة إلا أن يكون قد اغتر بما عند غيرنا من الأمم من المدنيات الزائفة الزائلة.

وهنا أقول للدكتور : ألا تقرأ وتتدبر قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ ﴾ [الروم: ٧].

فهـــذا الأمر ليس بغريب فمنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون بحاجة إلى غيرهم في الصناعة والحرف. (١)

ومع ذلك فقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم أسفار المسلمين إلى الشام واليمن للتجارة والاستفادة من صناعة اليهود والنصارى، ولم ينقل عنه عليه الصلاة والســـلام أنـــه قال لأصحابه يوماً : أنتم عالة على غيركم. مع علمه عليه الصلاة والسلام بأن السلاح الذي يستخدمه المسلمون والمنسوجات التي يلبسونها والحلي التي يتزينون بها والأجبان التي يأكلونها غالبها يأتي من غير المسلمين.

ولم يـــنقل أيضاً عن أحد من أصحابه أنه قال ذلك. وليست قصة أبي لؤلؤة المجوسي على طالب العلم بخافية، فلم يؤذن له بدخول المدينة إلا بحجة أنه كان صانعاً ماهراً، وذلك عندما كتب المغيرة بن شعبة إلى عمر رضي الله عنهما بأن عنده منافع كـــثيرة يستفيد منها الناس فهو حداد، نقاش، نجار، فأذن له(٢)، ثم حصل منه ما هو معروف.

فقد ذهب الأئمة الأربعة وغيرهم من المحققين إلى جواز دخول غير المسلمين إلى الحجـــاز لبيع منتجاتهم مع اختلاف بينهم في مدة المكث. ولم يقل أحد منهم ما قاله الدكتور.

---

(١) انظر الفتاوى (٢٨/ ٧٩).

(٢) انظر : مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن الجوزي، باب مقتله رضي الله عنه.

وقـــال ابن خلدون في مقدمته، فصل "في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع" وفي موضـــع آخـــر قال أيضاً : فصل "في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك"، وذكر على ذلك بعض استدلالاته العقلية.[1]

ولكـــنا نقـــول : إن الرقي الحقيقي التام لا يكون لأمة من الأمم إلا بتطبيق الإسلام الصافي الخالي من البدع، وكما طبقه سلف هذه الأمة؛ لأن الإسلام يصلح لكل زمان ولكل مكان، ولكل جنس.

ونعـــود إلى كلمة الدكتور ناصر وهي قوله : **[أصبحنا عالة على أعدائنا، وهمّاً على أمتنا]**.

فنقول لـــه : إن هذه الكلمة أيضاً مخالفة لهدي الرسولﷺ حيث كان يعجبه الفأل (الكلمة الطيبة) والاسم الطيب، قال أبو هريرة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(لا طيرة، وخيرها الفأل. قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم)**.[2]

وفي رواية صحيحة عند أبي داود عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **(لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح، والفأل الصالح: الكلمة الحسنة)**.[3]

قال ابن حجر في الفتح في شرح الحديث :

قـــال ابن بطال: جعل الله في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي وإن كان لا يملكه ولا يشربه. وأخرج الـــترمذي وصححه من حديث أنس "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع : يا نجيح يا راشد) وأخرج أبو داود بسند حسن عن بريدة

---

(١) قد لا تكون الأسباب التي ذكرها ابن خلدون صحيحة، بل إنها قد تكون جبلة.

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الطب ، باب لا طيرة.

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب الطب ، باب الطيرة.

: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً يسأل عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رؤي كراهة ذلك في وجهه).

والخلاصة : أن كلمة الدكتور ناصر سيئة ومخالفة للهدي النبوي. وبعد ذلك قال :

[وأدرك أعداؤنا سر تأخرنا، ومكمن مصيبتنا وأساس بليتنا، فعاثوا في الأرض فساداً، يتآمرون ويخططون ونحن في غفلة عما يكاد لنا، انشغلنا بأنفسنا عن عدونا وبدنيانا عن ديننا، فلا ديننا يبقى ولا ما نعمر ولا أريد أن أحمل أعداءنا كل مصائبنا ومآسينا ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فمنا الداء وعندنا الدواء بإذن الله، وما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله].

أقول وبالله التوفيق :

يشير الدكتور ناصر في كلامه السابق إلى أن الجهل بفقه الواقع، هو سر تأخر الأمة، وهو مكمن مصيبتها، وأساس بليتها، وبعد قليل سوف يصرح الدكتور بما أشار إليه هنا.

وهذا الكلام غير صحيح، وستجد في طيات هذا الكتاب ما هو رد عليه.

ونستطيع هنا تلخيص أسباب تأخر الأمة ونجعلها في سببين رئيسيين :

١ - ضعف العلم في دين الله عز وجل.

٢ - ضعف العمل به.

وقد يقول قائل: وارتكاب المعاصي أليس سبباً من أسباب تأخر الأمة وانحطاطها؟ أقول بلى ! لكنه ناتج عن السببين المذكورين.

وهذا مستمد من قوله سبحانه وتعالى : : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأعراف : ٥١].

فهم لم يأخذوا الدين بحزم وقوة كما جاء في قوله تعالى: ﴿ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [البقرة : ٦٣] وقد شغلتهم الدنيا وغرهم كذلك عن العمل بالدين.

أما قوله : **[فمنا الداء وعندنا الدواء بإذن الله]**.

فهذا صحيح؛ فالهوان الذي تعيشه الأمة الإسلامية إنما هو بسبب ابتعادها عن دين ربها وهدي نبيها وسبيل سلفها. فمتى عادت إلى دينها، عادت إليها مكانتها ورفعتها ورقيها وهذا مصداق قول عمر رضي الله عنه: **"نحن قوم أعزنا الله بالإسلام"**.[1]

ولكن الدكتور أخطأ في التشخيص ومن ثم أخطأ في العلاج - فجعل السبب في تأخر الأمة، وهوانها هو جهلها بواقعها، بيد أن السبب الحقيقي هو الابتعاد عن الدين، والدواء النافع، هو الرجوع إليه. وليس تعلم فقه الواقع كما قال الدكتور.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : **(إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم ! ! !)**.[2]

وأما قوله :

[وما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله].[3]

---

(١) أخرجه ابن عساكر بلفظ قريب من هذا وسنده صحيح، وذكره ابن كثير في البداية في قصة فتح بيت المقدس

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب البيوع، باب النهي عن العينة. وأخرجه أحمد، وهو حديث فيه كلام والراجح أنه حديث (حسن) بمجموع طرقه. والله أعلم.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الطب ، بلفظ "ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء" عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد بلفظ :(إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله) قال أحمد شاكر صحيح الإسناد.

هـــذا حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فكان الواجب عليه أن يبين ذلك، ويضعه بين علامتين ليعرف أنه حديث؛ وهو حديث صحيح.

وأعـــود فأكرر إن الدواء الذي تصلح به الأمة وتعود إلى ما كانت عليه من رفعة وسناء هو بالرجوع إلى الدين قلباً وقالباً علماً وعملاً.

ويجب على كل مسلم أن يعي ويوقن بأن المخرج الوحيد للأمة مما هي فيه من محـــن وأزمـــات إنما هو بالرجوع والعودة إلى الدين دون شك ولا ريب؛ لأن الله ســـبحانه وتعالى وبـــخ من ظن بالله ظن الســـوء. فقال سبحانـــه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج : ١٥].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية : قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب أي بحـــبل ﴿إلى السماء﴾ أي سماء بيته ﴿ثم ليقطع﴾ يقول ثم ليختنق به وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة وغيرهم ، ثم ذكر قولاً لعبد الرحمن بن زيد بن أســـلم ليـــس بعيداً عن قول ابن عباس رضي الله عنهما، ثم قال: وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١] الآية، ولهذا قال :﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحج : ١٥]. إلى آخر ما قال - رحمه الله - .

وفي آية أخرى ذكرهم سبحانه بما كانوا عليه (أي المهاجرين) ثم بما آلوا إليه. فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٦].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية :

"ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي وروومي، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. قال قتادة بن دعامة السدوسي - رحمه الله - في قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال : ٢٦] قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً[1]، وأشقاه عيشاً وأوجه بطوناً، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات منهم ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكن به البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله، ما رأيتم؛ فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله، اللهم اجعلنا من الشاكرين الذاكرين".

ففي الآية الأولى وبخ سبحانه من كان يظن أن الله لن ينصر محمداً صلى الله عليه وسلم ودينه. وفي الآية الأخرى ذكر سبحانه وتعالى المهاجرين بحالهم التي كانوا عليها قبل الإسلام. ثم بحالهم بعده.

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب: إذا قال لقوم شيئاً ثم خرج فقال بخلافه. قول أبي برزة رضي الله عنه : "إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلة والضلالة وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد عليه الصلاة والسلام حتى بلغ بكم ما ترون" الحديث.

بعد هذا دعاهم سبحانه وتعالى إلى ما يحييهم فقال جل ذكره : : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال : ٢٤].

قال الشوكاني رحمه الله في معنى الآية :

"... أي إذا دعاكم إلى ما فيه حياتكم من علوم الشريعة؛ فإن العلم حياة كما أن الجهل موت... قال الجمهور من المفسرين : المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهٍ ففيه الحياة الأبدية السرمدية".

قال ابن كثير - رحمه الله : "قال البخاري : ﴿استجيبوا﴾ أجيبوا ﴿لما يحييكم﴾ لما يصلحكم".

ثم قال: "قال قتادة : ﴿لما يحييكم﴾ قال هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة، وقال السدي : ﴿لما يحييكم﴾ ففي الإسلام إحياؤهم بعد موتهم بالكفر".

إذاً فحياة الأمة لا تكون إلا بالإسلام وأي إسلام هذا؟ إنه إسلام الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح وفهمهم كما قال الإمام مالك : ما لم يكن بالأمس ديناً فلن يكون اليوم ديناً.

وبعد ذلك قال : **[ومن هذا المنطلق وجدت أن جهلنا بواقعنا سبب رئيس من أسباب مصيبتنا]**. أقول وأسأل الله التوفيق:

إن تحليل واقع الأمة (إن صحت العبارة) لا بد أن يكون من منطلق شرعي، وليس من منطلق عقلي، فإن الله ما سلط عذابه على أمة من الأمم إلا بسبب تعاطيها ما نهيت عنه؛ أو تركها لما أمرت به، فإن الله سبحانه وتعالى ما أعز أمةً إلا بفضله ولا أذل أخرى إلا بعدله.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها :

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى : ٣٠].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٥٥].

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٦٥].

وقال تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم : ٤١].

وقال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأنعام : ١٢٩].

وقال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الزمر : ٥١].

وقال تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴿٧٩﴾ ﴾ الآية. [النساء : ٧٩].

وقال تعالى : : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل : ١١٢].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد :١١].

إن هـــذه الآيـــات وغيرها من الآيات تدل دلالة قطعية على أن الله سبحانه وتعالى لا ينـــزل عذابه بأمة من الأمم إلا جزاء وفاقاً لما اكتسبته واجترحته. وهذا العذاب يأتي بصور متعددة ومتنوعة فتارة يكون إبادة تامة وتارة يكون مسخاً وتارة بتســـلط العدو، وأخرى بجور السلطان أو الفقر والخوف، إلى غير ذلك من أنواع العذاب والخلاصة : أن هذه الآيات أوضحت السبب الرئيس الذي أوصل الأمة إلى ما هي عليه الآن ألا وهو الابتعاد عن دين الله سبحانه وتعالى، وهذه المسألة لا يختلف فيها اثنان.

وبالمقـــابل فإني لم أجد في كتاب الله سبحانه وتعالى ولا في سنة رسوله عليه الصلاة والسلام ما يدل على أن السبب الرئيس (أو من الأسباب الرئيسة) في مصيبة المسلمين (على حد تعبيره) هو جهلها بواقعها.

والدكتور ناصر أيضاً لم يورد دليلاً شرعياً يؤيد كلامه.

فـــإذا كان الأمر كذلك - فإننا نجزم جزماً تاماً بأن ما ذكره الدكتور ناصر غير صـــحيح إذ لو كان من الأسباب الرئيسة لما أهملته الشريعة - وإلا فإنه يتهم الشريعة من حيث لا يشعر بالنقص - والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة الآية: ٣].

وبعـــد ذلك قال : **[وأيقنت أن فقه الواقع علم هجره الكثير من طلاب العلم ورواد الصحوة].**(١)

أقول وبالله التوفيـــق : الهجر لغة : الترك، قال تعالى: ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ ﴾ [المدثر:٥] أي: اترك، وفي الحديث الصحيح: هجر رسول الله صلى الله عليه وسلم نسائه شهراً، أي تركهم وأعرض عنهم، ولا يترك إلا ما له وجود في الأصل.

والدكتور ناصر يقول : فقه الواقع علم هجره الكثير من طلاب العلم ورواد الصحوة، والسؤال هنا، هل لهذا العلم وجود في الأصل أم لا؟.

---

(١) رواد الصحوة : هم العلماء، وهذا اتهام لهم بعدم فقه الواقع، وقرينة تؤكد ما ذكرناه في أول الكتاب.

إن الحق الذي لا مرية فيه، هو أن هذا الفقه المزعوم ليس له أصل البتة، ومن قال غير ذلك فعليه الإثبات. إن كتب السلف والحمد لله موجودة ومعروفة. وأقوالهم محفوظة ، ولم يرد لهذا الفقه ذكر في كتبهم ولا أقوالهم، ولم يؤلف فيه كثير ولا قليل وذلك منذ القرون الأولى إلى القرن السابع حتى أورد ابن القيم - رحمه الله - هذه الكلمة في بعض كتبه في باب القضاء، ومقصوده فقه الواقعة التي يراد الحكم فيها، ولم يقصد به ما يقصده الدكتور، فهناك فرق كبير بين مطلق الأمر، والأمر المطلق[1] وليس هذا مكان بسط المسألة.

وفي قوله : **[علم هجره الكثير من طلاب العلم ورواد الصحوة]**.

إن لفظ (الكثير) من الكلمات الخطيرة. كونها تشير إلى الشمول والعموم. فرواد الصحوة هم العلماء واتهامهم بأنهم لا يفقهون الواقع[2] أو أن علمهم علم نظري لا واقعي هذا في حد ذاته أمر عظيم، ومن شأنه إحداث فتن بين المسلمين؛ لأنه يزعزع ثقة الأمة بعلمائها مما يؤدي إلى الطعن عليهم بمثل هذه المطاعن الخطيرة. وبعدها يتخذ الناس رؤوساً جهالاً يفتونهم بغير علم[3] فيضلوا ويضلوا، وبالتالي ينتج عن هذا الأمر ضلالات لا يعلم خطرها إلا الله. وقبل الانتقال إلى نقطة أخرى أود أن أشير إلى شبهة ذكرها ابن خلدون في مقدمته أرد عليها باختصار. قال : باب في أن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها ثم أخذ يقرر تحت هذا الباب أن العلماء في الأحكام الشرعية لا يصلحون للسياسة - أي سياسة الناس - وعلل قوله

---

(١) انظر كتاب ابن القيم: بدائع الفوائد، (١٦١/٤).

(٢) نعم لم يصرح الدكتور بأنهم جهال في الواقع، ولكن قال إنهم هجروا هذا العلم (يعني تركوه) والتارك للعلم لا يكون عالماً به.

(٣) قال الرسول صلى الله عليه وسلم : **(إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر)** أخرجه الطبراني وابن المبارك في الزهد وذكره الألباني في الصحيحة برقم (٦٩٥).

وفي مسند قاسم بن أصبغ بسند صحيح عن عمر:"فساد الدين إذا جاء العلم من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير تابعه عليه الصغير" والصغير صغير القدر لا السن، وقيل الأصاغر هم أهل البدع. انظر فتح الباري (٣١٤/١٣).

هذا بأن علماء الشريعة من فقهاء وغيرهم علمهم هو علم نظري لا يستطيعون إنزاله على الواقع، وتوصل إلى أن العامي السليم الطبع المتوسط، الكيس أفضل في سياسته من العالم الفقيه في الشريعة.

وهـــذا كلام باطل لا يخفى بطلانه، وهي فلسفة ينكرها الشرع والعقل. ولا يقرها الجاهل فضلاً عن العالم.

وسبب بطلان قوله هذا من وجوه - نذكر منها ثلاثة :

١ - من المعلوم شرعاً وعقلاً أنه كلما كانت الولاية والحكم في يد الأعلم بالشريعة كلما كانت السياسة أصلح، وهذا مع لزوم التقوى.

ولذلك كانت سياسة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل السياسات. ألم تر أن موســـى عـــليه السلام لما غاب عن بني إسرائيل نصب عليهم أخاه هارون عليه الســـلام ؛ لأنه أعلم الناس بعده، ومحمد عليه الصلاة والسلام، أوصى بالخلافة لأبي بكـــر - رضـــي الله عنه - على الصحيح، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - أعلم الـــناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر استخلف عمر رضي الله عنه وهو أعلم الناس بعد أبي بكر، وكذلك باقي الخلفاء. وخلافة عمر بن عبد العزيز وسياسته كانت أفضل مما أتى بعده لما اجتمع له من العلم والتقوى.

وقـــد أشار القرآن الكريم في قصة طالوت إلى هذا الشرط (أعني العلم) فقال جل ذكره: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة : ٢٤٧].

وقال عن سليمان عليه السلام : : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ٢٠] والحكمة تشمل العلم، وقال عن يوسف عليه السلام:﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف: ٥٥].

٢ - أجمع أهل العلم على شرطية العلم للإمام واختلفوا في بلوغ درجة الاجتهاد[١] أي هل يجب أن يكون الإمام مجتهداً أم لا؟وهي مسألة مبسوطة في كتب الفقه.

٣ - إن تولي الجاهل (العامي سليم الطبع) للإمامة فساد للدين والدنيا، وهذا محرم شرعاً، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : **تفقهوا قبل أن تسودوا.**[٢]

وقبل الانتهاء من مناقشة هذه الفقرة أشير إلى أمرين مهمين :

الأول : أن بعض الجماعات الإسلامية ترى الخروج على الإمام بمجرد انتفاء شرط من شروط الإمامة التي نص عليها الفقهاء، أو بمجرد وقوع بعض المظالم في حكمه أو وقوعه في نوع من أنواع الفسق أو ما شابه ذلك، مما لا يوجب الخروج عليه في الحقيقة. لأن هذه الشروط التي نص عليها العلماء، إنما يجب مراعاتها في حالة اختيار أهل الحل والعقد للإمام، فيجب عليهم تولية الأصلح فالأصلح. أما إذا تولى الإمام أو الحاكم الحكم واستقر له الأمر بأي طريقة كانت فإنه يحرم الخروج عليه إلا أن يأتي بكفر بواح عليه من الله برهان[٣] وهذا البرهان هو شرط التكفير إذ لا يجوز التكفير بدونه، وهو الدليل ولا بد من توفر شرطين فيه وهما صحة الدليل وصحة الدلالة والاستدلال. وبهذا يغلق الباب على أهل الأهواء والجهل.

ولا يظن ظان أن الخروج إنما هو محصور في السيف، بل قد يكون الخروج باللسان أعظم منه بالسيف، لما يترتب عليه من البلاء لا سيما أيام الفتن. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**تكون فتنة تستنظف العرب، قتلاها في النار، اللسان فيها أشد من وقع السيف**).[٤]

---

(١) نقل الشاطبي في كتاب الاعتصام، الاتفاق على أن الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد. وهي مسألة خلافية، والعبارة التي ذكرنا أصح والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم.

(٣) قال البغوي في شرح السنة : البرهان هو آية أو سنة لا تحتمل التأويل.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه في أبواب الفتن وهو في مسند الإمام أحمد برقم (٦٩٨٠) وقد أطال أحمد شاكر - رحمه الله - الكلام في الحديث وقال: وهو صحيح الإسناد والله أعلم.

الـــثاني : مســـألة البيعة، وهي مسألة ردم عليها التراب، وغيبت عن أذهان الشباب في هذا الزمان، والله المستعان والناس فيها على ثلاثة أضرب :

١ - أنـــاس نكثوا بيعتهم وخلعوها من أعناقهم، وهؤلاء لا نقول فيهم إلا كما قال الـــنبي صـــلى الله عليه وسلم: **(من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).**[١]

٢- أنـــاس ترددوا في أمرهم، فلو سألت أحدهم قال : لم أبايع و لم أخلع، وهم في الحقيقة لاحقون بالصنف الأول، إذ ليس في أعناقهم بيعة.

والواجب عليهم أن يعقدوا قلوبهم على البيعة في الحال، ويعزموا عليها؛ لأن الـــبيعة القلبية واجبة على كل مسلم لظاهر النصوص، والتي منها قوله عليه الصلاة والسلام : **(من بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع).**[٢]

قال البربهاري -رحمه الله- في شرح السنة: ولا يحل لأحد أن يبيت ليلة ولا يرى أن عليه إمام.

وقال ابن حزم : **لا يحل لمسلم أن يبيت ليلتين ليس في عنقه بيعة لإمام.**[٣]

٣ - أناس بايعوا بأيديهم وقلوبهم وهم الذين وفقوا إلى الحق، وإلى اتباع منهج أهل الســـنة والجماعـــة وأولهم كبار العلماء وهم أهل الحل والعقد، والواجب على المسلمين عموماً أن يسعهم ما وسع علماءهم.

ويـــلزم من هذه البيعة أمر آخر هو من الأهمية بمكان وقد نص الشارع عليه. قـــال الرســـول صـــلى الله عليه وسلم **(إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم).**[٤]

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة ، باب فيمن خرج من الطاعة وفارق الجماعة.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء بالبيعة للخلفاء.

(٣) الأصـــل أنـــه لا يحل له أن يبيت ليلة واحدة إلا وفي عنقه بيعة ولا أعلم لماذا قال (ليلتين) إلا إن كان قاس ذلك على الوصية فيكون قد ناقض نفسه لأنه لا يرى القياس وخالف أيضاً ظاهريته.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٨٧٨٥). وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وهو أيضاً في صحيح الجامع (١٨٩٥).

وإذا تأملت وجدت أن النصيحة في هذا الحديث ذكرت مع التوحيد، وإفراد الله بالعبادة، وفيه دلالة على أهميتها.

فـــإن قيل: قد جاء حديث بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : **(من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحد من السلطان قرباً، إلا ازداد من الله بعداً)**[1]

وقـــد ذهـــب إلى هذا الحديث جماهير العلماء من السلف والخلف، فكرهوا لـــلعالم الدخول على السلطان ولو للنصيحة؛ من هؤلاء: الحسن وسفيان والفضيل وغيرهـــم. واستشـــار إســـحاق بن إبراهيم الإمام أحمد في الدخول على السلطان للنصيحة فأبى عليه الدخول فما زال يراجعه والإمام يأبى عليه وكل ذلك خوفاً من الفتـــنة، ذكر القصة ابن مفلح في "الآداب الشرعية". والجواب على ذلك أن يقال: مناصحة ولاة الأمور هي مما يرضاه الله كما في الحديث السابق وكما في حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال **"الدين النصيحة ثلاثاً، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)**[2] وكما في حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : **(بايعت النبي صلى الله عليه وسلم عـــلى إقامـــة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم)**[3] والإمام من عموم المسلمين الواجب بذل النصيحة لهم.

ولكن النصح لهم لا يستلزم الدخول عليهم فقد يكون بالمكاتبة ونحوها، وقد يكـــون بمجيء السلطان إلى العالم، وقد يكون النصح لهم بتسكين الفتن وعدم إيغار صـــدور العامـــة عـــليهم وعدم إهانتهم وتوقيرهم، وقد جاء في الحديث **"من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله".**[4]

---

(١) أخـــرجه أحمـــد (٩٦٨٤) وصـــححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٢) وقبله السيوطي في (ما رواه الأساطين).

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(٤) أخرجه أحمد عن أبي بكرة والترمذي كذلك وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٨٧).

وإذا كـــان السلطان مظهراً للسنة معزاً لأهلها غير متلبس بشيء من البدع فالخطب يسير إن شاء الله وخصوصاً في هذه الأزمنة التي ضعف فيها علم السلاطين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "وما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصـــحتهم واجب على الإنسان وإن لم يعاهدهم عليه وإن لم يحلف لهم الأيمان المؤكـــدة، كما يجب عليه الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، وحج البيت، وغير ذلك مما أمر الله به ورسوله من طاعة، فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيداً وتثبيتاً لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم.

ولهـــذا مـــن كـــان حالفاً على ما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصـــحتهم؛ أو الصلاة أو الزكاة أو صوم رمضان، أو أداء الأمانة أو العدل ونحو ذلك: لا يجوز لأحد أن يفتيه بمخالفة ما حلف عليه، والحنث في يمينه، ولا يجوز له أن يســـتفتـــي في ذلك : ومن أفتاه بذلك كان مفترياً على الله الكذب. مفتياً بغير دين الإسلام، فكيف إذا كان ذلك في معاقدة ولاة الأمور التي هي أعظم العقود التي أمر الله بالوفاء بها".[1]

وبعد ذلك قال : **[وفقه الواقع علم أصيل تبنى عليه كثير من العلوم والأحكام، وفي ضوئه تتخذ المواقف المصيرية].**

أقول وبالله التوفيق :

أمـــا قولـــه : "وفقه الواقع علم أصيل" فهذا غير صحيح ولا نسلم أنه علم، والحق أنه علم دخيل وسأذكر بعد قليل من كلامه ما يناقض قوله هذا.

أما قوله "تبنى عليه كثير من العلوم والأحكام" فهذا هو ما يخيف كل عاقل، وليس كل طالب علم أو عالم.

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يقينا شر هذه العلوم التي ستبنى على هذا الفقه

---

(١) الفتاوى (٣٥/٧ - ١١).

وأن يقيـــنا شر هذه الأحكام التي ستبنى عليه. فإنه والله ما بني على فاسد فهو فاسد وما بني على باطل فهو باطل.

أمـــا قولـــه : "وفي ضوئه تتخذ المواقف المصيرية" فهذا لا يخفى بطلانه؛ لأن المواقف المصيرية لا تؤخذ إلا من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وسنذكر من قوله هناك ما يناقض قوله هنا : قال ص (٥٧) ما نصه :

[فإن مما يجب أن يلحظه المتخصص في هذا العلم عدم الجزم والقطع بما يحدث في المســـتقبل، وخاصـــة أن الأدلة التي يبنى عليها هذا الأمر تدور بين ظنية الثبوت، وظنية الدلالة ويندر وجود دليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة في مثل هذه الأحوال، ولو وجد هـــذا الدليـــل، فإنه يبقى في دائرة الاحتمال من حيث إمكان الوقوع، لأن الوحي قد انقطع، ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [لقمان: ٣٤]...] إلى آخر ما قال.

والحمد لله على توفيقه فلن نجد كلاماً نرد به عليه أفضل مما رد به هو على نفسه.

فإذا ثبت أن هذا الأمر لا يعدو أن يكون إلا ظناً كما اعترف هو بذلك.

فإنا لا نقول إلا كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النجم : ٢٨].

وكقوله ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس: ٣٦].

وقـــال الرســـول صـــلى الله عليه وسلم: (**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**).[1]

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتباغض.

والظـــن المشار إليه في الحديث هو الظن الذي لا يستند إلى شيء يجوز الاعتماد عليه، ولا يشك أحد أن وسائل الإعلام وما شابهها لا يجوز الاعتماد عليها في مثل هذا الأمر. والله أعلم.

وبـــنص الآية الكريمة فإن الظن لا يبنـــى عليه علم، والرسول صلى الله عليه وســـلم حكـــم عـــلى الظن بأنه أكذب الحديث، فهل يعقل إذاً أن تبنـــى المواقف المصـــيرية على أكذب الحديث. أو تبنـــى الأحكام على شيء كذب. سبحان من نزه الشريعة عن مثل هذا.

وبعـــد ذلك قال : **[ومن خلال قراءتي اليسيرة واهتماماتي الخاصة بهذا العلم لم أجد من أصل له أو أفرده في رسالة أو مصنف]**.

أقول وبالله التوفيق :

اعـــلم هـــداني الله وإياك إلى الحق : أن للحق علامات يعرف بها، وللباطل علامات يعرف بها أيضاً . وأكبر علامة تدل على الباطل هي علامة التناقض. وهذا مستفاد من قولـــه سبحانـــه وتعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ **[النساء الآية : ٨٢]**.

ولمـــا كان القرآن هو كلام الحق تبارك وتعالى لم يكن فيه أدنى اختلاف أو تناقض وحاشاه عن ذلك ، ولذا فكلما قل الاختلاف والتناقض في الكلام كلما كان إلى الحـــق أقرب، والعكس بالعكس، ولذلك تجد في كلام أهل الأهواء والبدع من الاختلاف والتناقض ما يدلك على بطلانه.

قال الإمام الشاطبي في الموافقات "إن تخلف خاصية الاطراد والعموم عن العلم يقدح في جعله من صلب العلم؛ لأن عدم الاطراد يقوي جانب الاطراح، ويضعف جـــانب الاعتبار إذ النقض فيه يدل على ضعف الوثوق بالقصد الموضوع عليه ذلك العلم، ويقربه من الأمور الاتفاقية الواقعة عن غير قصد، فلا يوثق به ولا يبنـــى عليه".

وكـــتاب الدكـــتور مليء بمثل هذه التناقضات المتأرجحة ما بين تناقضات جذرية وشكلية.

وإليك بعض الأمثلة على ذلك :

فقوله في ص (٩) : **[ومن خلال قراءاتي اليسيرة، واهتماماتي الخاصة بهذا العلم لم أجد من أصل له أو أفرده في رسالة أو مصنف]**.

وفي هذه العبارة نوع اضطراب، فلا يمكن تصور حصول قراءة يسيرة واهتمام خاص، إذ الاهتمام الخاص، يعني شدة الاعتناء. قال ابن رجب في الجامع :" العناية شدة الاهتمام بالشيء".

وأيضـــاً فإن هذه العبارة تناقض قوله في ص (٥) **[هذه الرسالة خلاصة جهد وبحث وعناء]**.

وقوله في الصفحة نفسها : **[وفقه الواقع علم أصيل]** يناقض قوله في الصفحة نفســـها **[لم أجد من أصل له]**. إذ لو كان أصيلاً لوجد من السابقين من كتب فيه أو أشار إليه والأمثلة على ذلك كثيرة :

وفي ص (٩) نفسها قال : **[فبدأت أجمع شتات هذا الموضوع من بطون الكتب وعقول الرجال وتجارب العلماء الدعاة]**.

أقول وبالله التوفيق :

كلامـــه هذا غير صحيح؛ لأنه لم يذكر من كتب السلف شيئاً غير صحيح البخاري تخريجاً، هذا من ناحية الكتب ، أما قوله : (وعقول الرجال وتجارب العلماء والدعـــاة) فهو قول غير صحيح أيضاً؛ لأنه لم يذكر في كتابه السابق كلام أحد من عـــلماء السلف، يدعم به مقالته حول هذا الفقه المزعوم. ولو أفنـــى عمره في قراءة كتبهم وتتبع أقوالهم لما ظفر من ذلك بشيء.

أما ممن يسمون أنفسهم دعاة وخصوصاً في هذا العصر فسيجد في كلامهم ما يشبه كلامه. واللبيب لا تخفى عليه أسباب ذلك.

وفي ص (١٠) قال معرفاً فقه الواقع :

[هـــو عـــلم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة، من العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول والأفكار الموجهة لزعزعة العقيدة، والسبل المشروعة لحماية الأمة ورقيها في الحاضر والمستقبل].

قلت وبالله التوفيق :

١ - ذكر الدكتور في ص (٥) :

[أن فقه الواقع من علوم الشريعة التي يبنى بعضها على بعض].

وفي ص (٩) قال :

[وفقه الواقع علم أصيل تبنى عليه كثير من العلوم والأحكام] وعند تعريفه لهذا الفقه لا نجده ذكر سوى تعريفه هو لهذا الفقه وهذا دليل قوي على أن هذا الفقه ليـــس من علوم الشريعة الأصيلة إذ لو أنه كان كذلك لعرفه أئمة الإسلام وعلماؤه منذ قرون طويلة. ولذكروا له تعريفاً ضمن التعاريف التي ذكروها في كتب الأصول أو كتب التعريفات.

٢ - قـــولـــه في تعريفه لهذا الفقه : "هو علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة" غير صـــحيح لأنه ليس من المناسب أن يقال أنه علم يبحث في فقه. وإليك تفصيل ذلك : إن علماء الأصول قد عرفوا العلم بأنه : معرفة المعلوم على ما هو به.[١] وزاد غيرهم من غير تردد أو شك (جزماً)، فكان ذلك يقيناً، وهذا صحيح لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩].

وقـــد أجمعـــت الأمة على كفر من شك في الله . والآيات الدالة على ذلك كثيرة. أما الفقه فهو معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية، ولكن هذه المعرفة قد تكون يقينية وقد تكون ظنية.[٢]

---

(١) هذا تعريف العلم عند الأصوليين. انظر مختصر أصول الفقه لابن اللحام.

(٢) انظر شرح الكوكب المنير.

قال سبحانه وتعالى :﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة : ١٢٢]. وقد علم سبحانه وتعالى أن الفقهاء لا يتفقون فمنهم مجتهد مصيب له أجران ومجتهد مخطئ له أجر واحد، ولكن الحق واحد لا يتعدد، قال سبحانه وتعالى :﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الحجر : ٦٤] وقال سبحانه : ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الزمر : ٦٩].

فإذا علمت أن العلم عام والفقه خاص وأن العلم يقيني والفقه متردد بين اليقيني والظني، تبين لك أنه من الخطأ بمكان أن يقال أن العلم يبحث في الفقه، والله أعلم.

٣ - إن تعريف الدكتور ليس لغوياً لأنه لا يعتمد على أصل لغوي في ذلك، وكذلك ليس تعريفاً شرعياً لأنه ليس له ضوابط شرعية، فإذا كان كذلك لم يكن شرعياً.

٤ - إن تعريف الدكتور هذا فيه من الطول والغموض ما يخرجه عن كونه تعريفاً[1]

وإن شئت فقل إنه تعريف يحتاج إلى تعريف.

٥ - عند تحليلنا لهذا المصطلح الجديد (فقه الواقع) نجد أنه مصطلح خاطئ، لاسيما من الناحية الشرعية؛ لأن هذا الواقع في الحقيقة مجهول غير معلوم، ومعنى الفقه لغة: هو الفهم، فكيف يفهم هذا المجهول ؟ أو كيف يتفقه في شيء مجهول. ومن قال غير ذلك فعليه أن يبين لنا معنى (الواقع) المراد التفقه فيه. وإذا تأملت الأدلة الشرعية فستجد أن كلمة "الفقه" لا تأتي إلا لشيء محدد معلوم.

قال سبحانه:﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤]. والمراد أنكم لا تفهمون ولا تدركون تسبيحهم ، وهو مخصوص بفهم التسبيح وأصل التسبيح معلوم وقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ

---

(١) من المعهود أن التعاريف المشهورة في كتب الأصول لا تجاوز كلمات معدودة وليست سطوراً وهي كذلك واضحة دالة على المراد.

﴿ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الإسراء : ٤٦] والضمير في يفقهوه يعود إلى القرآن، والمعنى أنهم حرموا التفقه في القرآن، والقرآن معلوم.

وقال سبحانه: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود:٩١] والفقه في الآية مخصص ومحدد في القول.[1] ولكن قد يقول قائل: إن القرآن أورده مطلقاً ولم يحدده كما في قوله سبحانه وتعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحشر: ١٣] وفي قوله:﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [التوبة : ٨٧] وفي قوله:﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون : ٧] أقول هذا صحيح، ولكن اعلم أن الله سبحانه إذا ذكر الكافرين والمنافقين فإنه ينفي عنهم الفهم مطلقاً،[2] لأنه سبحانه حرمهم نعمة الفهم، وقد دلنا على ذلك حين شبههم بالأنعام فقال سبحانه:

﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال سبحانه : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٤]. وشبههم سبحانه أيضاً بالجماد فقال "﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤]، ومن المعلوم شرعاً وعقلاً أن الحيوانات والجمادات لا تفقه ولا تفهم، وما ينطبق على المنافق ينطبق على الكافر؛ لأن كل منافق كافر بالكتاب، والسنة، والإجماع.

والمتأمل لنصوص السنة يجد أن الفقه لا يأتي إلا متعلقاً بشيء محدد إما صراحة أو بقرينة تدل عليه.

---

(١) والآيات الدالة على ذلك كثيرة.

(٢) هناك فرق بين مطلق النفي والنفي المطلق. فإذا قلت فلان لا يفهم فإنك قد نفيت عنه أصل الفهم أما إذا قلت ما فهم فلان فإنك لم تنف عنه أصل الفهم ولكن نفيت عنه الفهم في جزئية. والله أعلم.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين؟)**[1] وقال صلى الله عليه وسلم: **" اللهم فقهه في الدين"**[2] وفي كلا الحديثين نلاحظ أن الفقه قد خصص وحدد بأمر الدين، والأدلة على ذلك من السنة كثيرة.

والمتدبر لما ذكرناه يستنتج أن إطلاق هذا المصطلح "فقه الواقع" [3] لا يصدر إلا ممن لم يتصور ما يقول . والله أعلم.

وفي ص (١١) وتحت عنوان أساس هذا العلم قال :-

[يتصور بعض طلاب العلم أن فقه الواقع علم جديد وثقافة حديثة، وهذا قصور في التصـــور؛ ونقص في العلم؛ لأن أساسه في القرآن، والسنة، وكلام سلف الأمة ففي سورة الأنعام يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٥] ومن فقه الواقع استبانة سبيل المجرمين].

أقول وبالله التوفيق :

جعل الدكتور هذه الآية الكريمة أساس استدلاله على فقه الواقع، وهي الدليل الوحيـــد الـــذي يدور حوله وسوف أعرض أقوال المفسرين حول الآية ليتبين الحق ويعلم هل الدكتور أصاب في استدلاله بهذه الآية أم أخطأ ؟

قـــال الدكتور في محاضرته المسجلة بعنوان فقه الواقع عندما ذكر هذه الآية : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾: **[استبانة سبيل المجرمين. أحبتي الكرام هي فقه الواقع ولقد تحدث المفسرون كثيراً عن هذه الآية، وبينوا ما يجب علينا تجاه هذه المسألة، والواقع الملح أننا غفلنا كثيراً كثيراً عن استبانة المجرمين،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء.

(٣) ذكر ابن القيم هذه العبارة ولكنه حصرها في أبواب القضاء – فهو بهذا لا يطلقها ولا يجعلها تتعدى الوقائع التي تحتاج إلى قضاء، ولذلك ذكرها في باب القضاء.

أو عـــن اســـتبانة سبيل المجرمين فعبثوا في بلادنا، وديارنا، وديننا، وعقيدتنا، ومجتمعنا، المجرمون – أحبتي الكرام –. يعملون في الإفساد ويسعون بالإفساد منذ سنوات طويلة، ونحن صحـــونا إن كنا قد صحـــونا متأخرين جداً والله – جلا وعلا – يقـــول لنا :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٥].

أقول هذه الآية؛ لأن هناك كثيراً من طلاب العلم هداهم الله من يتصور أن فقه الواقع مجرد ترف أو مجرد مزيد ثقافة من المعلومات لا : أقول أن فقه الواقع أصل من أصول ديننا ...] إلى آخر ما قال.

هذا كلامه بحروفه من شريطه (فقه الواقع)، أصل هذا الكتاب.

وقـــبل أن أناقش الدكتور في استدلاله بهذه الآية سوف أتكلم على موضوع مهم وهو تفسير القرآن بالرأي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

"فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام"

ثم ذكـــر أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم منها قولـــه عليه الصلاة والســـلام : **(من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)** وقولـــه: **(من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)** [1].

وذكر آثاراً عن السلف تدل على التشديد في هذا الباب منها ما رواه ابن أبي مـــليكة "أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها : فأبى أن يقول فيها" إسناده صحيح[2].

---

(١) أخـــرجهما الترمذي في كتاب التفسير، وقال عن الأول حسن صحيح، والثاني حسن. وقد ضعفهما الألـــباني، (ضعيف سنن الترمذي). وللاستزادة من هذه الآثار انظر تفسير الطبري تحت عنوان (ذكر الأخبار التي رويت بالنهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي).

(٢) الفتاوى (١٣ / ٣٧٠).

وســـرد بعد ذلك آثاراً كثيرةً في هذا الباب كلها تدل على النهي الشديد عن تفسير القرآن بالرأي.

وقال شيخ الإسلام في موضع آخر: "والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً، ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم، ولا في تفسيرهم" إلى أن قال: "وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة، والتابعين، وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه" .

ثم قسم المخطئين في التفسير إلى قسمين :

القســـم الأول – قوم أخطأوا في الدليل والمدلول وهم الذين خالفوا تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم.

القســـم الـــثاني – قـــوم أخطأوا في الدليل لا في المدلول وهؤلاء كثير منهم الصوفية والوعاظ والفقهاء[1] .

وقال :" أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فإن لم يتيسر فبالسنة فإن لم يتيسر، فبأقوال الصحابة، فإن لم يتيسر فبأقوال التابعين " [2].

وما ذكره شيخ الإسلام هو قول عامة علماء أهل السنة والجماعة، ومن لزم هذا، نجا من القول على الله بغير علم.

وبعونه سبحانه أشرح الآية المذكورة لنرى مدى صحة استدلال الدكتور بها من عدمها.

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ **[الأنعام: ٥٥]**.

---

(١) الفتاوى (١٣ / ٢٥٨، ٣٦٢) مختصراً .

(٢) الفـــتاوى (١٣ / ٢٦٣، ٣٧٠) مختصـــراً، وفي موضـــع آخـــر زاد أتباع التابعين ثم أئمة المسلمين المشهورين بالفضل والعلم.

الفصل في اللغة الحاجز بين الشيئين، وكل ملتقى عظمتين من الجسد، كالمفصل، والحق من القول، والتفصيل التبيين. كذا قال الفيروز آبادي في القاموس[1].

وهذا المعنى الأخير هو المراد في بحثنا :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

وقال سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٢]

وقال سبحانه :﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس:٢٤]

وقال سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم:٢٨]

قال ابن كثير :" ﴿ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ ﴾ أي نبينها ونوضحها"، واكتفي بتفسيرها في بعض المواضع دون بعض لأن المعنى واحد .

قال الإمام الشوكاني في تفسير ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ﴾ " أي مثل هذا التفصيل نفصل الآيات والمعنى نبينها ونوضحها" وكرر هذا التفسير في جميع المواضع المذكورة تقريباً [2].

والمراد بالآيات : الآيات الشرعية؛ لأن الآيات تنقسم إلى نوعين :

آيات شرعية، وهي المقصودة في الآيات المذكورة سابقاً .

وآيات كونية، وهي التي تتحدث عن سنن الله وقوانينه ونواميسه في الكون وما فيه.

مثل قوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت:٥٣] وقوله:﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾ [الإسراء:١٢]

---

(١) وغيره مثل صاحب التاج، وصاحب لسان العرب .

(٢) وجميع المفسرين تقريباً ذكروا أن تفصيل الآيات : هو تبيينها وتوضيحها.

أما قولـــه سبحانه ﴿**ولتستبين**﴾:

فمعنى بان : اتضح، واستبنته : أوضحته وعرفته ، والتبّين : الإيضاح كما في لســـان العـــرب، وعند الأصوليين التبين : إخراج الشيء من حيز الإشكال إلى حيز التجلي بوضوح[1].

﴿**سبيل**﴾ : طريق. ويجوز فيه التأنيث[2].

﴿**المجرمين**﴾ : معناها الكافرين، و لم تأت في القرآن بغير هذا المعنى [3].

هذا من حيث المعنى اللغوي لمفردات الآية.

أما المعنى الإجمالي للآية فسوف أذكره نقلاً عن كتب التفسير المشهورة لأهميته.

قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره :

"﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ **[الأنعام:٥٥]** يعـــني – تعـــالى ذكره – بقولـــه: وكذلك نفصل الآيات وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها يا محمد إلى هذا الموضع حجتنا على المشركين من عبدة الأوثـــان، وأدلتنا، وميزناها لك وبيناها، كذلك نفصل لك أعلامنا، وأدلتنا في كل حـــق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل وغيرهم؛ فنبينها لك حتى تبين حقه من باطله وصحيحه من سقيمه ".

ثم ذكـــر اختلاف القراء في ذلك . وبعده قال : "وكان ابن زيد يتأول ذلك ولتســـتبين أنت يا محمد سبيل المجرمين الذين سألوك طرد النفر الذين سألوه طردهم عنه من أصحابه" .

---

(١) شرح الكوكب المنير (٣ / ٤٣٨) .

وهو قول الآمدي ، والجويني، وابن الحاجب، وأبي يعلى، والغزالي، والشيرازي، والسبكي، والبصري ، والخطيب البغدادي ، والشوكاني وغيرهم .

(٢) انظر القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس.

(٣) انظر القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس.

حدثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب : قال ابن زيد : ﴿**ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ قال : الذين يأمرونك بطرد هؤلاء ، وقرأ ذلك بعض المكيين، وبعض البصريين ولتستبين بالتاء سبيل المجرمين برفع السبيل على أن القصد للسبيل، ولكنه يؤنثها، وكأن معنى الكلام عندهم: وكذلك نفصل الآيات وليتضح لك وللمؤمنين طريق المجرمين. وقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة وليستبين بالياء سبيل المجرمين، يرفع السبيل على أن الفعل للسبيل، ولكنهم يذكرونه ومعنى هؤلاء في هذا الكلام ومعنى من قرأ ذلك بالتاء ولتستبين ورفع السبيل واحد وإنما الاختلاف بينهم في تذكير السبيل وتأنيثها، قال أبو جعفر: وأولى القراءتين الصواب عندي في السبيل الرفع؛ لأن الله – تعالى– ذكر فصل آياته في كتابه وتنزيله ليتبين الحق بها من الباطل جميع من خوطب بها لا بعض دون بعض، ومن قرأ السبيل بالنصب فإنما جعل تبين ذلك محصوراً على النبي صلى الله عليه وسلم، وأما القراءة في قوله: ولتستبين فسواء قرأت بالتاء أو بالياء ؛ لأن من العرب من يذكر السبيل وهم تميم، وأهل نجد، ومنهم من يؤنث السبيل وهم أهل الحجاز، وهما قراءتان مستفيضتان في قراء الأمصار ولغتان مشهورتان من لغات العرب وليس في قراءة ذلك بإحداهما خلاف لقراءته بالأخرى ولا وجه لاختيار أحدهما على الأخرى بعد أن يرفع السبيل للعلة التي ذكرناها وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله ونفصل الآيات قال أهل التأويل.

"قال: حدثني المثنى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا عبد الرازق، قال: أخبرنا معمر عن قتادة : وكذلك نفصل الآيات نبين الآيات. قال: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال : قال ابن زيد في نفصل الآيات: نبين".

قال ابن الجوزي في تفسيره "زاد المسير في علم التفسير " :

"وقوله تعالى : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات**﴾ أي : وكما فصلنا لك هذه دلائلنا وأعلامنا على المشركين، كذلك نبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل، قال ابن قتيبة : ومعنى تفصيلها : إتيانها متفرقة شيئاً بعد شيء .

قولـــه تعالى : ﴿**ولتستبين**﴾ لها عدة معانٍ منها :

١- أنها طريقهم في الشرك، ومصيرهم إلى الخزي. قاله ابن عباس .

٢- أنها مقصدهم في طرد الفقراء عنه، وذلك إنما هو الحسد، لا إيثار مجالسته واتباعه، قاله أبو سليمان. فإن قيل : كيف انفردت لام "كي" في قولـــه: ﴿**لتستبين**﴾ وسبيلها أن تكون شرطاً لفعل يتقدمها أو يأتي بعدها : فقد أجاب عنه ابن الأنباري بجوابين أحدهما : أنها شرط لفعل مضمر، يراد به : ونفعل لكي تستبين . الثاني : أنها معطوفـــة عـــلى لام مضـــمرة . تأويله : نفصل الآيات لينكشف أمرهم، ولتستبين سبيلهم".

قال القاسمي في تفسيره :

" ﴿**وكذلك نفصل الآيات**﴾ أي : آيات القرآن في صفة المطيعين والمجرمين، مـــر قريباً الكلام على ذلك ﴿**كذلك**﴾ ﴿**ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل وقرئ بالتذكير بناء على تذكيره، فإن (السبيل) مما يذكر ويؤنث، وهـــو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور، لم يقصد تعليله بها بعينها، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة، من جملتها ما ذكر" .

أو علـــه لفعل مقدر، هو عبارة عن المذكور، فيكون مستأنفاً أي : ولتستبين ســـبيلهم نفعل من التفصيل، وقرئ بنصب ﴿**السبيل**﴾ على أن الفعل متعد، وتاؤه للخطاب أي: ولتستوضح أنت يا محمد ﴿**سبيل المجرمين**﴾ فتعاملهم بما يليق بهم أفاده أبو السعود".

قال الزمخشري في تفسيره "الكشاف" :

"وقـــرئ ﴿**ولتستبين**﴾ بالتاء والياء مع رفع السبيل تذكر وتؤنث وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل يقال: استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من

هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول والذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلاً منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل" .

وقال الفخري الرازي في تفسيره " التفسير الكبير" :

"وقوله تعالى : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ المراد كما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد والنبوة والقضاء والقدر، فكذلك نميز ونفصل لك دلائلنا وحججنا في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل. وقوله: ﴿**وليستبين سبيل المجرمين**﴾ عطف على المعنى كأنه قيل: ليظهر الحق وليستبين، وحسن هذا الحذف لكونه معلوماً، واختلف القراء في قوله ﴿**ليستبين**﴾ فقرأ نافع ﴿**لتستبين**﴾ بالتاء و ﴿**سبيل**﴾ بالنصب والمعنى: لتستبين يا محمد سبيل هؤلاء المجرمين، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿**ليستبين**﴾ بالياء و ﴿**سبيل**﴾ بالرفع والباقون بالتاء ﴿**وسبيل**﴾ بالرفع على تأنيث سبيل. وأهل الحجاز يؤنثون السبيل، وبنو تميم يذكرونه، وقد نطق القرآن بهما فقال سبحانه : ﴿**وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً**﴾ وقال : ﴿**ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً**﴾ ..فإن قيل : لم قال ﴿**ليستبين سبيل المجرمين**﴾ و لم يذكر سبيل المؤمنين قلنا : ذكر أحد القسمين يدل على الثاني، كقوله تعالى : ﴿**سرابيل تقيكم الحر**﴾ و لم يذكر البرد . وأيضاً فالضدان إذا كانا بحيث لا يحصل بينهما واسطة، فمتى بانت خاصية أحد القسمين بانت خاصية القسم الآخر، والحق والباطل لا واسطة بينهما، فمتى استبانت طريقة المجرمين فقد استبانت طريقة المحقين أيضاً لا محالة "

قال القرطبي في تفسيره " الجامع لأحكام القرآن " :

"قوله تعالى ﴿**وكذلك نفصل الآيات**﴾ التفصيل التبيين الذي تظهر به المعاني. والمعنى : وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نفصل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين ، ونبين لكم أدلتنا

وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل. وقال القتيبي :﴿**نفصل الآيات**﴾ نأتي بها شيئاً بعد شيء، ولا ننزلها جملة متصلة .﴿**ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ يقال : هذه اللام تتعلق بالفعل فأين الفعل الذي تتعلق به ؟ فقال الكوفيون : هو مقدر أي وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين، وقال النحاس: وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه والتقدير : وكذلك نفصل الآيات فصلناها. وقيل : إن دخول واو العطف على المعنى، أي ليظهر الحق وليستبين، وقرئ بالياء والتاء. ﴿ **سبيل** ﴾ برفع اللام ونصبها ، وقراءة التاء خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين. فإن قيل: فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستبينها، فالجواب عند الزجاج: أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته، فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجرمين. فإن قيل : فلم لم يذكر سبيل المؤمنين ؟ ففي هذا جوابان ، أحدهما : أن يكون مثل قوله: ﴿**سرابيل تقيكم الحر**﴾ فالمعنى: وتقيكم البرد ثم حذف، وكذلك يكون هذا المعنى: ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف. والجواب الآخر أن يقال : استبان الشيء واستبنته، وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين والسبيل يذكر ويؤنث، فتميم تذكره، وأهل الحجاز تؤنثه ، وفي التنزيل ﴿**وإن يروا سبيل الرشد**﴾ مذكر ﴿**لم تصدون عن سبيل الله**﴾ مؤنث وكذلك قرئ ﴿**ولتستبين**﴾ بالياء والتاء فالتاء خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته".

قال البغوي في تفسيره :

"﴿**وكذلك نفصل الآيات**﴾ أي : وهكذا . وقيل : معناه وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وأعلامنا على المشركين كذلك نفصل الآيات، أي : نميز ونبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل" .

﴿**ولتستبين سبيل المجرمين**﴾ : أي طريق المجرمين ، وقرأ أهل المدينة ﴿**ولتستبين**﴾ بالتاء . ﴿**سبيل**﴾ نصب على خطاب النبي ﷺ أي: ولتعرف يا محمد سبيل المجرمين، يقال: استبنت الشيء وتبينته إذا عرفته، وقرأ حمزة والكسائي ﴿**ولتستبين**﴾ بالياء ﴿**سبيل**﴾ بالرفع ، وقرأ الآخرون ﴿**ولتستبين**﴾ بالتاء ﴿**وسبيل**﴾ بالرفع ، أي : ليظهر ويتضح السبيل.

قال ابن كثير في تفسيره :

" **﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾** يقول تعالى: وكما بينا مـــا تقـــدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد **﴿كذلـــك نفصـــل الآيات﴾** أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها . **﴿ولتسبين سبيل المجـــرمين﴾** أي ولـــتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقرئ **﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾** أي ولتستبين يا محمد أو يا مخاطب سبيل المجرمين "

قال السيوطي في تفسيره " الدر المنثور في التفسير بالمأثور" :

"وأخرج عبد الرزاق، وابن جرير عن قتادة في قولـــه وكذلك نفصل الآيات، فقال : نبين الآيات .

وأخـــرج ابـــن جرير، وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قولـــه ولتستبين سبيل المجرمين، قال: الذين يأمرونك بطرد هؤلاء" . (يعني الفقراء والعبيد من المسلمين) .

قال الشوكاني في تفسيره " فتح القدير" :

"**﴿وكذلـــك نفصـــل الآيات﴾** أي مثل ذلك التفصيل نفصلها. والتفصيل : التبيين والمعنى : أن الله فصل لهم ما يحتاجون إليه من أمر الدين، وبين لهم حكم كل طائفـــة[1]. قولـــه: **﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾** . قال الكوفيون : هو معطوف على مقدر : أي وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين. قال النحاس: وهذا الحذف لا يحـــتاج إليـــه . وقيـــل : إن دخول الواو للعطف على المعنى : قرىء **﴿لتستبين﴾** بالفوقية والتحتية، فالخطاب على الفوقية للنبي صلى الله عليه وسلم . أي لتستبين يا محمد سبيل المجرمين، وسبيل منصوب على قراءة نافع. وأما على قراءة ابن كثير وأبي عمـــرو وابـــن عامر وحفص بالرفع. فالفعل مسند إلى سبيل، وأما التحتية : فالفعل مســـند إلى سبيل أيضاً. وهي قراءة حمزة والكسائي وشعبة بالرفع وإذا استبان سبيل المجرمين فقد استبان سبيل المؤمنين" .

---

(١) تدبر هذا فإنه تفسير جامع .

قال السعدي في تفسيره :

"**﴿وكذلـــك نفصل الآيات﴾** أي نوضحها، ونبينها، ونميز بين طريق الهدى والضـــلال والغي والرشاد؛ ليهتدي بذلك المهتدون ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه **﴿ولتســـتبين سبيل المجرمين﴾** الموصلة إلى سخط الله وعذابه. فإن سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت أمكن اجتنابها والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبسة فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل".

ولتتم الفائدة سوف أذكر إعراب الآية لترابط ذلك مع تفسيرها .

﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾

الواو : استئنافية .

وكذلـــك: كلام مستأنف مسوق لبيان الغاية من تفصيل الآيات ، وكذلك: في محـــل نصب مفعول مطلق، **والآيات** : مفعول به، **والواو** عاطفة على محذوف . والتقدير ليظهر الحق، ولتظهر سبيل المجرمين، **واللام** للتعليل **وتستبين** : فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وسبيل فاعل [1] .

وبعـــد ذكرنا كلام المفسرين في تفسير الآية . سوف أذكر الأخطاء التي وقع فيها الدكتور في كلامه وتفسيره للآية .

١ - مخالفته لجميع المفسرين المتقدمين منهم والمتأخرين في تفسير الآية وذلك أنه قال: إن استبانة سبيل المجرمين هي فقه الواقع، ولم يسبقه أحد من المفسرين إلى ذلك وقد أوردنا أقوالهم حول الآية.

٢ - إيهامه للمستمع والقارئ بأن المفسرين أجمعوا على أن تفسير الآية هو ما ذكر مـــع أن الأمـــر بخلاف ذلك . وذلك بقوله[**... استبانة سبيل المجرمين أحبتي الكرام هي فقه الواقع. ولقد تحدث المفسرون كثيراً عن هذه الآية، وبينوا ما يجب علينا تجاه هذه المسألة...**]

---

(١) انظر "إعراب القرآن" لمحيي الدين درويش ، والجدل في إعراب القرآن لمحمود صافي .

ولم يذكـــر أقوال المفسرين للآية وإنما اكتفى بتفسيره هو لها حسب ما يراه، موهماً أن هذا هو أيضاً قول المفسرين . وكما مر معنا سابقاً فإن المفسرين لم يوجبوا على المسلمين شيئاً من خلال تفسيرهم للآية، ولا أعلم ماذا يريد بقولـــه وبينوا ما يجـــب علينا تجاه هذه المسألة ... إلا أن يريد القول بوجوب فقه الواقع (العمري) . والله أعلم.

٣ - مـــن خـــلال كلام الدكتور وتفسيره للآية يتضح لنا بأنه فهم اللام في قولـــه تعالى ﴿ولتستبين﴾ على أنها (لام الأمر) بينما اللام في الآية للتعليل كما بينا ذلك في إعراب مفردات الآية.

٤ - أنه لو سلم للدكتور بأن تفسير الاستبانة الواردة في الآية، هي فقه الواقع الذي مـــن مقوماته الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون لانتفت بذلك علة تفصيل الآيات إذ إن الله سبحانه وتعالى لم يفصل الآيات إلا لتغني عما سواها [1]. وقد فهم بعض المتأخرين ذلك .

قال سيد قطب في الظلال :

"إن ســـفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح واستبانة سبيل المجرمين من أهداف التفصيل الرباني" .

وقـــد بين ذلك الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره المسمى " المنار" أيما تبيين فقال:

"﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾ .

وأما فائدة الجمع بين الغيبة والخطاب فيها فهي أن تفصيل الآيات هو في نفسه موضـــح لسبيل المجرمين وأنه ينبغي للمخاطب بذلك أولاً بالذات ثم لغيره أن يستبينه (أي سبيل المجرمين) منها (أي الآيات المفصلات) بتأملها وفهمها والاعتبار بها، فكم

---

(١) راجع أقوال المفسرين التـــي ذكرناها سابقاً ليزداد الأمر وضوحاً .

مـــن آيـــه بيّنة في نفسها يغفل الناس عنها، قال سبحانه وتعالى : ﴿**وكم من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون**﴾" [1].

قـــلت: ويؤيد هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى فصل القرآن كله بالعموم فقال: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ **[الأعراف:٥٢]**

وقـــال سبحانه: ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ ﴾ **[هود: ١]**

وفصل آيات القرآن بالخصوص فقال : **قال تعالى** : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ **[الرعد: ١٣]**

وقال : ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون**﴾ **[الروم: ٢٨]**

وإذا كـــان الكـــتاب الـــذي آتـــاه الله موســـى وهارون وصفه بقولـــه: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ **[الصافات : ١١٧]** فكيف بالقرآن الذي هو أفضل وأعظم الكتب المنـــزلة، لا شك أنه أكثر بياناً .

فمن تدبر ما ذكرناه علم أنه بالقرآن تستبان السبيلان سبيل الهداية والرشاد، وسبيل الغواية والفساد. والله أعلم .

١ - قولـــه إن أساس هذا العلم موجود في القرآن، والسنة، وكلام سلف الأمة، هذا غير صحيح؛ فمن مقومات هذا الفقه التي ذكرها الدكتور: الأخذ عن الصحف

---

(١) وهـــذا صـــحيح، فالله سبحانه وتعالى فصل الآيات للرسول عليه الصلاة والسلام ليعرف بها سبيل المجرمين. ومفهوم المخالفة أنه لو لم يفصل الآيات لما عرف سبيل المجرمين والآية نص في المسألة، وهي تـــدل عـــلى خلاف ما قاله الدكتور وقال تعالى : ﴿**ونفصل الآيات لقوم يعلمون**﴾ **[التوبة: ١١]** ، وقال تعالى : ﴿**كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**﴾ **[يونس : ٢٤]** .

والمجـــلات والإذاعـــات والتليفزيونات وغير ذلك، وهذا يفتح باب الفتنة على مصـــراعيه، والشرع المطهر إنما أتى بسد الذرائع الموصلة إلى الفتـــن، ولم يأت بما يفتح أبوابها.

وفي ص (١٢) قال :-

[أمـــا اليهـــود والنصارى والمشركون فالآيات التي تكشف عن واقعهم كثيرة، وهي من صميم فقه الواقع[١]. الذي يبينه الله جل وعلا لنبيه وللمؤمنين ...] إلى آخره.

أقول وبالله التوفيق :

إن كلام الدكتور السابق لا يخلو من الخطأ والإيهام وذلك من وجوه :-

١ - قولـــه: "وهي من صميم فقه الواقع الذي يبينه الله جل وعلا لنبيه وللمؤمنين" سبق وقـــررنا أن كلمة "فقه" لم تأت في الأدلة الشرعية (الكتاب والسنة) إلا مضافة إلى الديـــن، وقد اتفق علماء اللغة على أنها غلبت على علوم الشريعة لشرفها فكانت مختصة بها، وأقر علماء الشرع علماء اللغة على ذلك فمن الأولى أن لا تضاف إلى شيء سوى الدين.

٢ - مـــن المعلوم أن العلماء بينوا معنى كلمة فقه، فقالوا : إنها تعني (الفهم والمعرفة) فـــإذا كان الأمر كذلك فعبارة الدكتور توهم بأن هذه المعرفة مضافة إلى الله وهذا خطأ لاسيما إذا أضفناها إلى قولـــه في ص (١٤): "وما ذكرته للإشارة والاستدلال على عناية القرآن الكريم بفقه الواقع لا للحصر "

ولا يخفـــى على طالب العلم ما في عبارته "عناية القرآن الكريم بفقه الواقع" [٢]

---

(١) لاحـــظ أن الدكتور ناصر جعل الآيات الشرعية من صميم فقه الواقع ولا يخفى خطؤه في هذا؛ لأن كلامه يشعر بإضافة الفقه إلى الله سبحانه وتعالى. يقول ابن القيم : وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمـــال أحســـن اســـم وأكملـــه وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص فله من صفة الإدراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه. بدائع الفوائد (١٦٨/١) .

(٢) وبذلك يعلم، أن عنوان البرنامج الإذاعي (فقه القرآن الكريم) فيه نظر .

من الخطأ؛ لأن الفقه يحتمل الأمرين الخطأ والصواب والقرآن كله حق، ولا يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس (**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**) [1] أن كل اجتهادات ابن عباس صحيحة. وهذا أمر مسلم .

وأما قولنا إن المعرفة لا تضاف إلى الله سبحانه وتعالى فهذه مسألة معروفة عند أهل العلم. قال ابن النجار رحمه الله : "ولا يوصف الله سبحانه وتعالى بأنه عارف" . قال ابن حمدان في " نهاية المبتدئين" : "علم الله تعالى لا يسمى معرفة حكاه القاضي إجماعاً"[2] .

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله تعالى عن الفرق بين إضافة العلم إلى الله، وعدم إضافة المعرفة إليه في كثير من كتبه [3].

٣ – إن ما يبينه الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم ليس فقهاً، بل هو علمٌ واضح بينٌ وجميع ما في القرآن يسمى علماً لا فقهاً.

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ **[البقرة:١٢٠]**

وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ **[آل عمران:٥٣]**

وقال تعالى : ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ **[آل عمران: ١٩]** وقال تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ **[العلق : ٥]**.

و قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ **[الرحمن : ٢]**.

وفي خطابه سبحانه وتعالى لنبيه قال : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ **[محمد:١٩]** وقال أيضاً : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ **[القصص:٥٠]**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم .

(٢) انظر : شرح الكوكب المنير . (١ / ٦٥-٦٦).

(٣) انظر : بدائع الفوائد : (٦٢/٢). ومدارج السالكين (٣٣٤/٣) وقد عقد في هذا الكتاب باباً مستقلاً للعلم وآخر للمعرفة.

وعند خطابه سبحانه وتعالى للمكلفين قال :

﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٠٩]

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٩٨]

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣]

وقال تعالى عن كتابه﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]. قال ابن كثير " أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب في الماضي والمستقبل " .

ولذلك كل ما يأتي المكلف من الشارع الحكيم فهو علم، وليس بفقه، والعلة في ذلك أن ما يأتي من الله هو الحق قال تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠]. و قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ ﴾ [الأنعام: ٧٣] فهو الحق سبحانه وتعالى وقوله الحق.

أما الفقه فيحتمل الأمرين الصواب والخطأ؛ فإذا قيل: فلان فقيه لا يعني أن كل ما يقوله موافق للحق. وبهذا يعلم أن العبارة التي قالها الدكتور وهي قوله: **"وهي من صميم فقه الواقع الذي يبينه الله لنبيه"** غير صحيحة . ومثلها قوله: " **عناية القرآن الكريم بفقه الواقع"** ومثلها أيضاً قوله : **"عناية الكتاب والسنة بفقه الواقع"** [1].

١ - يلزم من قوله: "وهي من صميم فقه الواقع الذي يبينه جل وعلا لنبيه" أمران هما :-

الأول : إما أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنبيه صلى الله عليه وسلم كل ما يحتاجه من الواقع، وبالتالي كل ما يحتاجه المكلف من هذا الأمر حينئذ فلا داعي لمثل

---

(١) الصحيح أن يقول : عناية الكتاب والسنة بالواقع - وهذا أمر مسلم؛ والله ما أنزل الكتاب وأرسل الرسل إلا لتصحيح الواقع.

مـــا يســـميه الدكتور بفقه الواقع، والأمر الثاني : أن الله لم يبين لنبيه صلى الله عليه وسلم إلا بعض هذا الواقع، وهذا قول باطل .

٢ – أن المتوقع من الدكتور هو البعد والابتعاد عن مثل هذه العبارات؛ لأنه تربى في بـــلاد سلفية، وإنما نجد مثل هذه العبارات في كتب الأشاعرة وذلك أنهم يرون أن علم الله تعالى واقع مع علمنا تحت حدٍ واحد[١]. ولذلك تجدهم لا يتورعون عن مثل هذه العبارات والله تعالى أعلم.

٣ – ذكـــر في ص (١٢، ١٣، ١٤) " آيـــات كريمات مستدلاً بها على فقه الواقع والحاصل أنها لا تشير إلى فقه الواقع لا من قريب ولا من بعيد؛ لأن الآيات التي استدل بها هي آيات خبرية لا تحتمل التأويل وما لا يحتمل التأويل فليس للفقه فيه مكان، وموقف أهل السنة والجماعة من الآيات الخبرية هو التصديق.

ولذلـــك نص علماء الأصول على أن النص إذا لم يحتمل التأويل مقطوع به، أي بدلالته [٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الآيات التي هذا حالها لا يسع أحد الجهل بها وقد صح عن ابن عباس أنه قال : من تفسير القرآن ما لا يعذر أحد بجهله [٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : "وكذلك إذا أخبر بثبوت شيء –يعني القرآن– لم يخـــبر بـــنقيض ذلك، بل يخبر بثبوته أو بثبوت ملزوماته، وإذا أخبر بنفي شيء لم يثبـــته، بـــل ينفيه أو ينفي لوازمه، بخلاف القول المختلف الذي ينقض بعضه بعضاً، فيثبت الشيء تارة وينفيه أخرى أو يأمر به وينهي عنه في وقت واحد" [٤].

---

(١) انظر : كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم : (٢٤٢/٥) – طبعة عكاظ .

(٢) انظـــر : شرح الكوكب المنير : (٤٨٠/٣) . وبعضهم يرى أن النص الذي لا يحتمل التأويل هو من قبيل المحكم؛ لأن المراد منه يعرف بوجهٍ واحد. انظر : مقدمة أقاويل الثقات للكرمي.

(٣) انظر : مقدمة تفسير الطبري : (١/ ٣٤).

(٤) انظر : الفتاوى : (٦١/٣) .

وإليـــك الآيات التي استدل بها الدكتور على فقه الواقع، بينما هي آيات إخبار ليس فيها دلالة على ما ذكر وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧].

وهذه الآية من باب الإخبار ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يخبر نبيه صلى الله عليه وســـلم ومـــن تبعه من المؤمنين عن حال نفر من يهود، حيث أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمـــان أمام أهل الإيمان، ولكن إذا اجتمعوا إلى قومهم جحدوا إيمانهم ورجعوا إلى الكفـــر.قـــال ابن كثير رحمه الله "فلما أخبر نبيه –أي بحالهم– قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون، أي على النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة"[1] .

أمـــا الآيـــة الأخرى التي استدل بها الدكتور على فقه الواقع وهي من باب الإخبار أيضاً . قولـــه تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴾ [البقرة:١٢٠]. وهذه صريحة في أنها آية إخبار فالله سبحانه وتعالى يخـــبر نـــبيه صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب لن يرضوا عنه ولا عن دينه حتى يوافقهم في معتقداتهم. قال ابن كثير : "وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق".

وقـــال الشـــوكاني رحمه الله :" ثم أخبره بأنهم لن يرضوا عنه حتى يدخل في دينهم ويتبع ملتهم" وهو الشاهد.

وأما الآية التالية التي استدل بها الدكتور فهي :

قولـــه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

وهذه أيضاً آية إخبار. قال ابن كثير رحمه الله: "يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده" .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير لمزيد من الفائدة .

وقـــال أيضـــاً :" ثم أخـــبر تعـــالى أنهـــم مع هذا التحقق والإتقان العلمي **﴿ليكتمون الحق﴾** " .

والمتأمل في استشهادات الدكتور بالآيات القرآنية يجدها كلها تدخل تحت باب الإخـــبار والتـــبيين للنبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء لم يكن يعلمها. وهي قطعية الدلالـــة فـــيما سيقت له، ولا تدل على فقه الواقع كما زعم الدكتور مع اعترافه بأن موضـــوعه ظني واحتمالي . فهو يقول عن أدلته في ص (٥٧) **"وبخاصة أن الأدلة التي يبنى عليها هذا الأمر – يعني فقه الواقع – ظنية الثبوت وظنية الدلالة، ويندر وجود دليل قطعـــي الثـــبوت قطعي الدلالة في مثل هذه الأحوال، ولو وجد هذا الدليل فإنه يبقى في دائرة الاحتمال"**.

والغريب أنه يقول أيضاً في ص (٩) :

"وفقه الواقع علم أصيل تبنى عليه كثير من العلوم والأحكام، وفي ضوئه تتخذ المواقف المصيرية" . ولك أن تستغرب كيف يقول إن أدلته ظنية الثبوت ظنية الدلالة ويـــندر وجود دليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة؛ ومع ذلك يقول إنه علم أصيل تبنى عليه كثير من الأحكام.

والسؤال هنا: هل العلوم والأحكام الشرعية والمواقف المصيرية تبني على أمور ظنية الثبوت ظنية الدلالة ؟ الإجابة لا تجدها إلا عند الدكتور .

وبعد ذلك شرع بالاستدلال بالسنة على فقه الواقع فقال :

[أمـــا الســـنة فقد حفلت بالكثير من الوقائع والشواهد التي تدل على عناية المصـــطفى صلى الله عليه وسلم **بهذا الجانب. فها نحن نراه** صلى الله عليه وسلم **يوجه المستضعفين من صحابته بالهجرة إلى الحبشة، وهذا برهان ساطع على معرفته** صلى الله عليه وسلم **بما يدور حوله، وأحوال الأمم المعاصرة له.**

فلماذا لم يرسل الصحابة إلى فارس أو الروم أو غيرهم ولماذا اختار الحبشة ؟ يبين ذلك صلى الله عليه وسلم بقولـــه : " إن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد"[1].

وهـــا نحن نرى المرحلية في الدعوة ملائمة للواقع الذي تعيشه، ونجده صلى الله عليه وسلم يختار المدينة مكاناً لهجرته، ويتعامل مع جميع الأطراف الموجودة فيها وحولها بأسلوب يناسب أحوالها، وعندما أرسل معاذاً إلى اليمن قال له : " إنك تأتي قوماً أهل كتاب" .

وهـــذا من إدراكه صلى الله عليه وسلم واقع كل بلد وما يحتاج إليه؛ ولذلك قال له : "فليكن أول ما تدعوهم إليه ... الحديث" وكذلك نلمس عمق هذا العلم في غزواته ورسائله إلى الأمم والملوك والقبائل ...] إلى أن قال : [إن لم يكن هذا هو من الذروة في فقه الواقع فأين يكون ...]

أقول وبالله التوفيق:

قـــبل الشروع فيما أريد التحدث عنه أشير إلى نقطة مهمة وهي أن الدكتور ينقل عن كتب السيرة جازماً بصحة ما ينقل دون أي حذر أو حيطة. والواجب عليه أن يـــنقل بحـــذر، لاسيما وأنه يبحث عن أدلة يوجب من خلالها على الناس " فقه الواقع" وسيتضح ذلك فيما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ومـــن المعلوم أن كتب السيرة لا تقارن بكتب الحديث من الناحية الإسنادية؛ وذلك لكثرة العلل الموجودة في أسانيدها، ولهذا يقول شيخ الإسلام عن المنقولات في التفســـير : " فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولـــة عن نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، والنقل الصحيح

---

(١) خَـــرَّج الدكـــتور ناصـــر هذا الحديث فقال : "انظر : فقه السيرة للغزالي، فقد صحح الألباني هذا الحديـــث" ولم أجد تصحيح الألباني لهذا الحديث بل لم أجده في كتاب فقه السيرة المذكور أصلاً، ثم إن عزوه الحديث لكتاب الغزالي "فقه السيرة" دليل على عدم معرفته بعلم التخريج كما لا يخفى.

يدفـــع ذلك. بل هذا موجود فيما مستنده النقل، وفيما قد يعرف بأمور أخرى غير النقل، فالمقصود أن المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحـــم، ولهذا قال الإمام أحمد : ثلاثة أمور ليس لها إسناد : التفسير، والملاحم، والمغـــازي، ويـــروى ليس لها أصل أي إسناد؛ لأن الغالب عليها المراسيل، مثل ما يذكـــره عروة بن الزبير ، والشعبي، والزهري، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق ومن بعدهم، كيحيى بن سعيد الأموي، والوليد بن مسلم، والواقدي، ونحوهم في المغازي" [1]. وقـــال في موضـــع قبل هذا : "وما لم يكن كذلك، بل كان مما يؤخذ عن أهل الكـــتاب، كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد ابن إسحاق، وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة" [2].

وحيـــث إن الدكـــتور قـــد استدل من توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم لأصـــحابه بالهجـــرة إلى الحبشـــة على معرفته عليه الصلاة والسلام بما يدور حوله وأحوال الأمم المعاصرة له، بل جعل هذا برهاناً ساطعاً يدعم به رأيه. فسأتكلم عن هذا الموضوع بشيء من التفصيل والموضوعية فأقول :

أمـــا قصة هجرة أصحاب الرسول ﷺ إلى الحبشة، وأنها كانت مرتين، فهذا ثابت في الصحيح. أما تفاصيل الهجرة وكيفيتها، وهل هي أمر من الرسول صلى الله عليه وسلم أم مشورة ؟ فهذا ما نريد الوصول إليه، أو القرب منه على الأقل.

قال ابن حجر في الفتح[3] : "وذكر ابن إسحاق أن السبب في ذلك أن النبي صـــلى الله عـــليه وســـلم قال لأصحابه لما رأى المشركين يؤذونهم، ولا يستطيع أن يكفّهم عنهم : **" إن بالحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فلو خرجتم إليه حتى يجعل**

---

(١) الفتاوى (١٣ / ٣٤٦) .

(٢) الفتاوى (١٣/٣٤٥) .

(٣) فتح الباري (٧ / ٢٢٧) ، طبعة الريان .

الله لكم فرجاً، فكان ... " ذكر الحديث نقلاً عن ابن إسحاق دون تعليقٍ وهذا يعني أنه في حيز القبول، وظاهر الحديث أنه مشورة لقولـــه عليه السلام (فلو خرجتم).

قـــال ابن كثير في البداية والنهاية[1] : " قال ابن إسحاق : فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، ..... قال لهم : (**لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ...**).

وفي الحديـــثين المنقولين عن ابن إسحاق اتفاق في المعنى مع فارق في التقديم والـــتأخير، ونقل ابن كثير حديثاً آخر من مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود وفيه : **بعثنا رسول الله** صلى الله عليه وسلم **إلى النجاشي** ..... الحديث – قال عنه : وهذا إسناد جيد، قوي، وسياق حسن، وحسنه أيضاً أحمد شاكر [2]

ونقـــل ابن كثير حديثاً عن أبي نعيم في الدلائل عن أبي موسى قال :(**أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننطلق ...**) الحديث " [3].

وقـــال: وهكذا رواه الحافظ البيهقي في الدلائل بسندٍ مثله قال : وهذا إسناد صحيح. ونقل ابن كثير حديثاً آخر عن ابن إسحاق من طريق أخرى، عن أم سلمة وفيـــه : فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (**إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ...الحديث**)[4]

وقولـــه: "فالحقوا ببلاده" يفيد الأمر .

وقـــال ابـــن عبد البر في كتابه (الدرر) وهو مختصر في المغازي : أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لمن آمن : (**تفرقوا في الأرض، فإن الله سيجمعكم**)، قالوا: إلى أين نذهب ؟ فقال : (**ههنا، وأشار بيده إلى أرض الحبشة**) .

---

(١) البداية والنهاية (٦٤/٣) .

(٢) مسند أحمد (٤٤٠٠) أحمد شاكر .

(٣) أخرجه الطيالسي والطبراني. وقال الهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح .

(٤) قال أكرم العمري صاحب " السيرة النبوية الصحيحة " : إسناده حسن .

وفي كتاب المغازي للزهري، قال الرسول صلى الله عليه وسلم للذين آمنوا به : (**تفرقوا في الأرض**)، قالوا : فأين نذهب يا رسول الله ؟ (**قال وأشار بيده إلى الحبشة**) . وكانت أحب الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهاجر قبلها.

وعبر ابن القيم في الزاد، وابن حزم في الجوامع بقولهما : فلما اشتد البلاء، أذن الله سبحانه وتعالى لهم بالهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، فجعلا الهجرة إذناً من الله سبحانه.

أما الآيات التي ذكر العلماء أنها إشارة بالهجرة، فهي قوله سبحانه : ﴿ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ **[العنكبوت: ٥٦]**.

قال ابن كثير رحمه الله : "هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة ". إلى أن قال : "ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة".

وقال الشوكاني رحمه الله : " ولما ذكر سبحانه حال الكفرة من أهل الكتاب، ومن المشركين، وجمعهم في الإنذار، وجعلهم من أهل النار اشتد عنادهم، وزاد فسادهم، وسعوا في إيذاء المسلمين بكل وجه، فقال الله سبحانه : ﴿ **يا عبادي الذين آمنوا**﴾ أضافهم إليه بعد خطابه لهم تشريفاً، وتكريماً، والذين آمنوا صفة موضحة ، أو مميزة ﴿**إن أرضي واسعه**﴾ إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان، وفي مكايدة للكفار، فاخرجوا منها لتتيسر لكم عبادتي وحدي، وتتسهل عليكم. قال الزجاج : أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله .

ثم خوفهم سبحانه بالموت، ليهون عليهم أمر الهجرة بقوله: ﴿**كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون**﴾ فلا يصعب عليكم ترك الأوطان".

أما الآية الأخرى فهي قولـــه سبحانه: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]"

أمـــا قولـــــه ســـبحانه في سورة النساء :﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النســـاء: ٩٧] فهـــي صريحة في الدلالة على الهجرة ولكن لم نذكرها لأن سورة النساء مدنية.

وبعـــد أن عرضنا أكثر الروايات الواردة في الموضوع، فإن أمر الهجرة لا يخلو أن يكـــون مشورة، وهذا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم شاور أصحابه واستقر الأمـــر عـــلى اختيار الحبشة، أو أن يكون أمراً منه عليه الصلاة والسلام لأصحابه، وسوف نجيب على الاحتمالين.

أما كونه مشورة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه ، وأنه لم يكن أمراً، فهذا ما تؤيده رواية : (فلو خرجتم) السابقة، وكذلك قول الصحابة للنجاشي: **(خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك)** [1] .

وإذا كـــان الأمر كذلك، فهذا يعني أن الصحابة كان عندهم علم عن حال النجاشـــي؛ لأنـــه لا يشـــاور في الأمر إلا من كان على علم به، أو أن يكون بين المتشاورين قدر مشترك من المعرفة بهذا الأمر الذي يتشاورون فيه، وهذا أمر واضح، ومن عادته صلى الله عليه وسلم مشاورة أصحابه في بعض الأمور عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] وقولـــه ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمـــران: ١٥٩] والـــذي يؤكـــد أن الصحابة كانوا على علم بحال النجاشي، وكذلـــك قريش كلها، الحديث الوارد في مسند الإمام أحمد، وفيه: **(فلما بلغ ذلك قريشـــاً ائـــتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين وأن يهدوا للنجاشي هدايـــا ممـــا يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم، فجمعوا أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا إليه هدية)** [2].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٧٩) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس .

(٢) مسند أحمد (١٧٤٠) قال أحمد شاكر : إسناده صحيح، وقال الهيثمي في المجمع: رجاله رجال الصحيح.

وفي هذا دليل على أن قريشاً كانت ترسل بالهدايا إلى النجاشي من مكة قبل أن يكـــون أمر الهجرة، بل كانوا يعرفون ماذا يحب هو وبطارقته من الهدايا وكانت قـــريش تراقب أحوال ملك الحبشة مع اليمن، ولذلك لما استعاد سيف بن ذي يزن مـــلك اليمن من الحبشة ذهب إليه وفد من قريش على رأسهم عبد المطلب يهنئونه بعودة الملك إليه، وامتدحوه[1] ، وهذا كله قبل البعثة.

ولذلـــك قال أحمد الجمل في كتاب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم : "وفيها يعني (الحبشة) حاكم طيب عرف بذلك، واشتهر" . ومن راجع كتب السيرة علم ذلك [2].

وبذلك يكون الدكتور قد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر يشاركه في معرفته جميع الناس في ذلك الوقت، وإذا لم يختص النبي صلى الله عليه وسلم بهذا العلم فليس فيه إذاً حجة للدكتور حتى يستدل به على (فقه الواقع) .

أما إن كان الأمر الثاني : وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر الصحابة بالهجرة أمراً ، فعندئذ يكون تكليفاً، والتكليف لا يكون من تلقاء نفسه عليه الصلاة والسلام ، وإنما يكون من الله سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤] وقد أمر سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام باتباع هذا الوحي فقال : ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأنعـام: ١٠٦] وقال أيضاً ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩].

فـــإذا كان ذلك وحياً من الله سبحانه وتعالى فليس فيه إذاً فقه للنبي صلى الله

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية عندما أتى على ذكر خروج الملك عن الحبشة ورجوعه إلى اليمن.

(٢) بل قد اشتهر بدينه، وعدله حتى عند الروم . انظر : البداية والنهاية تحت عنوان خروج الملك باليمن من حمير إلى الحبشة والسودان.

عليه وسلم ، بل يكون الرسول صلى الله عليه وسلم مأموراً بذلك من الله سبحانه، والمسلمون مأمورون به أيضاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.

وهـــذا الـــذي أختاره وهو أن الهجرة كانت أمراً منه صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وقد ورد الدليل الصحيح الصريح بذلك ، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي [1] ... ، وكذلك قول أبي موسى : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي [2]، وهو المقصود من الآيات التي ذكرناها سابقاً [3] والله تعالى أعلم.

أما قول الدكتور : **"فلماذا لم يرسل الصحابة إلى فارس أو الروم أو غيرهم"**.

أقول : الإجابة عن هذا السؤال سهلة وميسرة والحمد لله، ولا أظن أنها تخفى على طالب علم.

فالرســـول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليرسل أصحابه إلى فارس لأنهم عباد أوثان، ومراد الرسول صلى الله عليه وسلم تخليص أصحابه من عبّاد الأوثان في مكة، فكيـــف يرســـل بهم إلى فارس وهم عباد أوثان؟ ولا تربطهم بالمسلمين في مكة أي صلة؟ فإذا كان الأمر كذلك فجلوسهم في مكة خير لهم من الذهاب إلى فارس .

أمـــا كون الرسول صلى الله عليه وسلم لم يرسل بالصحابة إلى الروم؛ فلأن الروم وإن كانوا أهل كتاب إلا أن دينهم قد حرف وبدل، والصالح فيهم قليل.

أضف إلى ذلك أن قريشاً سوف تدركهم بالرشاوى وغير ذلك، لا سيما وأن رحلاتهـــم الـــتجارية في الصيف كانت تتوجه إلى بلاد الروم، وتربطهم بملوك الروم علاقـــة التجارة والمصلحة؛ ولذلك فليس من الحكمة إرسالهم إلى الروم والمقصود أن

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣)ويؤيد ذلك أن الهجرة صارت واجبة بعد ذلك على المستطيع – والله أعلم

سبب عدم إرسالهم إلى فارس أو الروم أمر ظاهر ليس من خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو أمر مشترك بينه وبين غيره. وبهذا يظهر ضعف الاستدلال به والله تعالى أعلم.

أمـــا قـــول الدكتور : **[وها نحن نرى المرحلية في الدعوة ملائمة للواقع الذي تعيشـــه، ونجـــده صلى الله عليه وسلم يختار المدينة مكاناً لهجرته، ويتعامل مع جميع الأطراف الموجودة فيها وحولها بأسلوب يناسب أحوالها ...] إلى آخره .**

أقول وبالله التوفيق :

كلام الدكتور السابق فيه خطآن: الأول منهما يصح أن يقال عنه : فاحش . وإليك بيان ذلك :

أما الأول فقولـــه : "ونجده صلى الله عليه وسلم يختار المدينة مكاناً لهجرته". وقبل الشروع في بحث هذه المسألة أعني هجرته صلى الله عليه وسلم وهل هي اختيار منه ؟ أم هي أمر من الله سبحانه وتعالى؟ أقول : إن كلام الدكتور السابق هو كلام مرتجل، خالٍ من أدنى درجات البحث العلمي كما تشدق ، بل هو كلام جاهل بهذا الأمـــر وأنا مضطر إلى حمله على هذا، وإلا صح أن يقال عن الدكتور : إنه كاذب والعياذ بالله [1].

والكـــلام حول هجرته صلى الله عليه وسلم تجيب عنه الأحاديث الصحيحة، وكلام الأئمة من السلف، والخلف.

قـــال الرسول صلى الله عليه وسلم : (**قد أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين)**[2] .

وفي الحديث الثاني قال صلى الله عليه وسلم : (**رأيت في المنام أني أهاجر من**

---

(١) كلام الدكتور متردد بين الجهل و الكذب، والقرائن سوف تشير إلى أحدهما، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

مكـــة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة، أو هجر، فإذا هي المدينة، يثرب)[1] ورؤيا الأنبياء وحي.

وفي الحديـــث الـــثالث، قال صلى الله عليه وسلم: (**إنه قد وجهت لي أرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب**) [2] قال النووي : أي أريت وجهتها.

والحديـــث الـــرابع، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (**بعث رسول الله صـــلى الله عليه وسلم لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين**)[3] .

وفي مســـند الإمام أحمد، عن ابن عباس أنه قال : (**كان رسول الله** صلى الله عـــليه وسلم **بمكة، فأمر بالهجرة**)، وأنزل عليه: ﴿**وقل ربي أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق**﴾ [4].

قال قتادة : وأدخلني مدخل صدق، "المدينة" وأخرجني مخرج صدق " مكة"، وفي سنن الدرامي أن ابن عباس سأل كعب الأحبار : "كيف تجد نعت رسول الله صـــلى الله عليه وسلم في التوراة ؟ فقال كعب : نجده محمد بن عبد الله، يولد بمكة ويهاجر إلى طابة، ويكون ملكه بالشام" [5].

وهـــذا الأمر كان مشتهراً متواتراً عند أهل الكتاب؛ ولذلك أوصى الراهب النصراني سلمان الفارسي رضي الله عنه بقولـــه : " أظلك زمان نبي يبعث في الحرم، مهاجـــره بين حرتين إلى أرض سبخة، ذات نخل. فقال سلمان: فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفت نعتها" [6] .

---

(١) المصدر السابق . وكذلك أخرجه مسلم في باب الهجرة .

(٢)أخرجه البخاري، كتاب الفضائل، باب فضل أبي ذر .

(٣)أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند، (١٩٤٧) ، بترقيم سمير المجذوب.

(٥) أخرجه الدارمي في سننه باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب قبل مبعثه، وسنده حسن.

(٦) انظر سير أعلام النبلاء، قصة إسلام سلمان رضي الله عنه .

وقال ابن إسحاق : فبينما تبَّع على ذلك من قتالهم، إذ جاء حبران من أحبار اليهود من بني قريظة، عالمان، راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة، وأهلها، فقالوا له : أيها الملك لا تفعل فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، و لم نأمن عليك جـــل العقوبة، قال لهما: و لم ذلك ؟ قالا: هي مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم، من قريش في آخر الزمان، تكون داره، وقراره، فتناهى ...[1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية عند قولـــه تعالى : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]

" كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا، حتى نعذب المشركين ونقتلهم، فلما بعـــث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به ، حسداً للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] .

وقـــال : "هـــو النقل الثابت عند أهل التفسير، وعليه يدل القرآن" ، وقال في موضـــع آخر: " إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولاً كبني قينقاع، وقريظة، والنضير، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج، وهم الذين عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ثم حاربهم لما نقضوا العهد " [2].

وقال ابن القيم في آخر كتاب (إغاثة اللهفان) : " وأعز ما صادفه الإسلام من هـــذه الأمـــة، يهود خيبر، والمدينة، وما جاورها، فإنهم إنما قصدوا تلك الناحية لما كانوا وعدوا به من ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ".

وقال في الزاد أيضاً : " وأهل الكتابين مجمعون على أن نبينا يخرج في آخر الزمان، وهم ينتظرونه، ولا يشك علماؤهم في أنه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم " .

---

(١) انظر : البداية والنهاية، (١٥٢/٢) وهي تحت قصة "تبع مع أهل المدينة " .

(٢) انظر : الفتاوى (٢٩٦/١-٢٩٩).

وهذا يدل على أن اليهود كانوا ينتظرون قدومه، وذلك أنهم يجدون أوصافه وأوصـــاف مهجره مكتوبةً عندهم وهذا سبب استيطانهم المدينة وما حولها، ويؤكد ذلك الحديث الذي أوردناه عن كعب الأحبار.

وبعـــد أن ذكرنا الأحاديث الصحيحة، وبعد كلام أهل السير والتفسير، فإن الحـــق الـــذي لا مرية فيه هو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يختر المدينة من تلقاء نفسه، وإنما اختارها الله له - سبحانه و تعالى - قبل أن يبعثه. وبعد أن بعثه أذن له في الهجرة إليها وساقه للأنصار لما أراد لهم من الكرامة [1].

ولا أدري مـــا السبب الذي جعل الدكتور يضرب بهذه النصوص الصحيحة عرض الحائط ويعرض عنها ؟ ويدعي مجازفة أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي اختار المدينة داراً لهجرته وأمر الهجرة أمر عظيم، وما كان للنبي صلى الله عليه وسلم أن يختاره من قبل نفسه لما يترتب عليه من أمور، ولولا أن الله اختار له مكان الهجرة وزمانها وأذن له في ذلك لما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم والله تعالى أعلم.

أمـــا الخطـــأ الـــثاني الذي وقع فيه الدكتور فهو قولـــه : ويتعامل مع جميع الأطـــراف الموجودة فيها، وحولها بأسلوب يناسب أحوالها. قد مر معنا أن الدكتور نســـب الهجرتين إلى اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن خلال العرض، فإن الـــذي يتضح لنا أن الدكتور يقصد بكلامه السابق : أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل مع من في المدينة، ومن حولها، من تلقاء نفسه ورأيه صلى الله عليه وسلم.

والأمر بخلاف ذلك، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتعامل مع غيره من أهل الملل إلا بوحي، بل فيما هو دون ذلك كتعامله مع بعض أصحابه وكان متبعاً لشريعة ربه في ذلك امتثالاً لقولـــه سبحانه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨] .

---

(١) قال الأستاذ أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة : "تدل النصوص على أن اختيار المدينة مهجراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان بوحي إلهي كما في الحديث". ونقل من الفتح "وكأن النبي أري دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أري الصفة المختصة بالمدينة فتعينت".

ومما يزيد الأمر وضوحاً أن النبي صلى الله عليه وسلم لما عبس في وجه ابن أم مكتوم عاتبه سبحانه وتعالى، وأنزل عليه **قوله تعالى :** ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ **[عبس: ١-٣]**.

وفي هـــذا دلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يتعامل مع غيره صغيراً ولا كـــبيراً إلا بما يأمره به ربه، وأنه لو فعل غير ذلك لرده سبحانه إلى ما يريد جل جلاله وتقدست أسماؤه . والله تعالى أعلم.

أما قول الدكتور : **[وعندما أرسل صلى الله عليه وسلم معاذاً إلى اليمين قال له : (إنك تأتي قوماً أهل كتاب) وهذا من إدراكه صلى الله عليه وسلم واقع كل بلد وما يحتاج إليه ولذلك قال له: (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ...) الحديث]** .

أقول :

أراد الدكتور تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المعرفة وهي أن أهل اليمن أهل كتاب، بينما الأمر ليس كذلك، لأن قريشاً وأهل الحجاز عموماً يعرفون أن أهل اليمن في ذلك الوقت أهل كتاب والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها:

أن تجـــارتهم في الشـــتاء كـــانت إلى اليمن، ويستبعد أن لا يعرفوا ديانة من يتاجرون معهم. راجع كلام المفسرين لسورة " قريش".

ومنها ما ذكره أهل السيرة من أن الذي دفع أبرهة إلى القدوم بجيشه إلى مكة ليهدم الكعبة هو أن بعض فتية قريش أحرقوا كنيسة اليمن العظمى، والتي بناها أبرهة للنجاشي، وكانت العرب تسميها (القليس) لعظمة ارتفاعها، كان فعلهم هذا دفاعاً، وغضباً لبيتهم. وفي هذا دلالة على أنهم كانوا على علم بديانة أهل اليمن، وأنه كان بيـــنهم وبين أهل اليمن صولات وجولات. راجع تفسير سورة "الفيل"[1] وقد أردنا من بيان ذلك: التنبيه على خطأ الدكتور في إيراد الدليل، وخطؤه أيضاً في ذكر وجه الاستدلال. والله تعالى أعلم .

---

(١) وقيل إن السبب : هو أن أحد العرب أحدث فيها، والله أعلم.

أمـــا قول الدكتور : **[وكذلك نلمس عمق هذا العلم في غزواته ورسائله إلى الأمم والملوك والقبائل]**.

أقول وبالله التوفيق :

إن مثل هذا الكلام لا يجوز أن يقال في علمه صلى الله عليه وسلم ، وإنما قد يقال لغـــيره مـــن العلماء وذلك للسبب التالي : إن علم النبي صلى الله عليه وسلم ليس علماً اكتسابياً، بل هو وحي يوحى . وعلم الله لا يحد بحد، ولا يلمس حده ولا عمقه.

وقد قال الله تعالى في حق نبيه : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ **[النجم: ٣-٤]**

وفي هذا دليل على أن ما ينطق به النبي صلى الله عليه وسلم من كلام إنما هو في الحقيقة من عند الله سبحانه وتعالى. وقد قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم (**لا أقول إلا حقاً**) فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا رسول الله، قال : (**إني لا أقول إلا حقاً**) [1].

وقد قال سبحانه وتعالى عن علمه : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ **[البقرة: ٢٥٣]** .

وإذا علمنا أن علم النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو من علم الله فعلم الله لا يحاط به .

وقال أيضاً عن علمه : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ **[الطلاق:١٢]**. فهو يحيط بكل شيء علماً ولا يحاط به علماً . والله تعالى أعلم .

وأما قول الدكتور : **[إن لم يكن هذا هو من الذروة في فقه الواقع، فأين يكون]** .

وهو بذلك يريد النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أخرجه أحمد (٨٤٥٥) والترمذي (١٩٩٠) وقال: هذا الحديث حسن صحيح .

أقول وبالله التوفيق:

ليســـت هذه مشكلة الدكتور ناصر وحده فكثير ممن ينتسبون إلى الدعوة في هـــذا الزمان، وكذلك المنتسبون إلى ما يسمى بالفكر الإسلامي، إذا أرادوا التحدث عـــن النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم يتناسون جانب النبوة والرسالة التي اختص بها، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣]

ولذلك تجدهم يكتبون تحت عناوين متعددة منها : عبقرية محمد، أدب محمد، محمـــد المفكر، وغير ذلك مما هو معلوم لدى الجميع. وتجدهم يطيرون فرحاً عندما يقرأون أن بعض كتاب الغرب وضع محمداً صلى الله عليه وسلم في المرتبة الأولى من بـــين مفكري العالم وعباقرته، وقد غفل هؤلاء جميعاً عن جانب النبوة والرسالة التي اختصـــه الله بهـــا على سائر الناس. ومن نتائج هذا العمل أنك تجد كثيراً من الناس يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم لأدبه، وحلمه، وصبره، وشجاعته إلى غير ذلك. ولكـــن محبتهم له من جانب النبوة والرسالة سطحية ليست كما ينبغي، وهذا جهل وخلل في التوحيد. والدليل على ذلك الضعف الكبير في جانب التطبيق[1]. فكثير من هؤلاء لا يهتدون بهديه ولا يستنون بسنته، بل ربما وقعوا في تكذيبه والعياذ بالله.

ولـــذا، فإن المسألة التي ذكر الدكتور وهي فقهه صلى الله عليه وسلم للواقع، لا تحـــتاج إلى تقرير، لأنها من المسلمات؛ إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عالماً من العلماء، أو فقيهاً من الفقهاء، بل هو نبي مرسل، وعلمه وحي؛ ولأنه لم يبعث إلا للتعامل مع الواقع، بل ولتصحيح حال هذا الواقع بعد أن ترك الناس دين الأنبياء. ولا يعقـــل أن يرسل صلى الله عليه وسلم لتصحيح واقع وهو جاهل به وهذا والحمد لله مما لا يشك فيه أحد من المسلمين.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " من صحت محبته امتنعت مخالفته؛ لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ " .

كما أن وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه فقيه واقع وما شابه ذلك، فيه مفسدة عظيمة؛ لأن أقواله وأفعاله ستكون داخلة تحت دائرة الخطأ والصواب. ولكي يتضح الأمـــر بشكل جلي فإنا نقول : إن الدكتور ناصر أطلق على بعض أفعاله صلى الله عـــليه وسلم أنها من الذروة في فقه الواقع، وذلك مثل هجرته إلى المدينة، وغزواته، ورسائله إلى الملوك، وغير ذلك مما ذكره.

ولكـــني لا أدري مـــاذا يقول الدكتور، إذا قيل له: إن الرسول صلى الله عليه وســـلم ذهـــب إلى الطائف طالباً النصرة فطردوه، وأدموا عقبه الشريفة: فهل كان في ذلـــك الوقـــت فقيهاً للواقع، أم لم يفقه الواقع بعد؛ ومثله لما ذهب إلى اليهود وأكل طعـــامهم المسموم!! ومثله لما استجاب لدعوتهم وكادوا أن يقتلوه بالرحى !! ومثله لما عـــاهدوه مراراً، ونقضوا عهدهم!! وكذلك سحرهم إياه عن طريق لبيد بن الأعصم، وقد قيل إنه كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم!! ونظيره إرساله بعض الأعراب إلى إبله فقتلوا الراعي، واقتادوا الإبل !! إلى غير ذلك من القصص والحوادث المشابهة.

وبهذا يعلم أن وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه فقيه واقع أو عالم بالواقع ونحو ذلـــك أمر فيه نظر، والواجب أن يوصف صلى الله عليه وسلم بأنه عبد الله ورسوله كمـــا قال ذلك عن نفسه صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : (**إنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله**) [1] .

وأن لا يميـــز عـــليه الصـــلاة والســـلام إلا بمـــا ميـــزه الله به قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[الكهف: ١١٠] وقـــال سبحانه : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء:٩٣]. وكذلـــك حـــال الأنبياء جميعاً قال تعالى :﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [إبراهيم: ١١] .

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء ، باب قول الله ﴿**واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها**﴾.

وبهـــذا يعلم أن الأنبياء لم يتميزوا عن غيرهم إلا بالنبوة والرسالة، وأن مرتبة النـــبوة والرســـالة هي أعلى وأكمل المراتب البشرية، وإذا وصفوا بها فقد شمل ذلك جميع ما هو دونها، والله تعالى أعلم .

وبعـــد ذلـــك انتقل الدكتور ناصر لذكر قصة أخرى، يستدل بها على عناية الصحابة بهذا الفقه فقال في ص (١٥) :

[ومن أقوى الأدلة على عناية الكتاب والسنة بفقه الواقع قصة فارس والروم، وفيها يبرز اهتمام الصحابة أيضاً بهذا العلم، وإدراكهم لأهميته. والقصة كما وردت في سورة الروم أنه قامت حرب بين فارس والروم، فانتصر الفرس على الروم، وهنا حـــزن المسلمون لهذا الأمر، فقام أبو بكر رضي الله عنه وراهن أحد المشركين على انتصـــار الروم على الفرس وحدد لذلك أجلاً قصيراً، فأخبر أبو بكر رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم **بذلك فأقره، وأمره بزيادة مدة الأجل إلى عشر سنين ففعل أبو بكر، وجاءت الآيات في سورة الروم** ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ **[الروم ١-٥]**

ويبرز فقه الواقع في هذه القصة فيما يلي :

١- أن القضـــية بين فريقين كافرين ومع ذلك خلدها القرآن الكريم، لأثرها المباشر على حياة المسلمين .

٢- اهـــتمام المســـلمين بهذه القضية، وحزنهم عندما انتصر فارس، وفرحهم عندما انتصر الروم.

٣- معايشة أبي بكر لهذه الأحداث والمراهنة على انتصار الروم.

٤- إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر بل طلبه أن يمد في الأجل، لأن (البضع) إلى عشر سنوات] .

أقول وبالله التوفيق :

وردت أحاديث كثيرة وروايات متعددة ذكرها المفسرون عند كلامهم على تفسير أول سورة الروم، وبعض هذه الأحاديث والروايات صحيحة وبعضها الآخر ضعيف، و لم يذكر الدكتور أي الروايات التي اعتمد عليها في استدلاله. ومن المعلوم عـــند أهل العلم أن اختلاف الروايات يؤدي إلى اختلاف الدلالات، ولكن الدكتور مـــزج بين روايات متعددة دون تمييز بين صحيحها وضعيفها، واختار منها ما شاء؛ وسيتضح ذلك عند مناقشة النقاط الأربع التي ذكر .

وهي :

١- قولـــــه :" إن القضية بين فريقين كافرين، ومع ذلك خلدها القرآن الكريم، لأثرها المباشر على حياة المسلمين " .

فمن المعلوم أن أمة فارس والروم هما أكبر الأمم وأشهرها في تلك الفترة على الإطـــلاق، ولما كان الأمر كذلك فإن الناس متطلعين إلى تتبع أخبارهم، فأنزل الله ســـبحانه وتعالى هذه الآيات معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهي معجزة خبرية غيبية قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ [هود:٤٩]. وقد تفاعل الـــناس في مكة وغيرها مع هذا الخبر تفاعلاً كبيراً؛ لأنها أخبرت عن قضية هي محط أنظـــار الجميع، وبذلك تحقق أكبر الأثر عند وقوع هذه المعجزة. وقد اتفق العلماء على أنها إحدى المعجزات، وسنوضح ذلك قريباً إن شاء الله .

وبهـــذا يتضـــح أن المراد من الآيات هو الإعجاز[1] لا أنها قضية بين فريقين كافرين، أو لتأثيرها المباشر على المسلمين .

---

(١) وهي مثل قولـــه تعالى : ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ [القمر : ٤٥] .

وبـــالفعل هزم الجمع يوم بدر وهو تأويل الآية كما في صحيح البخاري عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقـــد أخطـــأ الدكتور عندما جعل السبب في ذكر القرآن لها هو : تأثيرها المباشر على المسلمين وذلك لسببين هما :

١- أنه لم يرد دليل شرعي يدل على ما ذكر .

٢- إن العقل يمنع ذلك، والسبب أن المسلمين لم يكن لهم احتكاك مباشر بتلك المملكتين في ذلك الوقت، فلم يكن لهم تأثير مباشر عليهم. وقد وردت بعض الأحاديث التي تدل على أن التأثير في تلك الفترة معدوم، وإنما سيأتي في آخر الزمان وذلـــك مثل قولـــه عليه الصلاة والسلام : **(لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القـــرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع. فقيل : يا رسول الله كفارس والروم ؟ فقال : ومن الناس إلا أولئك)** [(١)].

قـــال ابـــن حجـــر في شرحه لهذا الحديث :" أما قولـــه : **(ومن الناس إلا أولئك)** أي فارس والروم لكونهم كانوا إذ ذاك أكبر ملوك الأرض، وأكثرهم رعية، وأوســـعهم بلاداً" وقال أيضاً: " ووجهه أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث كان ملك البلاد منحصراً في الفرس والروم وجميع من عداهم من الأمم من تحت أيديهم أو كل شيء بالنسبة إليهم فصح الحصر بهذا الاعتبار".

وهـــو موافق لما ذكرناه سابقاً. أما الآية فلم يأت فيها التصريح بذكر فارس، وإنما جاء ذكرها مع الروم في السنة كثيراً [(٢)]. ولشيخ الإسلام ابن تيمية لطيفة يحسن ذكرها في هذا المقام وهي قولـــه : "وباعتبار القوى الثلاث انقسمت الأمم التي هي أفضـــل الجـــنس الإنساني، وهم العرب، والروم، والفرس، فإن هذه الأمم هي التي ظهـــرت فيها الفضائل الإنسانية، وهم سكان وسط الأرض طولاً وعرضاً، فأما من سواهم كالسودان، والترك، ونحوهم فتبع" .

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب ﴿ **لتتبعن سنن من كان قبلكم**﴾.

(٢) قـــد يكون عدم ذكر فارس في القرآن بسبب أن الروم ليس لهم ند إلا فارس في تلك الفترة، فأغفل بسبب أنه معروف.

ثم ذكر اشتقاق أسماء تلك الأمم فقال :

سمـــوا العرب بذلك، من الإعراب : وهو البيان والإظهار وهو ما اشتهروا به (القوة المنطقية) .

وسموا الروم بذلك؛ لغلب القوة الشهوية عليهم في الطعام والنكاح، فإنه يقال: رمت هذا أرومه، إذا طلبته، واشتهيته .

وسموا الفرس بذلك؛ لغلب القوة الغضبية عليهم. فإنه يقال : فرسه يفرسه :إذا قهره وغلبه [1].

أما استغراب الدكتور من كون الفريقين كافرين ومع ذلك خلدت قصتهما في القرآن فليس له وجه، ذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩] ففيه الأمـــثال، والأخبار، والتشريع ، والقصص والترغيب والترهيب، والتبيين إلى غير ذلك ممـــا يحتويه القرآن، والله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه شيئاً مما يدور بينهم سواء كان ذلك في الدنيا، أم في الآخرة. قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [البقرة:١١٣] .هذا في الدنيا، وفي الآخرة قولـــه سبحانه وتعالى :﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف:٣٨] ومن تدبر القرآن عرف ذلك .

ثم إن مجرد ذكر القرآن لهذه القصة، لا يكفي للاستدلال بها على عناية القرآن بهذا الفقه حتى نتيقن من ورود الآيات لهذا الغرض. والمتيقن أن ورود القصة في أول سورة الروم إنما هو من باب الإعجاز، وبهذا يمتنع الاستدلال أصلاً. وهذا باب خطير يجـــب إغلاقـــه؛ لأنـــه قد يأتي من يقول: فقه الفلك بحجة أن القرآن ذكر شيئاً من الأحوال الفلكية.

---

(١) الفتاوى (٤٣٢/١٥) بقليل تصرف.

وفقه الحشرات بحجة أن القرآن ذكر بعض أسماء الحشرات وأنماط سلوكها. وكذلك فقه النبات بالحجة نفسها.

وبالتالي يضاف كل ذلك إلى الشريعة كما فعل الدكتور باستدلاله بمجرد ذكر القرآن لتلك القصة وهذا أمر باطل. وأهل العلم يقولون إن مجرد ورود ذكر أصل علم من العلوم، أو صناعة، مثل الخياطة، أو الزراعة أو النجارة، أو الهندسة، أو الطب، أو غير ذلك[1] لا يعني أن هذه العلوم من مقصود القرآن؛ ومجرد الذكر لا يكفي في جعل هذه العلوم من العلوم الشرعية. وقد نقلنا لابن تيمية كلاماً في هذا الباب؛ ولذلك فلابد من النظر في الآية، وفي العلم والفقه المستنبط منها، هل له وجهة من الناحية الاستدلالية الشرعية أم لا والله تعالى أعلم .

٢- قوله: "اهتمام المسلمين بهذه القضية، وحزنهم عندما انتصرت فارس، وفرحهم عندما انتصرت الروم" .

أقول وبالله التوفيق :

من المعلوم سلفاً أن سورة الروم مكية، وعندما نزلت هذه السورة لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم جيش في مكة يدافع به عن دينه وأصحابه. ومن المعلوم أيضاً أن أهل المبادئ المشتركة ينصر بعضهم بعضاً بقدر ما بينهم من الاشتراك في المبادئ؛ ولذلك لم يكن المسلمون وحدهم الذين اهتموا بهذه القضية بل كانت قريش أيضاً مهتمة بها، وكانوا يفرحون بنصر فارس على الروم؛ لأنهم وإياهم عباد أوثان، أما المسلمون فيتمنون انتصار الروم على الفرس، ويفرحون لذلك؛ لأنهم أهل كتاب.

---

(١) انظر: كتاب الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، باب العلوم المستنبطة من القرآن. وقد ذكر أمثلة من القرآن تدل على ذلك . وأيضاً الموافقات (٣٨٩/١).

وانظر أيضاً كتاب : مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، باب الإعجاز العلمي في القرآن وأيضاً كتاب مناهل العرفان للزرقاني .

ولم يكـــن المسلمون ليعيروا هذه القضية أي اهتمام لولا أن قريشاً بدأت تعير المسلمين بانتصار أصحابهم عباد الأوثان، على أهل الكتاب أصحاب المسلمين.

ويـــدل عـــلى ذلك الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره وفيه : (**ففرح الكفـــار بمكة وشمتوا، فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنكم أهل كتاب، والنصـــارى أهـــل كـــتاب، ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل الفرس على إخوانكم من أهل الكتاب**) وفيه دلالة على ما ذكرناه.

واســـتدلال الدكـــتور بفـــرح المسلمين وجعله هذا الأمر دليلاً على اهتمام المسلمين بفقه الواقع مدفوع بما يلي :-

١- أن الفرح لا يدل على الاهتمام فقد يفرح قوم بخبر عارض وإن لم يكن لهم اهتمام بما قبل هذا الخبر .

٢- أن الاهتمام إن كان حاصلاً فليس دليلاً على ثبوت حكم شرعي.

٣- أن المســـلمين في ذلك الوقت ليسوا فقهاء واقع لأن الشريعة لم تكتمل بعد. وذلك باعتبار قول الدكتور أن فقه الواقع من علوم الشريعة فإذا كانت الشريعة غير كاملة ففقه الواقع غير كامل؛ لأنه من علومها كما يقول الدكتور.

٤- أن أغلب المسلمين في تلك الفترة هم من الموالي والمستضعفين وهؤلاء يـــبعد اهـــتمامهم بمثل تلك الأمور، لأنه قد شغلهم ما يجدونه من الكفار من جهة وتعلم الإسلام من جهة أخرى.

٥- أنه يكفي في الاستدلال على عدم الحكم عدم الدليل.

ثم إنا نقول للدكتور إن المشركين أيضاً على جانب من الاهتمام بهذه القضية، بـــل اهـــتمامهم أكبر من اهتمام المسلمين كما تشير إلى ذلك الأحاديث المذكورة سابقاً. فهل هذا يعني أنهم على معرفة بفقه الواقع الذي هو من علوم الشريعة وهم لم يؤمنوا بالشريعة أصلاً ؟ ! والله تعالى أعلم .

٣- قولـــه : "معايشة أبي بكر لهذه الأحداث والمراهنة على انتصار الروم " .

أقول وبالله التوفيق :

لم يـــرد دليل يوضح معايشة أبي بكر لهذه الأحداث، ولكن غاية ما في الأمر أنها حادثة حصلت وكان لأبي بكر نصيب من الاشتراك فيها.

ومـــن خلال تتبع الروايات الواردة في كتب التفسير يترجح أمر مهم وهو أن المشـــركين هم الذين استفزوا المسلمين بالتكذيب والأساليب الاستفزازية كعادتهم، فورد في بعض الأحاديث أنهم أول ما بدأوا هذا الأمر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، كمـــا في الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره – وفيه: ففرح الكفار بمكة (يعني بانتصـــار فـــارس) ، فـــلقوا الـــنبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: (إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل الفرس على إخوانكم من أهل الكتاب).

وفي بعـــض الروايات أنهم أثاروا هذا الأمر مع عموم المسلمين بدون تحديد، ويتضح ذلك من الحديث الذي رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن قتادة وفيه **(لما أنزل الله هؤلاء الآيات صدق المسلمون ربهم وعلموا أن الروم سيظهرون على فارس فاقتمروا هم والمشركين على خمس قلائص وأجلوا بينهم خمس سنين، فولى قمار المسلمين أبو بكر رضي الله عنه وولي قمار المشركين أبي بن خلف)** [1].

وفي بعض الروايات أنهم أول ما بدأوا هذا الأسلوب الاستفزازي مع أبي بكر رضي الله عنه وهو الراجح لكثرة الأحاديث الدالة على ذلك منها :

---

(١) وفيـــه أيضاً رواية تدل على هذا المعنى، أخرجها ابن عبد الحكم في فتوح مصر، وابن أبي حاتم وابن مـــردويه، والبيهقي في الدلائل، وابن عساكر، وابن شهاب وفيها (أبلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة يقولون : الروم أهل كتاب وقد غلبتهم الفرس) .

انظر : الدر المنثور للسيوطي تفسير سورة الروم .

الحديث الذي رواه ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه وفيه : (**فلما نزلت الآية قالوا: يا أبا بكر إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين ؟ قال : صدق. قالوا : هل لك أن نقامرك ؟**) الحديث .

ومنها أيضاً الحديث الذي رواه أبو يعلى، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر عن البراء بن عازب وفيه : (**أنه قال : لما نزلت:** ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ **قال المشركون لأبي بكر رضي الله عنه : ألا ترى ما يقول صاحبك؛ يزعم أن الروم تغلب فارس! قال : صدق صاحبي؛ قالوا : هل لك أن نخاطرك فجعل بينه وبينهم أجلاً، فحل الأجل قبل أن يبلغ الروم فارس، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فساءه وكرهه ، وقال لأبي بكر : ما دعاك إلى هذا؟ وفي بعض الروايات: لم فعلت هذا ؟ قال: تصديقاً لله ورسوله**).

ويشهد لهذا الحديث قصة الإسراء والمعراج حيث جاء المشركون إلى أبي بكر كعادتهم في مثل تلك الأمور؛ وذلك لقربه من الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن صاحبك يقول: إنه أسري بي البارحة إلى القدس، وعرج بي إلى السماء. فقال : إن كان قد قال فقد صدق.

ولما طرح المشركون مقولتهم على أبي بكر، وهي قولهم إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين كما في حديث عبد الله بن مسعود المذكور سابقاً، لم يبق أمام أبي بكر رضي الله عنه إلا خياران: إما أن يقول : كذب صاحبي وحاشاه عن ذلك وهو الصديق؛ أو يقول : صدق صاحبي. فلما قال : صدق. فكأن المشركين قالوا : إن كنت مصدقاً حق التصديق فراهنَّا؛ تأكيداً لقوله . وبهذا يتضح أن أبا بكر رضي الله عنه ألجئ إلى ذلك ؛ لهذا أنكر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ وفي رواية: لم فعلت هذا ؟ فقال أبو بكر : تصديقاً لله ورسوله. فقبل النبي صلى الله عليه وسلم اعتذاره، وأرشده إلى أن يمد في الأجل للخروج من هذا الموقف الذي وضع المسلمين فيه، كما ورد في الحديث الذي

رواه الترمذي وصححه، والدار قطني، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي عن نياز الأسلمي وفيه : (فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين) وذلك؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ﴾ .

وقبل أن أنتهي من هذه الفقرة أشير إلى نقطة مهمة للغاية، وهي أن أبا بكر رضي الله عنه لم يراهن بناءً عن تصوراته، وتوقعاته، وتحليلاته للأخبار وإنما راهن لما نزلت الآيات من عند الله مخبرة بذلك فكان اعتماد أبي بكر رضي الله عنه على كتاب الله وليس على فقه الواقع، وحال المسلمين يجب أن تكون كحال أبي بكر رضي الله عنه بالنسبة للأخبار الغيبية في الكتاب والسنة. وما ذكرناه في هذه النقطة كاف في الرد على الدكتور ناصر فيما ذكر، ولكن أطلنا الكلام قليلاً لعل القارئ إذا لم يفهم ما أردناه أن يفهم هو ذلك من الروايات المذكورة.

٤- قوله: "إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر أبا بكر بهذا وطلب منه أن يمد في الأجل".

أقول : ورد معنا في رواية البراء بن عازب وابن مسعود أنه لما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ساءه وكرهه. وقد ذكرنا سابقاً الكلام حول هذا. والله تعالى أعلم.

وفي ص (١٧) قال :

[وهنا يأتي السؤال الذي أوجهه إلى طلاب العلم فأقول : إنني أرى أن روسيا وأمريكا تمثلان دور فارس والروم في الماضي فهل كنا ندرك ما كان يجري بين الدولتين أيام الحرب الباردة . أو إننا نقول : هذه أمور لا تعنينا، ثم هل أدركنا وحللنا مرحلة الوفاق بعد ذلك، وأثر هذا الأمر على المسلمين، أو إننا نقول : الكفر ملة واحدة].

أقول وبالله التوفيق :

قوله : فهل كنا ندرك ما كان يجري بين الدولتين أيام الحرب الباردة، أو إننا نقول هذه أمور لا تعنينا .

من المعلوم أن الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا إنما هي حرب " جواسيس" و مخابرات وكشف مثل هذا الأمر متعذر على طالب العلم وغيره من عموم الناس، بـــل على أكثر الدول أيضاً. ومن تكلم في هذا الموضوع فقد تكلم بغير علم؛ أعني من قال : أنا أعرف ما كان يجري بين الدولتين، بل إن قولـــه إلى الكذب أقرب إلا إذا كان ممن عمل مع إحدى الدولتين لأن هذا في غاية الدقة والخفاء. ومما يدل على ذلك: أن بعض الجواسيس عمل دوراً مزدوجاً بين الدولتين، دون أن تكشف أي من الدولتين ذلك الأمر .

ونحـــن نقول بكل وضوح: إن ما كان يجري بين هاتين الدولتين أيام الحرب الـــباردة لا يعنينا في شيء، ومن اشتغل بذلك الأمر فقد شغل نفسه بغير ما أمر به، ومن قال غير ذلك فعليه الدليل الشرعي، أو العقلي تسليماً.

أما قصة أبي بكر كما قدمنا سابقاً فليس فيها أي دلالة؛ لأن أبا بكر فعل ما فعل تصديقاً لما جاء في كتاب الله، وليس من توقعاته أو تحليلاته.

أمـــا قول الدكتور : ثم هل أدركنا وحللنا مرحلة الوفاق بعد ذلك، وأثر هذا الأمر على المسلمين، أو إننا نقول : الكفر ملة واحدة .

أقول وباختصار :

نحـــن في انتظار ذلك منك، فإذا أدركت وحللت مرحلة الوفاق فأسعفنا بذلك، وكـــتمان علم يحتاج إليه المسلمون لا يجوز. ثم إنه لا ضير على من قال : إن الكفر ملة واحدة؛ لأن هذه المقولة صحيحة، ونصوص القرآن والسنة تشهد لها، ولا تعارضها .

منها قولـــه – سبحانه وتعالى– وقد جمع بين ملل الكفر في عداوتهم للمؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٠١] . وقال سبحانه في تقسيم الخلق :﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢]. وقال تعالى في مقته للكافرين : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ٤٥].

وغير هذه النصوص كثير. ولسنا نريد مما ذكرنا الغفلة عن الأسباب، وتركها بل المقصود : أن توضع الأسباب في الموضع الذي وضعها فيه الشرع؛ لأنه كما قال

ابن القيم : "ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه"[1] .

وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة حاثة على أخذ الحذر. وهو ينقسم إلى أمرين لا يستقيم الشأن إلا بهما جميعاً:

الأمر الأول: طاعة الله بموافقة شرعه والحذر من مخالفته، قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ﴾ [المائدة: ٩٢]قال المفسرون: يعني المخالفة، وفي هذه الآية الأمر بالطاعة لله ولرسوله، والحذر من المخالفة لله ولرسوله.

وأكد سبحانه على الحذر منه في آيات أخرى منها ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وقال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:٢٨]. قال ابن كثير :" أي يحذركم نقمته في مخالفته ".

وكم من الأمم التي خالفت أمر الله فأصابها الله بعذابه.

وأكد سبحانه وتعالى على عدم مخالفة نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

ومخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تجوز مطلقاً، لأن الآية عامة، وعلى هذا حملها الإمام أحمد وغيره. ولما خالف المسلمون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد حل بهم على أثر ذلك ما حل .

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية : (أي عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو سبيله، ومنهاجه، وطريقته وسنته، وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان) وهو كلام جامع نفيس.

أما الأمر الثاني : فهو أخذ الحذر من الأعداء عموماً. قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٦٦].

---

(١) مدارج السالكين (٢/٤٩٦ - ٤٩٨).

وقال سبحانه: ﴿ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٠٢].

فإذا وفق المسلمون للأخذ بهذين الأمرين فقد وفقوا إلى النصر، الذي لا يتحقق إلا بهما معاً .

والدكتور أصابه الغلو في الأمر الثاني : وهو الحذر من الأعداء دون الأول : وهو الحذر من مخالفة أمر الله، ومخالفة أمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

والإخوان المسلمون بمنهجيهم المنهج الدعوي والمنهج الحركي غافلون عن الأمر الأول وهذا هو السبب في عدم تحقيقهم لأي نجاح في جميع البلاد الإسلامية.

وفي ص (١٧) نفسها قال :

[ثم هل نحن ندرس الآن قضية الصراع بين القوى، وأنه بعد أن كان بين الغرب والشرق، ثم انتصر الغرب على الشرق، سيكون الصراع بين الغرب النصراني والشرق المسلم].

أقول وبالله التوفيق :

ليس المطلوب من المسلمين دراسة قضية الصراع بين القوى، وإنما المطلوب دراسة أحوال المسلمين مع الإسلام، وهل هم قريبون منه أم بعيدون؟ ومن يلقي نظرة على أحوال المسلمين فسيجد المسلمين في بعد كبير عن منهج الله وشرعه. والبعد عن منهج الله وشرعه المتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة أودى بهم إلى انحرافات عقائدية كبيرة. والشرك والكفر مع الأسف قد عم وطم في بلاد المسلمين إلا من رحم ربك ودعاة التوحيد أقل من القليل أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكثرهم ويبارك في جهودهم. والواجب على علماء المسلمين ودعاتهم أن يكون جهدهم في المقام الأول على تصحيح عقائد المسلمين، وعندما تصح عقائدهم وتستقيم عندئذ يسهل تقويم الأمور الأخرى من أمور الإسلام بإذن الله.

ولابد من اتباع الطريقة النبوية في الدعوة إلى الله التي سار عليها الصحابة في دعوتهم إلى الله، مع عدم الالتفات إلى النتائج، قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا

ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور:٥٤] فيوم القيامة يأتي النبي ومعه الرهط والرهيط والنبي ومعه الواحد والنبي وليس معه أحد . ولله الحكمة البالغة في ذلك قال تعالى :﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٰمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٩٩].

وعلى الدعاة إلى الله أن يحذروا من تزيين الشيطان لهم كأن يزين لهم بعض طرق الدعوة المخالفة لطريقة الرسول صلى الله عليه وسلم بحجة كسب الناس، وذلك أن الشيطان قد يفتح ما لا يحصى من أبواب الخير ليصل إلى باب واحد من أبواب الشر كما في بعض الآثار.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يفتح للمسلمين أبواب الخير، وأن يغلق عنهم أبواب الشر .

ويشير الدكتور ناصر في آخر كلامه في الفقرة المنقولة سابقاً بأن الصراع سوف يبدأ بين الغرب النصراني والشرق المسلم، وهذا غير صحيح؛ لأن الصراع بين الكفر والإيمان قائم منذ أرسل الله الرسل، وإلى يوم القيامة والصراع بين الحق والباطل سنة من سنن الله الكونية القدرية قال تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام:١١٢]. والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفي آخر ص (١٧) قال :

[وهنا سينتصر الإسلام في النهاية –بإذن الله– كما انتصر الروم النصارى على الفرس الوثنيين، ثم انتصر الغرب النصراني على الشرق الملحد، وسينتصر المسلمون، بإذن الله على أهل الكتاب ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١]].

أقول وبالله التوفيق:

قد لا يتبين ما في كلام الدكتور من أخطاء لأول وهلة ولكن إذا تأمل طالب العلم كلامه ، فسيتبين له ما فيه من خطأ وخلل. من ذلك أنه استخدم القياس في غير محله ، فقد استدل على انتصار المسلمين في النهاية ، وذلك بقياسه على انتصار الروم النصارى على الفرس الوثنيين على ما أوردنا سابقاً. وهذا قياس باطل من عدة وجوه:

١- إن العلماء من السلف متفقون على أن ما أخبر الله به في أول سورة الروم إنما هو معجزة ، وقد حصلت وانتهت مثل قوله تبـــارك وتعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٥] فتأويلها كما في صحيح البخاري أنه ما حصل يوم بدر من نصر المسلمين ، وهروب المشركين.

٢- إنّ ما أخبر الله به في أول سورة الروم هو إخبار لقوم خاصين بالغلبة على قوم بعينهم، وليستبشر بها قوم آخرون . فالغلبة للروم وهي على فارس والبشارة للمسلمين في ذلك الوقت.

ومما يدل على تلك الخصوصية قوله عليه الصلاة والسلام : (**إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**) [(١)].

٣- إن المعجزات غير خاضعة لأي نوع من أنواع القياس.

ومن جهة أخرى فإن قوله : وهنا سينتصر الإسلام في النهاية فيه غموض، حيث إنه لم يبين مقصوده من كلمة " النهاية " هل هي نهاية الحرب التي ستقوم بين الغرب النصراني وبين الشرق المسلم حسب زعمه[(٢)]. أم أنه يقصد بذلك نهاية الزمان. وبالجملة فإن هذه الأمور الغيبية لا يجوز للإنسان الكلام فيها إلا بنص شرعي صحيح،فإذا لم يكن هناك نص فليتوقف ، وليدع عنه التخبطات . وهذه من مزالق فقه الواقع المزعوم.

والمتأمل للأحاديث الواردة في هذا الباب يجدها تدل على أن الإسلام يَضْعُفُ بسبب زيادة ما يصيبه من الدّخن الذي دلّ عليه حديث حذيفة رضي الله عنه عند

---

(١)أخرجه البخاري ، كتاب الأيمان والنذور ، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) لا يفهم من هذا أننا ننكر الملحمة الكبرى مع الروم ولكننا نوضح أن اسم الروم لا ينطبق على الغرب كله وإنما يقع على من نسب إلى الأصفر بن الروم بن عيصو بن إسحاق ذكر ذلك القرطبي في كتاب التذكرة (٢/٣١٥).

البخاري [1]. والذي ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم تعاقب الخير والشر وذكر فيه أن الخير يصيبه الدّخن وكلما زاد هذا الدخن ازداد ضعف الإسلام. ويشهد له أيضاً حديث أنس رضي الله عنه في البخاري (**لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشر منه**)[2]. وهذا في الجملة لا ينفي وجود الطائفة المنصورة التي أخبر عنها عليه الصلاة والسلام، فإنها هي التي ترد جيش الروم الذي ينـــزل بالأعماق إلى بلادهم ويفتح الله سبحانه وتعالى على أيديهم القسطنطينية [3] وفتحت القسطنطينية على يد (محمد الفاتح) القائد العثماني ثم يقفون مع المهدي عند خروجه ضد الدجّال إلى أن يُنزل الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام فيقتل الدجال ويحيي ما اندرس من الإسلام ويظهر الإسلام في وقته ظهوراً عظيماً حتى لا ترفع راية سوى رايته وتهلك جميع الملل ويبقى الإسلام [4] . وينـــزل الله في الأرض بركتها. وبعد وفاة عيسى عليه السلام يعود الإسلام فيندرس كليًا ، لأنه سبحانه وتعالى يرفع القرآن والعلم ، كما ورد في حديث حذيفة رضي الله عنه عند ابن ماجة (**يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب ، حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ، وليُسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ، وتبقى طوائف من الناس : الشيخ الكبير والعجوز ، يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة " لا إله إلا الله ، فنحن نقولها**)[5].

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الفتن ، باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.

(٢) أخرجه البخاري ، في كتاب الفتن ، باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه.

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الفتن ، فتح القسطنطينية فأصل الحديث هناك . وقد فتحت القسطنطينية سنة ٨٥٧هـــ على يد محمد الفاتح رحمه الله.

(٤) انظر :كتاب التذكرة للقرطبي ، باب: نزول عيسى عليه السلام ، وما ذكرته مختصراً لعدة صفحات منه.

(٥) أخرجه ابن ماجة ، كتاب الفتن ، باب: ذهاب القرآن والعلم.

قـــال عـــنه الحاكم في المستدرك: صحيح على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي. وقال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح ، وصححه الألباني.

حينذاك تقوم الساعة على شرار الخلق بعد أن يقبض الله سبحانه وتعالى أرواح المؤمنين.

وقد ذكرت ما ذكرت لأوضح شيئاً مهماً وهو أن من تدبر كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإنه سيعلم مستقبل هذا العالم بمقتضى النصوص الشرعية. وسيحصل له من العلم اليقيني المبني على النص الشرعي ما لا يحصل لغيره من فقهاء الواقع الذين أضاعوا وما زالوا يضيعون أوقاتهم وجهودهم مع جهود غيرهم أيضاً في متابعة الأخبار والتقارير ودراسات مراكز الأبحاث الاستراتيجية وغير ذلك.

وإذا أردت أن تعرف مصداق ما أقول فعليك بالأحاديث التي تتحدث عن الفتن ، والملاحم ، وأشراط الساعة ، فستجد فيها ما يشفي ويكفي ، والحمد لله على منّه وفضله حيث قال : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٥].

وبما أن الكلام يدور حول النصر والهزيمة؛ فحريٌّ بنا أن نقف هذه الوقفة . نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها.

إن كثيراً من المسلمين في هذا الزمان قد غلوا في ترديد قضية الإعداد وأخذ الأسباب لملاقاة العدو حتَّى أنساهم ذلك مسألة التوكل على الله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب فأثَّر ذلك على عقيدتهم ، وتوحيدهم ، وكأنهم لم يقرأوا قوله سبحانه تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١].

وقوله سبحانه :﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة : ٢٣]. فالله سبحانه وتعالى شرط على المؤمنين أن يتوكلوا عليه وحده ، وأن يمتثلوا قوله سبحانه:

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب :٣].

ذلك أن تمام التوكل يدل على تمام الإيمان ، وإذا تمّ الإيمان تحقق النصر كما وعد - سبحانه وتعالى- بذلك في قوله: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] ولذلك لما كان الأنبياء أكمل الناس إيماناً لم يطلبوا النصر إلا من الله سبحانه

وتعالى، فها هو نوح عليه السلام يخبرنا الله عنه لما أراد قومه أن يرجموه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠] فاستجاب سبحانه وتعالى له فقال : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : ١١-١٢]. إلى آخر الآيات الكريمات ، التي تبين كيف نجّى الله سبحانه وتعالى نبيه ، وأهلك أعداءه.

ولذلك فقد تنقلب هذه الأسباب المادية إلى عكس ما يراد منها ، فبدلاً من أن تكون من أسباب النصر تكون من أسباب الهزيمة. ومصداق ذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى حيث قال : : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥].

ولا يشك عاقل في أن الكثرة من أسباب النصر ، ولكن لما أصابهم شيء من العجب لكثرة عددهم وعتادهم وقلل ذلك من حقيقة التوكل لديهم، جعل الله سبحانه وتعالى لهم هذا الدرس. ولما عادوا إلى الله وتداركوا أنفسهم وفوضوا أمرهم إلى بارئهم صادقين مخلصين إليه منّ الله عليهم بالسكينة ، والثبات، والنصر. وبعكس ذلك ، فإنّ القلة من أسباب الهزيمة ولكن القلة في الإسلام إذا اقترنت بالإيمان بالله ، والتوكل عليه فإنها تنقلب إلى سبب من أسباب النصر، كما قاله سبحانه وتعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٤٩]. وقد صرّح النبي صلى الله عليه وسلم بأن الضعف يكون سبباً في النصر على الأعداء إذا صاحبه إيمان وتوكل ، وذلك بقوله عليه الصلاة والسلام : (**هل تنصرون إلا بضعفائكم**) [(١)]؛ لأن الإخلاص فيهم أكثر من غيرهم.

وقال عليه الصلاة والسلام : (**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها،بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**)[(٢)] .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد ، باب من استعان بالضعفاء والصالحين.

(٢) أخرجه النسائي ، كتاب الجهاد ، باب الاستنصار بالضعيف، قال الألباني : صحيح.

وإنما تفيد الحصر والمراد التعظيم. فتدبر؟! وقد أكدّ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الآخر: (**ابغوني الضعيف فإنكم إنما ترزقون، وتنصرون بضعفائكم**) [1].

ومن يتدبر القرآن يجد ما هو أعظم من ذلك ، فإن الله سبحانه وتعالى حوَّل النار التي ألقي فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام من وسيلة تعذيب وإحراق، إلى بردٍ وسلام.قال سبحانه: ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩]. وقد ورد في بعض الآثار أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قال: (وددت أن عيشي وحياتي كلها مثل عيشي إذ كنت فيها) . وما فعل الله سبحانه وتعالى ذلك لنبيه إبراهيم عليه السلام إلا لما علم من صدق إيمانه وتوكله على ربه.

قال عليه الصلاة والسلام: (**احفظ الله يحفظك**)[2]. وقال عليه الصلاة والسلام: (**إنَّ الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ، وإن استعاذ بي لأعيذنّه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته**) [3]. وهل ينال ممن كان الله معه بهذه المثابة.

فالأمة الإسلامية في هذا الزمان بحاجة ماسة إلى الرجوع إلى الدين ، وتقوية الإيمان والعناية بالعبادة ، لكي يبارك الله – سبحانه وتعالى– لها فيما تتخذه من أسباب. فقد ورد أن المسلمين الذين يفتحون القسطنطينية لا يفتحونها بالسلاح ، وإنما يفتحونها بقولهم (لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها ، ثم يقولونها ثانية

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب الجهاد ،باب الاستنصار بالضعيف ، قال الألباني : صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي ،كتاب صفة القيامة (٢٥١٦) ، قال الألباني : صحيح.

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب التواضع.

فيسقط الجانب الآخر ، وثالثة فيسقط الجانب الأخير [1]. وكلما كان الإيمان بالله أكمل كان النصر والدفاع من الله أكبر. كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج : ٣٨] فعلى قدر الإيمان يكون الدفاع من الله [2]. والله تعالى أعلم.

وبعد ذلك قال الدكتور ص (١٨):

[وأخيراً : فبعد أن بينت أن أساس هذا العلم في الكتاب والسنة أشير إلى اهتمام السلف به...] إلى أن قال: **[وعمر بن الخطاب يقول: "لست بالخب ولا الخب يخدعني"]**.

وهو يستدل بهذا الأثر على اهتمام السلف بفقه الواقع.

أقول وبالله التوفيق:

ذكر الدكتور هذا الأثر ، ولم يعزه إلى أي مصنف ، أو مصدر. ومن المعلوم أنه لا يثبت المدلول إلا بثبوت الدليل ، ولكن كأن الدكتور أخذ بمقولة (كل ما قيل في المحراب فهو صواب).

وأنا لم أعثر على هذا الأثر في كتب الحديث إلا أني وجدته في كتاب " سراج الملوك " للطرطوشي – الباب الثالث والعشرون – فصل دهاة العرب ستة . وذكره أيضاً غير منسوب.

وذكره ابن تيمية في الفتاوى (٣٠٢/١٠) ولم ينسبه لأحد.

وهو كذلك في كتاب " تاج العروس " مادة (خبّ) منسوباً إلى ابن سيرين رحمه الله.

وفي مجمع الأمثال للميداني بلفظ "ليس أمير القوم بالخب" وهو أعم من الأول.

والذي يظهر لي أنه من جملة الأمثال التي كانت تقولها العرب.

---

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب الفتن ، باب فتح القسطنطينية.

(٢) أشار ابن القيم رحمه الله إلى ذلك المعنى في الزاد وفي الوابل الصيب.

هذا وإن ثبت عن عمر [1] رضي الله عنه فليس فيه أي دلالة على ما ذكره الدكتور، وغاية ما في الأمر أنه نفى أن يكون ماكراً مخادعاً ، ونفى أيضاً أن يغرر به الماكر المخادع من حيث الجملة ، وإلا فهو بشر رضي الله عنه وحاشاه أن يكون كذلك. وقد جاء في الحديث الصحيح "المؤمن غر كريم، والفاجر خبّ لئيم" وأشار ابن تيمية إلى أنه كان كذلك لعلمه بأمور الجاهلية. والله تعالى أعلم.

وفي ص (١٨) قال أيضاً :

[والعلماء من سلف هذه الأمة كانوا خير مثال لحسن تعاملهم مع واقعهم، فالإمام أحمد بن حنبل في فتنة القول بخلق القرآن ،وشيخ الإسلام ابن تيمية في موقفه من التتار ، وابن القيم فيما دونه عن فقه الواقع وحاجة المفتي إليه ، والعز بن عبد السلام في مواقفه الخالدة مع النصارى ومن حالفهم].

أقول وبالله التوفيق:

إن تصنيف الدكتور لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وتلميذه ابن القيم ، والعز بن عبد السلام من سلف هذه الأمة خطأ. والصحيح أنهم سلفيون نسبة إلى منهج السلف ، وليسوا من السلف عند إطلاق كلمة السلف . والسالف لغةً : هو المتقدم. وسلفك : كل من تقدمك من آبائك وقرابتك [2].

والسلف الصالح هم الصحابة رضي الله عنهم ، وتابعوهم ، وأتباعهم من أئمة الإسلام العدول الذين اتفقت الأمة على إمامتهم في الدين.

أما السلفية فتطلق ، ويراد بها معنيان :-

الأول : حقبة تاريخية معينة تختص بأهل القرون الثلاثة المتقدمة ، كما في حديث: (**خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم**) [3] .

---

(١) وردت كلمة " خبّ " على لسان عمر في موضعين : الأول قوله : " مالك وللخب "، والثاني قوله: " من تعلم الفارسية فقد خبّ " هذا فيما ظهر لي بعد التتبع والله أعلم.

(٢) انظر القاموس المحيط والتاج ولسان العرب.

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب الرقاق ، باب ما يحذر من زهرة الدنيا.

الثاني : الطريقة التي كان عليها الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان ، من التمسك بالكتاب والسنة وتقديمهما على ما سواهما ، والعمل بهما على مقتضى فهم الصحابة وأتباعهم.

فالسلفية بالإطلاق الأول تكون مرحلة تاريخية قد انتهت بموت رجالها. وبالإطلاق الثاني تكون منهجاً باقياً إلى يوم القيامة ، وذلك من قوله عليه الصلاة والسلام : **(لا تـــزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)** [1] .

وعليه فكل متأخر عن زمن السلف ، ولكنه على مذهبهم في الاعتقاد والعمل يكون سلفياً بالإطلاق الثاني (يعني نسبة إلى المنهج). فابن تيمية — مثلاً — سلفي بالإطلاق الثاني لا الأول [2] . وكذلك كل من كان على طريقة السلف فإنه يصح أن يقال عنه : إنه سلفي.والذي دعانا إلى الإطالة هنا مع أنها مسألة واضحة هو قول الدكتور في محاضرة التوحيد أولاً: "ذهبنا إلى أندونيسيا فوجدنا فيها أناساً من السلف" ، وهذا يدل على أنه لا يفرق بين المعنيين المذكورين آنفاً.

والتنبيه الذي يجب أن يقال للدكتور ناصر ، ومن ناصره على قوله : لماذا لم يؤلف هؤلاء الأئمة الذين ذكر أسماءهم ، أو غيرهم من أئمة السلف — في فقه الواقع — أم هم ممن يجهل فقه الواقع ؟! وإذا كان الأمر ليس كذلك ، بقي أن نقول : إن من تعلم على طريقتهم ، ونهل مما نهلوا كان فقيهاً في الشرع وبالتالي في الواقع.

وفي ص (١٩) قال :-

[كما أن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي ذكر في تفسيره أن فقه المسلم لواقعه من لوازم معرفة (لا إله إلا الله) على معناها الصحيح ، ولم لا ؟ وبفقه الواقع يكتمل تحقيق مبدأ الولاء والبراء وهذا المبدأ أصل من أصول عقيدة التوحيد التي جاءت بها (لا إله إلا الله)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة ، باب لا تزال طائفة ...

(٢) انظـــر كـــتاب منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد . لعثمان بن علي حسن وانظر أيضاً : الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية.

أقول وبالله التوفيق :

نقل عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : " كل يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر" (يعني الرسول صلى الله عليه وسلم) ،وعن الإمام مالك قريباً من ذلك المعنى وهو قوله :" كل راد ومـــردود عليه إلا صاحب هذ القبر وأشـــار بيـــده إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم" [1].

وهذا المعنى صحيح بلا ريب، وليس فيه خلاف بل هو محل إجماع والحمد لله.

والعبارة التي نقلها الدكتور عن الشيخ عبد الرحمن السعدي لم يذكر موضعها في تفسيره حتى يمكن الرجوع إليها . والغالب على الظن أن هذه العبارة لا يقولها مثل الشيخ عبد الرحمن السعدي ؛ لأن معناها غير مستقيم ولا أعلم أحداً من العلماء قال مثل تلك المقولة.

وكلمة (لا إله إلا الله) لها شروط معروفة هي : العلم ، واليقين ، والإخلاص والصدق ، والمحبة ، والقبول ، والانقياد ، والكفر بما يعبد من دون الله . ولها نواقض معروفة أيضاً : هي ضد الشروط المذكورة.

ولا يخفى مثل ذلك على الشيخ عبد الرحمن السعدي . فإن صح أن الشيخ قالها فمراده والله أعلم أن فقه الإنسان لواقعه الحسي يقتضي معرفة خالقه وذلك مأخوذ من عدة آيات مثل قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١] . فإن الإنسان إذا تدبر في خلق نفسه علم أنه لابد من خالق وموجد سبحانه وتعالى وكذلك تفكُّر الإنسان في الواقع الكوني المحيط به يوصلة لمعرفة الخالق والموجد، ولهذا أمر سبحانه الخلق بالتدبر فقال سبحانه : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية : ١٧-٢٠]. والآيات في هذا المعنى

---

(١) هـــذه المقولة اشتهرت عن بعض الأئمة ، وقد نسبها العجلوني في كشف الخفاء إلى ابن عباس رضي الله عنهما ، وأفاد الألباني في مقدمة صفة الصلاة أن السبكي نسبها إليه أيضاً ، وخرجها ابن عبد البر في جامع بيان العلم بأسانيد صحيحة عن الحكم بن عتيبة ومجاهد (٢/٩٢٥).

كثيرة . ولا شك أن التدبر فيما أمر الله سبحانه وتعالى يوصل غير الموحد إلى توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد الألوهية كما أنه يقوي من توحيد الموحد [1].

أما القول " بإن فقه الواقع من لوازم لا إله إلا الله " فغير صحيح ؛ لأن ذلك يؤدي إلى اعتقاد أن الأعرابي الذي يعيش في الصحراء ناقص التوحيد ؛ فهو لا يفقه الواقع الذي من مصادره "الإذاعة ، والتلفزيون ، والصحف ، والمجلات ، وغير ذلك حسب قول الدكتور" [2].

ومثله الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، ويؤدي كذلك إلى القول بأن من لم يفهم قضية من قضايا الواقع السياسية أو غير السياسية على الوجه المطلوب، فإن توحيده ناقص ، أو مختل ، وهذا باطل لم يقل به أحد ، وهو قبل ذلك كله مطالب بالدليل على أن فقه الواقع من لوازم " لا إله إلا الله ".

ثم إن هذه الكلمة أيضاً تحتوي على معانٍ كثيرة فاسدة غير ما ذكرنا.

فينبغي للدكتور ناصر أن يراجع نفسه ، وأن يتقي الله ، وأن لا يتكلم إلا عن علم وبصيرة ولا يطلق العبارات مجازفة هكذا فهو يتكلم مبلغاً عن الشارع. نسأل الله لنا وله التوفيق والسداد.

وفي ص (١٩) نفسها قال :

[ومن خلال ما سبق تبين لنا أساس هذا العلم ، وأهميته من خلال الكتاب والسنة وفقه سلف الأمة ، فحري بالعلماء خصوصاً وطلاب العلم عموماً بأن يدركوا هذه الحقيقة ويتعاملوا معها تحقيقاً لمفهوم (لا إله إلا الله) التزاماً بمنهج الكتاب والسنة ، واستبانةً لسبيل المجرمين].

---

(١) تكلم ابن القيم عن الموضوع نفسه في كتابه العظيم مفتاح دار السعادة . فصل: وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه إلى التفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله.

(٢) انظر ص " ٦٩ " من كتابه.

أقول وبالله التوفيق :

إن العلمـــاء الربانيين في هذه البلاد وغيرها من البلاد الإسلامية يعلمون حقيقة لا إله إلا الله والدكتور في كلامـــه الســـابق يشير إلى أن العلمـــاء لم يدركوا حقيقة لا إله إلا الله ، و لم يحققوا مفهومها وهذا كلام باطل وخطير.

والواقع أن الدكتور هو الذي لم يفهم التوحيد كما ينبغي ومن أراد التأكد من ذلك فليرجع إلى محاضرته " التوحيد أولاً " فإن من استمع إلى هذه المحاضرة يعلم تماماً أن الدكتور لم يفهم التوحيد كما يجب أن يفهم . والسبب في ذلك أنه أخذه من غير مصادره وطلبه في غير مظانه . والواجب عليه أن لا يتكلم إلا بعلم؛ وإلا سيكون سبباً في ضلال الناس بدلاً من أن يكون سبباً في هدايتهم والله المستعان.

وفي ص " ٢٠ " وتحت عنوان مقومات فقه الواقع قال :-

[وفقه الواقع له أصوله ، ومقوماته التي عنها ينبثق ، ومنها ينطلق ، وهذه المقومات تصونه من استباحة المدّعين ، وتعين الراغبين في التخصص فيه والتعمق في بحوره ...].

أقول وبالله التوفيق :

نحن نتفق مع الدكتور ناصر بأنه لا بد لكل علم من أصول ، وقواعد ، وضوابط ومن الطبيعي أن هذه الأصول والقواعد تنشأ مع بداية هذا العلم ، ومنذ ظهوره ، ولا تأتي متأخرة عنه . والدكتور قد صرح بأن هذا العلم من العلوم التي اهتم بها السلف ونحن الآن نطالبه بهذه الأصول والقواعد التي وضعها السلف لهذا العلم ، وأن يحيلنا إليها في مصادرها فإن لم يفعل ذلك فقد أثبت على نفسه التناقض، فإما أن يدلنا على هذه الأصول والقواعد في كتبهم المتقدمة ، أو يتراجع عن قوله إنه من علوم السلف وأن له أصولاً وقواعد بوصفه علماً كما زعم.

ونحن نعلم أن ذلك متعذرٌ عليه وقـــد صـــرح هو بذلك كما في ص (٩) حيث يقول :-

"ومن خلال قراءاتي اليسيرة ، واهتماماتي الخاصة بهذا العلم لم أجد من أصل له ، أو أفرده في رسالة ، أو مصنف [1]..." إلى آخر ما قال.

ونحن نذكر ذلك من باب إلزامه بقوله . ولكي نبين التناقض العجيب الذي وقع فيه الدكتور من حيث يشعر أو لا يشعر.

فإذا تبين لك هذا واتضح علمت فشل محاولة الدكتور إلصاق هذا الفقه المزعوم بعلوم السلف ، فهو الذي وضع أصوله ومقوماته. ويؤكد ذلك ما قاله مقدم المحاضرة عايض القرني حيث قال : عند انتهائها معلقاً: " إن الإمام الشافعي أصَّل أصول الفقه في الرسالة ، وأبو الأسود وضع قواعد النحو ، والخليل وضع عروض الشعر ، وفي هذه المحاضرة تم تأصيل فقه الواقع وتوضيح معالمه". ولك أن تتعجب كيف أنه من علوم السلف و لم يؤصل إلا بعد أربعة عشر قرناً.؟!

فإذا ثبت أنه لم يتم تأصيله إلا في هذه المحاضرة فهو أعظم دليل على أنه غير أصيل.

أما قوله : "وهذه المقومات تصونه من استباحة المدّعين ، وتعين الراغبين في التخصص فيه والتعمق في بحوره ، ...."

فهو كما ترى - أيها القارئ الكريم - يريد متخصصين في هذا الفقه يتعمقون في بحوره ، ولا أعلم هل هو يريد من الجامعات الإسلامية مثلاً أن يجعلوا قسماً خاصاً بتخريج فقهاء في الواقع . أم ماذا ؟!

فإن كان هذا قصده فقد أتى بالعجب كله ؛ لأنه لم يسبق إلى مثل هذا القول العجيب. وتقسيم الناس بالنسبة إلى العلوم الشرعية لا يتعدى أمرين : إما عالم بالحكم الشرعي ، أو جاهل به ، ويجب عليه سؤال العالم . كما هو مفاد الآية الكريمة ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] فسائل جاهلٌ ومسؤولٌ عالم !

---

(١) وهو مع ذلك يرمي غيره من طلاب العلم الذين لم يشغلوا أنفسهم به بقصور النظر ونقص العلم.

والدكتور عندما يريد متخصصين في فقه الواقع يردُّ على نفسه من حيث لا يدري، وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله . غير أنا نقول له هنا : إنك ذكرت الأئمة في ص (١٨) مستشهداً على أنهم كانوا علماء بالواقع ، وهم الإمام أحمد ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، والعز بن عبد السلام.

والسؤال الذي يجب أن يطرح على الدكتور هو: هل هؤلاء الأئمة المذكورون كانوا متخصصين في فقه الواقع أم لا ؟

فإن قال: نعم،علم بطلان قوله عند الجميع، وإن قال : لا،هم غير متخصصين فيه ، نقول : إذاً يلزمك ثلاثة أمور هي :

الأول : أنك أثبت التناقض على نفسك لأنك سبق وأن وصفتهم بأنهم علماء بالواقع ، وأنهم خير مثال لحسن تعاملهم مع الواقع ، ومن المعلوم أنه لا يكون أحد عالماً بالشيء إلا إذا كان متخصصاً فيه ، فالمتخصص في الحديث يكون عالماً بالحديث ، إلى غير ذلك.

الثاني : ما دام أنهم غير متخصصين في فقه الواقع فإنه لا يحسن الاقتداء بهم في مسائله ، لأن علمهم بفقه الواقع ليس علم متخصص .

الثالث : أنه يصدق عليهم أنهم مدَّعون لهذا العلم أو الفقه، حسب تقسيم الدكتور للناس بالنسبة إلى هذا الفقه ، حيث قسمهم إلى صنفين: مدَّعون له ، ومتخصصون فيه.

والدكتور بهذا قد اتهم علماء السلف ، وصدّ عن اتباعهم من حيث لا يشعر .

وهو إذ يرغّبُ طلاب العلم للتخصص في هذا الفقه لا يملك دليلاً شرعياً يؤيد به كلامه . فإن كان ذلك استحساناً فليس الاستحسان من الأدلة الشرعية كما هو قول جماهير علماء الأمة.

فالواجب على الدكتور سد الذرائع والأبواب الموصلة إلى الفتن ، وما يحصل في زماننا هذا من تكالب الناس على شراء المجلات الفاسدة ، وشراء أجهزة الاستقبال

(الدش) مع ما في ذلك من الخطر العظيم على المعتقد والسلوك إلا بحجة أنهم يريدون معرفة أحوال العالم السياسية والثقافية ، إلى غير ذلك من الحجج الواهية المردودة التي يحتج بها الواقعون في هذه المنكرات[1] ،والشريعة منـــزهة عن الأمر بتلك الوسائل المزعومة والتي توصل إلى هذه الغايات المذمومة شرعاً وعقلاً. وأهل الجهل والنفاق هم الذين يفسدون في الأرض بحجة الإصلاح ، وقد أخبرنا - سبحانه وتعالى - عن حالهم فقال :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١١ - ١٢] . قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: (لم يجئ أهل هذه الآية بعد) .نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن لا نكون منهم . والله تعالى أعلم.

وفي ص (٢٠) نفسها وتحت عنوان القناعة بأهميته قال :

[لا يمكن أن يتخصص في هذا العلم من يتصور أن فقه الواقع مجرد مزيد من الثقافة ، أو أن الأمة ليست بحاجة إليه].

أقول وبالله التوفيق :

إن الأمة ليست بحاجة إليه ، وإنما هي بحاجة إلى أن تكون كما كان أسلافها رضي الله عنهم أجمعين، فإذا كانوا كأسلافهم في المعتقد ، والسلوك ، ونصرة الدين ، نصرهم الله - سبحانه وتعالى - على أعدائهم قلوا أو كثروا ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] ويقول سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] ويقول سبحانه : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران :١٦٠].

وإذا أردت مثالاً في عصرنا الحاضر يؤكد ما نقول ، وهو أن الأمة ليست

---

(١) هذا الإطلاق باعتبار غالب ما تستخدم فيه هذه الأجهزة.

بحاجة إلى هذا الفقه ، وإنما هي بحاجة إلى الرجوع إلى الدين والإيمان. فخذ الجهاد الأفغاني مثالاً لذلك ، فإنهم انتصروا على عدوهم المدجج بالسلاح المتفوق في العدة والعتاد ، وهم ضعفاء قلة مع أن أغلب المشاركين في هذا الجهاد هم من الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، وأما غير الأميين منهم لم تكن تصلهم وسائل الإعلام بشتى أنواعها ، فلا جرائد ولا مجلات ، ولا كتب سياسة ، ولا تلفزيونات ولا إذاعات ، بل لم يكن لديهم أشياء كثيرة من متطلبات القتال مثل : المدرعات ، والدبابات ، والطائرات ، وأجهزة الاتصال وغير ذلك.

أضف إلى ذلك الفقر الشديد الذي كانوا يعيشونه ، ومع ذلك كله فقد أنزل الله عليهم السكينة والثبات حتى أذاقهم برد النصر ، وأذاق عدوهم حرّ الهزيمة وأثلج صدور المؤمنين بذلك. وأجرى على أيديهم بعض الكرامات بسبب إيمانهم وتوكلهم على الله - سبحانه وتعالى - الذي قال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣].

وبقدر ما يكون التوكل على الله أقوى يكون النصر من الله أقوى وأعظم، والله تعالى أعلم.

وقد نازع بعض أهل العلم في إطلاق مسمى الجهاد على ما حصل في أفغانستان والأرجح أنه جهاد لعدة أسباب منها: أن الأصل فيهم الإسلام؛ والثاني: أن الأصل في أعدائهم الكفر؛ والثالث: أن قتالهم قتال اضطرار وليس قتال اختيار وهو ما يعرف بجهاد الدفع وهو أكثر وجوباً من جهاد الطلب؛ والرابع: أن الجهاد مراتب.

لهذه الأسباب وغيرها يصح إطلاق الجهاد عليه وهو ما جرى عليه كبار العلماء في هذا العصر.

وفي ص (٢١) قال :

[البوابة الرئيسية للولوج فيه : القناعة التامة بأهميته وضرورته ، وأن تعلمه فرض كفاية].

أقول وبالله التوفيق :

إن حكم الدكتور هذا ، وهو قوله : إن تعلمه (يعني فقه الواقع) فرض كفاية، ليس عليه دليل لا من الكتاب ولا من السنة ولا من إجماع الأمة ولا من قياس صحيح، بل لم ينقل عن أحد من أئمة الأمة أنه قال بما قاله الدكتور ، وفي هذا جرأة عظيمة ، وقول على الله بغير علم.

وبما أن علماء الأصول هم أهل هذه التقسيمات فإن الرجوع إلى كلامهم في هذا الموضوع ضروري جداً.

وقد عُرِّفَ فرض الكفاية بتعاريف كثيرة ، وهي متقاربة في الجملة. والمشهور أنه إيقاع الفعل ، مع قطع النظر عن الفاعل [1].

وهو واجب على الجميع عند الجمهور [2] .

وذلك من حيث الأصل والابتداء.

قلنا : ذلك ؛ لأنه يجتمع مع فرض العين في الفرضية ، ولكن من رحمة الله سبحانه أنه إذا فعله البعض سقط الفرض عن الباقين . وكذلك هو يجتمع معه في عموم التكليف.

ولابن القيم رحمه الله كلام نفيس في هذا الباب يحسن نقله بكامله للفائدة. قال رحمه الله : " وأما فرض الكفاية فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً ، فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب ، وعلم الهندسة ، والمساحة ، وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة ؛ كالفلاحة، والحياكة ، والحدادة ، والخياطة ، ونحوها وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق ، وربما جعله فرض عين وبناه على عدم صحة إيمان المقلدّ . وكل هذا هوس

---

(١) القواعد والفوائد الأصولية لابن اللحام.

(٢) انظـــر: القواعد والفوائد الأصولية ، ونهاية السول ،والمستصفى ، والمسودة ، ومختصر ابن الحاجب، وغيرها من الكتب الأصولية.

وخبط؟؟ فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله. فيا سبحان الله هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيباً، حجاماً ، حاسباً ، مهندساً ، أو حائكاً ، أو فلاحاً ، أو نجاراً، أو خياطاً؟! فإن فرض الكفاية كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين ، وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض ، ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم، ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم. فيجب على كل أحد أن يكون حاسباً حائكاً خياطاً نجاراً فلاحاً طبيباً مهندساً ، فإن قال المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحـــد منها فرض كفاية صحيحاً لأن فرض الكفاية يجب على العموم [1]. وأما المنطق فلو كان علماً صحيحاً كان غايته أن يكون كالمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله أضعاف حقه، وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبانيه توجب مراعاتها الذهن أن يزيغ في فكره ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح. وأخبر بعض من كان قد قرأه وعني به أنه لم يزل متعجباً من فساد أصوله وقواعده ومباينتها لصريح المعقول وتضمنها لدعاوٍ محضة غير مدلول عليها وتفريقه بين متساويين وجمعه بين مختلفين".....

إلى أن قال : "وما كان من هوس النفوس بهذه المنـــزلة. فهو بأن يكون جهلاً أولى منه بأن يكون علماً تعلمه فرض كفاية أو فرض عين.وهذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم، لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه وهل صح لهم علمهم بدونه أم لا؟! بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولاً من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين، وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير أوضاعه وشوش قواعده. ومن الناس من يقول إن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعاني والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها. ومن الناس من يقول تعلم أصول الفقه فرض كفاية لأنه العلم الذي يعرف به الدليل ومرتبته وكيفية الاستدلال. وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى

---

(١) وهو كلام في غاية التحقيق فتدبره.

الصواب من القول الأول فليس وجوبها عاماً على كل أحد ولا في كل وقت، إنما يجب وجوب الوسائل في بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص بخلاف الفرض الذي يعم وجوبه كل أحد وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام فهذا هو الواجب. وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب: ما لا يتم الواجب إلا به، ويكون الواجب منه القدر الموصل إليه دون المسائل التي هي فضلة لا يفتقر معرفة الخطاب وفهمه إليها. فلا يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق، إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها؛ وكذلك أصول الفقه القدر الذي يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقرَّرة والأبحاث التي هي فضلة. فكيف يقال إن تعلمها واجب[1] "إلى آخر ما قال رحمه الله .

فإذا لم يصل تعلم علوم العربية وأصول الفقه إلى أن يكون فرض كفاية ، ففقه الواقع من باب أولى أن لا يكون فرض كفاية.

ومن الأدلة العقلية[2] الدالة على بطلان كون فقه الواقع من فروض الكفايات ما يلي:-

إن مما اتفق عليه أهل العلم والمعرفة : أن العمل يحتاج إلى علم ، وليس العكس ، لأن المرء إذا لم يعلم كيفية الفعل الذي كلّف به لا يمكنه الإتيان به. ولا يكفي أن يعرف عين الفعل دون أن يعرف الوجه الذي كلّف بإيقاعه عليه. ولهذا قدم الله العلم كما في قوله تعالى :﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : ١٩] وبوب البخاري على ذلك في الصحيح بقوله: باب: العلم قبل القول والعمل.

والشارع إذا طلب من المكلف امتثال فعل فلابد أن يبين فيه خمسة أمور هي:

(١) - منـــزلة ذلك الفعل بما في ذلك حكمه.

(٢) - صفة ذلك الفعل وهيئته.

---

(١) مفتاح دار السعادة ، مبحث فرض الكفاية ، ص (١٦٢، ١٦٣) طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) نذكر هنا بعض الأدلة العقلية، لأنه سبق أن ناقشنا الأدلة الشرعية التي ذكرها.

(٣) – زمن ذلك الفعل ووقته.

(٤) – ما يكمل ذلك الفعل وما يبطله.

(٥) – ما يترتب على فعله من جزاء وعلى تركه من عقاب.

وكل ذلك منعدم في فقه الواقع . فامتنع أن يكون من مطلق التكاليف أصلاً ، لأنه لا يوجد له ضوابط شرعية كما ترى. ومما يدل على ذلك كثرة تناقض الخائضين فيه . ولو علم الدكتور أن مصالح العباد لا تختلف في هذا الشرع إلا أن ينقطع عنهم التكليف، لما قال:إن فقه الواقع بالصفة التي ذكرها من فروض الكفايات ، إذ إنه لو كان كذلك لورد في الشرع ما يبين صفته وحدوده وضوابطه مما هو ضروريٌ للمكلف معرفته حتى يوقع الفعل كما أراده الشارع. وقد استخدم الإمام ابن حزم هذه القاعدة في بعض المسائل، مثل نفيه الوجوب في زكاة عروض التجارة – فقال: "من المحال أن يكون عليه الصلاة والسلام أوجب علينا زكاة لا يبين لنا وقتها ومقدارها وكيف تؤخذ"[1].

وإذا تأمل العاقل ما يسمى بفقه الواقع[2]، وجد في بعض جوانبه خطراً أعظم من خطر علم الكلام والمنطق ؛ لأن الأمور التي يبنى عليها ليست من الحق الخالص أو ما يغلب على الظن أنه حق، بل هي مشوبة بالكذب ، والتلبيس ، والخديعة ، والدجل والهوى. فأيُّ عاقل يثق بما تقوله الجرائد والمجلات والإذاعات وشبه ذلك، وهم لا يجوّزون الكذب فحسب بل يوجبونه في كثير من الأحيان. والكثير من العاملين في هذا المجال هم من ساقطي العدالة ؛ إما بسبب الكفر ، وذلك فيما يصدر عن الكفار، أو بسبب الفسق ، وذلك فيما يصدر عن كثير من المسلمين . وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] . وقد

---

(١) انظر المحلى (٤/٤٠).

(٢) إذا ذكرنا فقه الواقع فإنما نريد به فقه الواقع (العمري).

أجمع أهل العلم على أنه لا تجوز شهادة من عرف بالكذب ، أو اشتهر به ، كما لا تجوز الرواية عنه أيضاً. وبذلك تكون آثار هذا العلم باطلة أيضاً ؛ لأن ما بني على باطل فهو باطل.

ويمكننا أن نقول من وجه آخر : إن العلوم تنقسم إلى قسمين : القسم الأول يسمى: الشرعيات ، والقسم الثاني : العقليات . فالشرعيات بأنواعها لا تعلم إلا من طريق الشرع فحسب ، وأما العقليات فتعلم من طريق الشرع والعقل . وقد ارتضى هذا التقسيم غير واحد من المحققين ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية[1].

ولنا أن نسأل هل النصوص الشرعية تفي بجميع الأحكام الشرعية أم لا ؟ والجواب : نعم ، وعلى هذا جمهور الأئمة من المسلمين.

قال شيخ الإسلام : "الصواب الذي عليه جمهور أئمة المسلمين أن النصوص وافية بجميع أحكام أفعال العباد. ومنهم من يقول : إنها وافية بجميع ذلك ، وإنما أنكر ذلك من أنكره ؛ لأنه لم يفهم معاني النصوص العامة ، التي هي أقوال الله وأقوال رسوله ، وشمولها لأحكام أفعال العباد . وذلك أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بجوامع الكلم ، فيتكلم بالكلمة الجامعة العامة التي هي قضية كلية ، وقاعدة عامة تتناول أنواعاً كثيرة وتلك الأنواع تتناول أعياناً لا تحصى ، فبهذا الوجه تكون النصوص محيطة بأفعال العباد" [2] .

قلنا ذلك لكي نطالب الدكتور بتقديم النص الشرعي الذي اعتمد عليه في حكمه على أن تعَلمَ فقه الواقع من فروض الكفاية. فإن تعذَّر عليه ذلك فليس أقل من أن يذكر القاعدة الكلية التي بنى عليها حكمه هذا مع تبيين طريقة الاستدلال[3].

فإن تعذر عليه ذلك عُلِمَ قطعاً أن هذا العلم أو الفقه ليس من علوم الشريعة أصلاً، فضلاً عن أن يكون من فروض الكفاية .

---

(١) مر معنا ذكر طرف من ذلك.

(٢) الفتاوى (١٩/٢٨٠).

(٣) أجبنا سابقًا على الأدلة التي ذكرها وبينا أنه ليس لها وجه في الدلالة على ما يقول.

ثم إنه مما لا شك فيه أن الآثار المترتبة على أي علم هي من أكبر ما يميز هذا العلم، فمثلاً: الآثار المترتبة على العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله جعلت هذا العلم أجلَّ العلوم وأشرفها على الإطلاق ، حيث به يقوم التوحيد ويكمُل،وبدونه ينقص وينعدم.

وبعكس ذلك عرف فساد علم المنطق ، لأن أثره نقض التوحيد أو نقصه ، والمتعاطون لهذا العلم هم من أكثر الناس شكاً وحيرة ، ومعتقداتهم من أفسد المعتقدات.

وسوف أذكر بعض آثار هذا الفقه المزعوم لكي تتبين حقيقته فيُعلم هل هو مما ينفع أو يضر؟!

أولاً: زهد الناس عموماً وطلاب العلم خصوصاً في العلم الشرعي المبني على الكتاب والسنة ؛ لأن من داوم النظر في الجرائد والمجلات وشبه ذلك صَعُبَ عليه بعد ذلك النظر في العلوم الشرعية.

ثانياً: ضياع منهج أهل السنة والجماعة ، فليس هناك فرق بين السنة والبدعة بحجة تحصيل المصلحة العامة.

ثالثاً : شغل أوقات طلبة العلم عما هو أهم وأجدر.

رابعاً : ضعف عقيدة الولاء والبراء عند كثير ممن ينتسب إلى هذا الفقه ، وصوره كثيرة، منها: الاستعانة ببعض الهيئات الكافرة من غير أن يكون هناك ضرورة أو مصلحة راجحة، وإيصال بعض المعلومات المكذوبة عن البلاد الإسلامية إلى وسائل الإعلام الكافرة بغية الضغط على حكومات هذه الدول ونشر الخلافات الداخلية خارج البلاد الإسلامية وتضخيمها. وللأسف فإن الكثير من الدعاة على هذه الشاكلة، وهذا من الخيانة وعدم النصح.

خامساً: إدخال الناس الوسائل الهدّامة بشتى أنواعها إلى منازلهم بحجة فقه الواقع، وجعل ذلك من الواجبات الشرعية؛ وهذا مما يعقد التعامل مع هذه المشكلة.

سادساً : التفاف الناس إلى غير العلماء وهذا مشاهد.

سابعاً : تقسيم الأمة ، وإحداث التصدع ، وتشتيت الكلمة ؛ لأن الآراء في مثل هذا المجال تضطرب ويضاد بعضها بعضاً.

ثامناً : كثرة النظر في منشورات الكفار ، والاستماع إليهم ، وهذا مظنة الخديعة؛ ومن داوم النظر في شيء تأثر به.

تاسعاً : ضياع منهج التثبت. ومما يدل على ذلك أن بعض الخطباء إذا سمع كلمة من إحدى وسائل الإعلام ، أو قرأ كلمة فيها ، طار بها على المنبر من غير ما تثبت ، ومن غير نظر في المصلحة العامة.

عاشراً : اختفاء الحدود والضوابط الشرعية في التعامل مع الولاة بحجج أوهى من الواهية. وبالتالي تعليم العامة التجرؤ والتطاول على ولاة الأمور . ويترتب على هذا إيغار صدور العامة على الولاة ، وإيغار صدور الولاة على العامة.

حادي عشر : طرق أبواب الفتنة وإشعال فتيلها ، لأن انهماك الناس في الأمور السياسية مظنة حدوث الفتنة؛ وهو أخطرها.

وغير هذه الآثار كثير؛ ولا يشك عاقل في أن هذه الآثار ليست آثار علم أو فقه نافع، بل هي آثار علم ضار ، والشريعة منـــزهة عن أن تُقرَّ مثل هذا العلم فضلاً عن أن تجعله فرض عين أو كفاية . ورسالة النبي صلى الله عليه وسلم لا تتضمن إلا شيئين هما : العلم النافع ، والعمل الصالح كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ **[الصف : ٨٩]**.

ثم إنه لو سلم للدكتور بأن هذا الفقه هو من فروض الكفاية.

فنقول : إنّا والحمد لله تحت دولة مسلمة مأمونة الجانب على الإسلام وأهله، وهي لم تغفل عن هذا الجانب، بل لها عناية كبيرة بمثل هذه المسائل والوزارات التي

تقوم بهذه المهام معروفة ، ولا يخفى أمرها على أحد. وهي تحمل الصفة الشرعية ؛ لأنها مخوّلة من قبل إمام المسلمين.

فإن شكَّ في ذلك موسوس ، ولم يقبل ما قلناه من جهة الدولة ، فنقول له: أليس لدينا في هذه البلاد علماء ربانيون يقومون بهذا الواجب؟ فيسقطون الفرضية عن باقي الأمة؟ الجواب بلى ، والحمد لله ، ولا يشك في هذا إلا جاهل.

فهيئة كبار العلماء حفظهم الله فيهم السداد والكفاية.

وكما أنه سقط بوجودهم فرض تعلم كثير من المسائل الشرعية فكذلك يسقط بوجودهم تعلم هذا الفقه إن كان من فروض الكفاية؛ ومثلهم لا يجهل أن فروض الكفاية من العلوم الشرعية.

وأظن الدكتور ناصر يوافق على ما قلت ، وإلا فإنه سينقض كلامه في أول الرسالة الذي يقول فيه : "أقدم هذه الرسالة المختصرة لمشايخي الفضلاء من علماء الأمة ؟ الذين حملوا أمانة العلم والرسالة اعترافاً بفضلهم وجهادهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، يبصرون الأجيال ويصدعون بكلمة الحق ، ينطلقون من عقيدة صافية وعلم غزير ، ووعي بالواقع المعاصر !!! "

وقبل أن أنتقل إلى نقطة أخرى أذكر بأن الدكتور عندما قال إن (فقه الواقع) فرض كفاية قد تجرد من العلم والورع ، ذلك أن العلماء من سلف هذه الأمة كانوا أورع ما يكونون عند الحديث عن أحكام الشريعة فلا يطلقون الفرض إلا على ما أطلق الله عليه ومثله الحرام . قال ابن رجب رحمه الله في جامع العلوم والحكم : "فأما الفرائض فما فرضه الله على عباده وألزمهم القيام به كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وقد اختلف العلماء رضي الله عنهم هل الواجب والفرض بمعنى واحد أم لا؟ فمنهم من قال هما سواء ، وكل واجب بدليل شرعي من كتاب أو سنة أو إجماع أو غير ذلك من أدلة الشرع فهو فرض وهو المشهور عن أصحاب الشافعي وغيرهم ، وحكي رواية عن أحمد قال : كل ما في الصلاة فهو فرض . ومنهم من قال : بل

الفرض ما ثبت بدليل مقطوع به ، والواجب ما ثبت بغير مقطوع به وهو قول الحنفية وغيرهم. وأكثر النصوص عن أحمد يفرق بين الفرض والواجب؛ فنقل جماعة من أصحابه عنه أنه قال : لا يسمى فرضاً إلا ما كان في كتاب الله تعالى ، وقال في صدقة الفطر ما أجترئ أن أقول إنها فرض مع أنه يقول بوجوبها ، فمن أصحابنا من قال : إن مراده إن الفرض ما يثبت بالكتاب والواجب ما يثبت بالسنة . ومنهم من قال:أراد أن الفرض ما ثبت بالاستفاضة والنقل المتواتر ، والواجب ما ثبت بالاجتهاد وساغ الخلاف في وجوبه. ويشكل على هذا أن أحمد قال في رواية الميموني في بر الوالدين: ليس بفرض ولكن أقول واجب ما لم تكن معصية.

وبر الوالدين مجمع على وجوبه ، وقد كثرت الأوامر به في الكتاب السنة. فظاهر هذا أنه لا يقول فرض إلا ما ورد في الكتاب والسنة فرضاً. ثم ذكر رحمه الله اختلاف العلماء من السلف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل يسمى فريضة أم لا ؟"

ثم قال: "واختلف كلام الإمام أحمد فيه هل يسمى واجباً أم لا ؟ فروى عنه جماعة ما يدل على وجوبه . وروى أبو داود في الرجل يرى الطنبور ونحوه أواجب عليه تغييره ؟ قال : ما أدري ما واجب إن غيره فهو نفل". ثم علل ابن رجب ذلك بقوله: "ولعل أحمد يتوقف في إطلاق الواجب على ما ليس بواجب على الأعيان بل على الكفاية".

ثم ذكر رحمه الله اختلاف العلماء في الجهاد هل هو واجب أم لا ؟ فذكر القولين، وحمل قول القائلين بالوجوب على أنهم يريدون وجوبه على الكفاية.

ثم قال: "وسأل المروزي أحمد عن الجهاد أفرض هو ؟ فقال : قد اختلفوا فيه وليس هو مثل الحج. وسئل عن النفير متى يجب ؟ فقال : أما إيجابه فلا أدري ، ولكن إذا خافوا على أنفسهم فعليهم أن يخرجوا".

وذكر بعد ذلك قول الإمام أحمد : "إنه لا فرض إلا ما في القرآن".

قلت: وسواء كان كلام الإمام في تلك المسائل حقيقة أو تورعاً فإن الاحتجاج به قائم كما لا يخفى . وقد حمله أصحابه على الحقيقه وبنوا عليه في المسائل الأصولية.

وإذا كان العلماء اختلفوا في الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل هما واجبان أم لا ؟ مع ما جاء فيهما من الأوامر الصريحة في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، فكيف بقولهم في هذا الفقه المدَّعى الذي لم يرد فيه نص صريح ولا غير صريح لا من الكتاب ولا من السنة ولا غير ذلك مما تقوم به الحجة الشرعية كدخوله تحت القواعد الكلية العامة ، أو دخوله بطريق الفحوى والتنبيه أو من طريق مفهوم الموافقة أو المخالفة.

وليعلم أن الله يقول ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ **[الأنعام : ١١٩]**

فكما أنه فصل لنا ما حرم علينا فكذلك قد فصل لنا ما افترض علينا بمفهوم المخالفة. وقد جاء ذلك صريحاً في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها**) [(١)]. وهذا يؤكد على أن ما ليس عليه نص في القرآن والسنة مقطوعاً به لا يسمى فرضاً.

ولو تأمل الدكتور قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**يوشك أن يأتي زمان يغربل فيه الناس غربلة وتبقى حثالة من الناس ، قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا – وشبك بين أصابعه – قالوا : كيف بنا يا رسول الله ؟ قال :تأخذون ما تعرفون،وتدعون ما تنكرون،وتقبلون على أمر خاصتكم،وتذرون أمر عامتكم**) [(٢)].

---

(١) أخرجه الدار قطني (١٨٣/٤) والطبراني في الكبير (٥٨٩/٢٢) والبيهقي (١٢/١٠).

(٢) أخرجه أحمد (٧٠٦٠) وأبو داود (٤٣٤٣) والحاكم (٤٣٥/٤) وصححه الألباني.

وفي لفظ آخر: (**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم وكانوا هكذا – وشبك بين أصابعه – فالزم بيتك ، واملك عليك لسانك وخذ بما تعرفه ، ودع ما تنكر ، وعليك بأمر خاصة نفسك ، ودع منك أمر العامة**) وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شغف الجبال ، ومواقع القطر ، يفر بدينه من الفتن**) [1].

ولو كان هذا الفقه المدعى والذي من مقوماته النظر في الصحف والمجلات وغير ذلك مما ذكر من لوازم لا إله إلا الله ومن فروض الكفايات ، لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم من أدرك آخر الزمان أو عند اشتداد الفتن بلزوم البيت والاشتغال بخاصة النفس ولما امتدح العزلة التي فعلها كثير من السلف ، وعلى فكر الدكتور فإن الحاجة إلى هذا الفقه وقت الفتن أكبر ومع ذلك لم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم بل أمر بالعزلة.

وأخيراً تأمل أن قوله إنه فرض كفاية يناقض قوله إنه من لوازم لا إله إلا الله إذ لا يتصور هذا.

وتأمل أن الدليل الذي استدل به من القرآن على وجوبه إنما هو بضد ما يقول كما أثبتنا ذلك سابقاً ، فكيف يجرؤ بعد ذلك ويقول إنه فرض كفاية. وإذا كان الجهاد لا يتوقف عليه كما هو ظاهر فلا يمكن أن يأخذ حكم الجهاد الذي هو فرض كفاية عند الجمهور.

وفي ص (٢١) قال :

[**على طالب العلم ، أن يدرك أن من أسباب تخلف الأمة في عصرها الحاضر جهلها بواقعها ، وغفلة بعض طلاب العلم عما يكيده الأعداء ويخططون له. فالمنافقون وأسيادهم ينقضون الإسلام عروة عروة – ضمن تخطيط محكم رهيب – ونحن في غفلة من استبانة سبيل المجرمين حتى استحكمت العلمنة في كثير من بلاد المسلمين**].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن – باب التغرب في الفتنة .

أقول وبالله التوفيق :

قول الدكتور : إن من أسباب تخلف الأمة في عصرها الحاضر هو جهلها بواقعها كلام غير صحيح لأنه لم يبيّن معتمده في هذا القول ،وهو لا يتعدى أمرين: إما معتمد شرعي وهو عبارة عن الأدلة الشرعية، أو معتمد عقلي مبني على السبر والملاحظة.

أما الأول : فبعيد ؛ لأنه لا يوجد دليل شرعي ينص على أن من أسباب تخلف الأمة جهلها بواقعها، والمصدران : الكتاب ، والسنة محفوظان ، ولله الحمد . وأما إن كان اعتماده في هذا القول على العقل والسبر فهذا لا يكفي بل لابد من مستند شرعي. ولو كان جهل الأمة بواقعها سببًا رئيسًا[1] من أسباب تخلفها لما أغفلت الشريعة مثل هذا الأمر لأهميته ولأنه متعلق بمصلحة الأمة جميعاً .

والغريب أن للدكتور ناصر محاضرة بعنوان "أسباب تخلف المسلمين" وهي مسجلة على شريط تحت هذا العنوان ، لم يذكر فيها أن من أسباب تخلف المسلمين جهلهم بواقعهم!! على الرغم من قصر الزمن بين المحاضرتين!! أما أسباب ضعف المسلمين فهي معروفة ، ولا تكاد تخفى على أحد وهي تعود إلى سببين رئيسيين هما: الجهل في دين الله، والثاني : الإعراض عن دين الله.

وقد ألقى سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز محاضرة بعنوان " أسباب ضعف المسلمين أمام عدوهم ووسائل العلاج لذلك" [2].

ولم يذكر فيه أن من أسباب تخلف المسلمين جهلهم بواقعهم ، وهو من المعاصرين للدعوة لفترة ليست بالقصيرة. وهو أيضاً ممن وصفهم الدكتور بالفقه في الواقع.

---

(١) انظر ص (٩) من كتاب فقه الواقع.

(٢) محاضرة ألقاها سماحة الشيخ ابن باز – رحمه الله – في ندوة الجامع الكبير بالرياض بتاريخ ٢٩/٥/ ١٣٩٩هـ.

وقد أحال الشيخ ابن باز أسباب تخلف المسلمين إلى السببين المذكورين سابقاً. فقال في محاضرته – رحمه الله – : "وترجع أسباب الضعف والتأخير وتسليط الأعداء إلى سبب نشأت عنه أسباب كثيرة وعامل واحد نشأت عنه عوامل كثيرة. وهذا السبب الواحد والعامل الواحد هو : الجهل ، الجهل بالله وبدينه وبالعواقب التي استولت على الأكثرية فصار العلم قليلاً والجهل غالباً".

وقال أيضاً : " فالجهل داء عضال يميت القلوب والشعور ويضعف الأبدان والقوى ويجعل أهله أشبه بالأنعام لا يهمهم إلا شهوات الفروج والبطون، وما زاد على ذلك فهو تابع لذلك من شهوات المساكن والملابس . فالجاهل قد ضعف قلبه وضعف شعوره وقلت بصيرته ، فليس وراء شهوته الحاضرة وحاجته العاجلة شيء يطمح إليه ويريد أن ينظر إليه".

وقال أيضاً : "فالداء واضح وبيّن وهو مكون من عدة أدواء نشأت عن الجهل والإعراض والغفلة حتى صار الموت مرهوباً والدنيا مؤثرة ومرغوباً فيها وغدا الجهاد شبحاً مخيفاً لا يقبله إلا القليل ... " إلى آخر ما قال رحمه الله.

وليس مقصودنا هنا ذكر أسباب ضعف المسلمين وشرحها ؛ لأن ذلك يطول ويحتاج إلى مصنف خاص . ولكن أردنا التنبيه على أن ما ذكره الدكتور غير صحيح في هذه المسألة . والله أعلم.

وفي الصفحة نفسها قال :

[انشغل بعض طلاب العلم والدعاة في قضايا مهمة – ولا شك – ولكنهم غفلوا عن قضايا أكثر أهمية ، ومنها فقه الواقع . فخلا الجو لأعدائنا وأصبحوا كما قال الشاعر ....].

قلت وبالله التوفيق :

إن المتأمل في الكلام السابق للدكتور يستطيع أن يقدر مدى بعده عن علوم الشريعة الصحيحة . وهو كثيراً ما يتكلم بمنطق العقل ، لا بمنطق الشرع وإن كان

عتبي على الدكتور في مقولته هذه مرّة، فعتبي على من يقرّه عليها من أهل العلم في هذا البلد ألف مرة. وأنا أظن أن مثل هذا الكلام لا يستطيع أحد أن يخرجه في نجد قبل مدة من الزمن ليست بالبعيدة، يوم كان زاخراً بالفطناء من أهل العلم [1].

ولا بد هنا من ذكر مقدمتين مهمتين ، الأولى عن الشباب والأخرى عن الأمور التي تشغل الشباب.

فأقول :

إن الشباب في هذه البلاد ينقسمون إلى قسمين : قسم منهم شغلوا أنفسهم وأوقاتهم بأمور لا تنفع في الدنيا ولا في الآخرة ؛ بل مضرتها في الدنيا والآخرة متحققة . فتجدهم مكبين على قراءة الصحف والمجلات والدوريات والتقارير ، ومتتبعين للأخبار السياسية في الإذاعات والتلفزيونات . وصارت هذه الأمور المذكورة هي شغلهم الشاغل وديدنهم في المجالس والاجتماعات ولا يعلمون من الدين إلا فروض الأعيان.

وهؤلاء لا يصدق عليهم أنهم طلاب علم ؛ بل هم دخلاء على العلم وأهله، وهم متحقق فيهم ما يريده الدكتور.

والقسم الآخر من الشباب هم بعكس سابقيهم، وهم الذين وجه إليهم الدكتور انتقاده بقوله: " انشغل بعض طلاب العلم والدعاة بقضايا مهمة ، ولكنهم غفلوا عن قضايا أكثر أهمية منها فقه الواقع" وإذا تأملت وجدت أن هذا القسم من الشباب هم الذين يصدق عليهم أنهم طلاب علم إنما يشغلهم كتب العقيدة ، وكتب الحديث والتفسير ، وحضور الدروس العلمية ، وتتبع أقوال العلماء ، والجد في طلب العلم.

فإذا عرفنا أقسام الشباب وما يشغل كل فريق منهما ؛ تسنى لنا معرفة أيهما على المنهج الصحيح ، وأيهما المخالف . والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا هو أيهما أفضل وأشرف: علم الشريعة أم هذيان وسفسطة وسائل الإعلام ؟

---

(١) هـذا لا يمنع من وجود بعض العلماء الذين أنكروا هذا الفقه ، ولكن لم يعط الموضوع حقه من الاهتمام ، والله أعلم.

أظن الإجابة بدهية ومعروفة ؛ بل لا يجوز أصلاً عقد مقارنة بين علم الشريعة وغيرها من العلوم. ولكن الدكتور تناسى هذه الحقيقةالثابتة ، فجار في حكمه ، وجعل علم السياسة وهذيان وسائل الإعلام أفضل من علم الشريعة وأكثر أهمية منه وذلك بقوله: " انشغل بعض طلاب العلم والدعاة في قضايا مهمة – ولا شك – ولكنهم غفلوا عن قضايا أكثر أهمية ، ومنها[1] فقه الواقع".

ولا شك أن حكمه هذا ناشئ عن الجهل والهوى . نسأل الله العافية . وكلامه هذا لا يقل خطورة عن كلام محمد سرور زين العابدين[2] ؛ لأن النتيجة واحدة ، وهي تفتير طلاب العلم عن طلب العلم الشرعي ، وشغلهم عنه بقضايا الجهل بها لا يضر والعلم بها قد ينفع وقد لا ينفع وقد يضر أيضًا .

ومما لا شك فيه أنه متى ما تأثر المنهج الصحيح في هذه البلاد بمثل هذه الأفكار ؛ فإن ذلك سوف يؤثر على جميع البلاد الإسلامية؛ لأن علم الشريعة الصحيح إنما ينتشر من هذه البلاد يحفظها الله من كل سوء ، وخصوصاً ما يتعلق بالتوحيد والعقيدة .

وأرجو أن لا يكون الدكتور قد انزلق مع القائلين: إن المخرج الوحيد للأمة الإسلامية من أزمتها هو الحل السياسي ؛ فإن هذا القول باطل ؛ بل المخرج الوحيد للأمة من أزمتها الحالية هو الرجوع إلى الإسلام . وقد اعترف – أحدّ دعاة الإصلاح السابقين الذين كانوا يعتقدون أن المخرج هو الحل السياسي – بفشل هذا الحل نهائياً وهو محمد عبده بعد تجوال طويل له مع الحل السياسي انتهى إلى اعترافه بأن الحل السياسي المزعوم هو مجرد تسطيح بل تعقيد للمشكلة الحاضرة البالغة التعقيد ، والمتراكمة أمراضها منذ قرون عديدة ، فأعلن سخطه ولعنه وتبرأه من السياسة ومن لفظ السياسة ، ومن (ساس – يسوس – سياسة) ومن كل ما يشتق من السياسة.

---

(١) قوله: " ومنها " يدل على أن هناك أشياء أخرى أكثر أهمية من علم الشريعة.

(٢) وهو وصفه لعلم العقيدة بأوصاف منفرة ولكن علماءنا قاموا بالرد عليه والحمد لله.

وقد أدرك ذلك أيضاً الأستاذ حسن البنا - رحمه الله تعالى - فوجه حديثاً إلى الإخوان قائلاً : " إنكم لستم حزباً سياسيّاً ، ولستم هيئة اجتماعية ولستم مؤسسة دينية ، ولكنكم روح يسري في الأمة فيحييها بالقرآن ".

وكذلك أدرك الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله تعالى - هذه الحقيقة فراح يبني الكتاتيب ، ويبث الروح في القرى والبوادي وجذور المجتمع الجزائري ، لِيُحْيِي ضمير الأمة ذاتها ، تاركاً صخب الأحزاب السياسية وراء ظهره ، متخذاً شعاره الإصلاحي الجاد ،من الآية القرآنية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١].

ومن ثم؛ فإن هيمنة التصور السياسي على نشاطات الإصلاح من شأنه أن يفسدها ، ويقطع الطريق عليها ويفرغ طاقتها في مسارات جانبية مسدودة أو ذاهبة إلى الهدر [1].

ولعل من المناسب أن أشير إلى قضيتين مهمتين :

القضية الأولى: هي قضية الحاكمية المزعومة ، التي تورط فيها كثير من الجماعات الإسلامية لظنهم أنها المخرج للأمة الإسلامية مما هي فيه.

وما علم أولئك أن منهج الحاكمية يخالف منهج جميع الأنبياء والرسل ، عليهم الصلاة والسلام، في الدعوة إلى الله . وهذا الأمر يتبين لمن كان عنده علم بسيرهم الدعوية عليهم الصلاة والسلام.

الأمر الثاني: أن هذه الجماعات لو تدبرت قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ

---

(١) انظر كتاب جذور الإنحراف في الفكر الإسلامي لجمال سلطان ، ص : (١٤٢-١٤٨).

قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور : ٥١-٥٥].

انظر كيف وصف سبحانه وتعالى المؤمنين بأنهم يستجيبون إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بقولهم سمعنا وأطعنا ، ثم بعد ذلك حثهم على طاعة الله ورسوله وخشيته وتقواه سبحانه وتعالى ثم نهاهم عن القسم ؛ لأنه خبير بما يعملون ولأن قسمهم قول لا فعل ثم عاد سبحانه وتعالى وأمرهم بطاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام وبيّن لهم أن الهداية في طاعته بقوله :﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ﴾

فإذا حصل التحاكم إلى الله ورسوله عن طريق الكتاب والسنة ، ووجدت الطاعة لله ورسوله ،وتوافرت الخشية والتقوى ، وزاد الإيمان ، وكثرت الأعمال الصالحة؛أتى وعد الله ، وهو الحق ووعده الحق. قال تعالى: : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠] ، وهو لا يخلف الميعاد كما قال:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [الرعد : ٣١]. ووعده سبحانه وتعالى لهم، هو أن يستخلفهم في الأرض وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ،وأن يبدلهم من بعد الخوف أمناً ومن بعد جحيم الشرك والعصيان نعيم التوحيد والإيمان نسأل الله المزيد من فضله . فهل نحتاج بعد هذا البيان وهذا الوعد شيئاً . إن الله سبحانه وتعالى بين مراده من خلقه في كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام ، وما على العباد إلا معرفة مراده سبحانه وتعالى والعمل بما يرضيه وهو المتكفل سبحانه وتعالى بأن يحييهم حياة طيبة.

الأمر الثالث: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسلك ذلك المنهج منهج الحاكمية في دعوته، بل كانت دعوته منذ بدايتها دعوة عامة ، آمن به الحر والعبد والصغير والكبير والمرأة والرجل. وقد كان متاحاً للرسول عليه الصلاة والسلام أن يسلك ذلك المنهج ولكنه خالفه ، واتبع منهج من كان قبله من الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم إلى الله . وذلك يتبين بما يأتي :

أن قريشاً قالت للرسول عليه الصلاة والسلام: إن كنت تطلب مالاً جمعنا لك من المال حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كانت تطلب الشرف فينا سودناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا .(هذا هو الشاهد) فماذا كان جوابه ؟

قال عليه الصلاة والسلام : **(ما بي ما تقولون : ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)** [1].

ولو كان الله سبحانه وتعالى يريد لهم هذا المنهج لأرسل الرسل وهم ملوك، أو مكنهم من الملك ثم أرسلهم.

ولكن الأمر ليس كذلك، بل ما من رسول إلا وقد رعى الغنم قبل

---

(١) انظر البداية والنهاية (٤٨/٣) طبعة الريان وأصله في السيرة لابن هشام .

قال السيوطي في الدر المنثور ، أخرجه ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وقال في كتاب أسباب النـــزول: أخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير في قوله : (وقالوا لن نؤمن لك) قال: نـــزلت في أخي أم سلمة : عبد الله بن أمية ، وقال عن الحديث مرسل صحيح شاهد لما قبله ، يجبر المبهم في إسناده . والذي قبله هو الحديث المذكور أصلاً.

وانظـــر كذلـــك تفسير ابن كثير ، وابن الجوزي ، والقرطبي، والبغوي ، وابن جرير عند تفسير قوله تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك) (الإسراء : ٩٠).

ويستأنس بهذه القصة ، وإن كان سندها ضعيفاً لكثرة من نقلها.

الرسالة،كما ثبت في الحديث الصحيح وكذلك ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام قال: **يا محمد ، أرسلني إليك ربك ثم قال : أفملكاً نبيّاً يجعلك ، أو عبداً رسولاً ، قال جبريل تواضع لربك يا محمد : قال عبداً رسولاً** [1].

لذلك فإن من سلك منهج الحاكمية في الدعوة إلى الله ، فقد خالف سنن الله الشرعية والكونية.

أما مخالفته للسنن الشرعية فقد بينا شيئاً من ذلك وسيأتي أيضاً.

وأما السنن الكونية، فإن الناظر إلى مسارات تكون الدول قديماً وحديثاً، يجد أن الجماعات الإسلامية أخذت مساراً يختلف بشكل كبير عن تلك المسارات سواءً المسارات القديمة البسيطة غير المعقدة أو المسارات الحديثة الأكثر تعقيداً. ولاشك أن المسار الإسلامي في تكوين الدولة له خصوصيته الشرعية غير أنه يشترك مع تلك المسارات في كثير من النواحي العقلية والاجتماعية التي هي من لوازم التجمعات الإنسانية. والذي جعلنا نقول إن الجماعات الإسلامية أخفقت في تحقيق دولة إسلامية على أيٍّ من المسارين الشرعي والكوني، أنه جاءت جماعات كثيرة ذات مبادئ تختلف مع الطبيعة البشرية كمبادئ الاشتراكية، ومع ذلك نجحت في إقامة عشرات الدول في أنحاء العالم تقوم على أساس تلك المباديء ، وأما إخفاقهم في المسار الشرعي يتبين من خلال طول المدة الزمنية التي عملوا فيها ومع ذلك لم تتحقق الدولة الإسلامية،وبالمقابل تأمل كيف قامت الدولة الإسلامية الأولى خلال عقد ونيف وما أتمت عقدين إلا وقد أزاحت أكبر الدول من طريقها وتفردت بالسيطرة على العالم في تلك الحقبة مع صعوبة الحال . وكما مر فإن الله لم يجعل محمداً صلى الله عليه وسلم ملكاً رسولاً وكما أن الشريعة نزلت بالتدرج فكذلك الدولة تكونت بالتدرج. وهذا لا ينافي أنها أسرع دولة تكونت في تاريخ البشر.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٧١٦٠) قال أحمد شاكر:إسناده صحيح، وقال المنذري في الترغيب (١٩٦/٤)، رواه ابن حبان في صحيحه ، والطبراني ، والبيهقي في الزهد ، وقال : إسناد الطبراني حسن.

ولكي تتكون أي دولة لابد لها من أرض وشعب ومبدأ أو (نظرية) وسلطة حاكمة ، ولذلك فإن اليهود قبل إعلان دولتهم اغتصبوا أرضاً ثم أوجدوا الشعب فيها بالتهجير إليها ثم بثوا فكرة الصهيونية وقاموا بتعزيزها؛ وبعد ذلك تكونت الحكومة ثم أخيراً الإعلان عن قيام دولة صهيون . ولا شك أن اليهود أمة مغضوب عليها ومع ذلك مُكن لهم لإجادتهم العمل.

وإذا كان هناك كيان كبير مثل الكيان الإسلامي سابقاً فإن الانفصال عنه وتكوين كيان أصغر مستقل يحمل اسم دولة فإن ذلك يعتمد على بث مبدأ ما بين الناس حتى يتم إقناع طائفة معقولة من الناس تكون قادرة على الانفصال.

وعلى هذا الأساس قامت الدول الشيعية والباطنية في التاريخ الإسلامي وحتى الثورة الحديثة في إيران.

وللأسف فإن أكبر الجماعات الإسلامية في العالم على الإطلاق وهم جماعة الإخوان المسلمين لم تنجح في البلد الذي نشأت فيه مع توافر الأرض والشعب والدين (المبدأ) الذي حطم الفوارق العرقية والجنسية والطبقية - وهذا أكبر مسبب للانقسامات - ووحد الفكر واللغة وكذلك جاء بالنظام الاقتصادي والاجتماعي والتشريعي .

ولكن انشغال الجماعة في مسارات جانبية حال بينها وبين تفعيل الدين في أوساط الشعب. ولو أن الجماعة جعلوا هذا الأمر هو الهم الأكبر فصححوا عقائد الناس بتعليمهم التوحيد الخالص وتبعاً لذلك معاملاتهم وأخلاقهم لتمكنوا من إقامة دولة إسلامية في فترة وجيزة جداً.

وقد اقتصر جهدهم على تكوين جماعة ضاغطة على الدولة دون إيجاد شعب ضاغط ومؤثر عليها.

وعندما عجزوا عن إقامة دولة في منشأ الجماعة صدروا أفكارهم إلى بلاد أخرى وكان تركيزهم على البلاد التي تحكمها حكومات ضعيفة إما بسبب حرب أو

غيرها. وقد سجل عجزهم أيضاً في تلك البلاد وكان عدم العلم والإخلاص هما السبب الرئيسي في عدم نجاحهم وكما قيل: فإن الهرم لا يبنى من أعلاه والله أعلم .

أما القضية الثانية: التي أحببت الإشارة إليها فهي مسألة الدعوة السرية، لأن لها علاقة كبيرة بمنهج الحاكمية [1].

وحجة الذين يمارسون هذه الدعوة، أنهم يشبهون واقعنا المعاصر بالعهد المكي والفترة الأولى من دعوته عليه الصلاة والسلام.

وقد تكلم كثير من العلماء عن هذه الدعوة ، وبينوا أنها لا تجوز وفرقوا بين العهدين العهد المكي والعهد الحاضر.

ولكن إذا تأمل الإنسان سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، واستعرض النصوص وتدبر أسباب نزول الآيات في بداية مبعثه عليه الصلاة والسلام تأكد أنه لم يمارس الدعوة السرية قط، ولم يتخذها منهجاً في دعوته لربه عز وجل. والأصل التوقيف فمن أراد أن يتخذها منهجاً فليأت بالدليل.

وفي هذه العجالة سوف أتكلم عن هذه المسألة وسأورد الشبه التي يستدل بها من قال أن الرسول صلى الله عليه وسلم مارس الدعوة السرية.

وقبل هذا سأقدم مقدمة يسيرة عن دعوته عليه الصلاة والسلام.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥-٤٧].

قال ابن الجوزي – رحمه الله –: "شاهداً أي على أمتك بالبلاغ. ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ بالجنة لمن صدقك . ﴿ نَذِيرًا ﴾ أي : منذراً بالنار لمن كذبك. ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾

---

(١) هناك جماعتان تنتهج منهج الحاكمية في إقامة الدولة الإسلامية، الأولى ترى وجوب السرية وأنها جزء من منهجها والأخرى لا ترى ذلك كجماعة التكفير والهجرة.

أي: إلى توحيده وطاعته ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ أي : بأمره ؛ لا أنك فعلته من تلقاء نفسك". [1]

فإذا ثبت أن الدعوة إنما هي بإذن الله وبأمره وليست مما يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم من تلقاء نفسه، فإنه أيضاً من غير المعقول أن الله يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يبين له كيف يدعو وفي الوقت نفسه أيضاً يستحيل أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، يحدث في أمر الدعوة شيئاً من تلقاء نفسه[2]، وهو الذي وصفه الله بقوله: : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

إذاً فأين الدليل الذي يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة السرية؟

بينما نجد الدليل على الجهر بالدعوة في قوله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤].

ولهذا نقول: إنه لو كان هناك دعوة سرية لوجد لها دليل كما وجد للدعوة الجهرية دليل.

ويستحيل أن يقال إن الأصل في الدعوة - وخصوصاً دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام - السرية ؛ لأن ذلك يخالف مفهوم الرسالة ومعناها.

وفي قوله سبحانه وتعالى :﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾دليل على أنه منذ مبعثه عليه الصلاة والسلام وهو سراج منير ؛ لأنه بعث في فترة قد أظلمت من الشرك. ثم هو بيّن واضح يراه كل أحد كالسراج المنير ، ومن أنكر النور الذي جاء به ؛ فإنما هو من باب العناد والمكابرة.

ومن تدبر قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

---

(١) إن الآية وإن كانت مدنية فهي عامة في جميع مراحل دعوته.

(٢) وسيأتي أنه عليه الصلاة والسلام مكث في مكة ثلاث عشرة سنة ، ولم يهاجر حتى أمر بذلك كما جاء في الحديث الصحيح.

لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩]. علم أن دعوته لم تكن صلى الله عليه وسلم في يوم ما سرية.

ومن الأدلة التي يستدل بها القائلون بوجوب الدعوة السرية أو استحسانها على الأقل ، ما يأتي :

١- قال ابن إسحاق: "دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به ، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاء منه ، وأن يبادي الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ، وكان بين ما أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين ، فيما بلغني من مبعثه"[١].

وهذا في الحقيقة ليس دليلاً ؛ لأن كثيراً من المحدثين توقفوا في قبول روايات ابن إسحاق ، وإن خلت من التدليس وصرح فيها بالسماع فيكف ببلاغاته .

ومثل ذلك لا يصلح أن يكون دليلاً كما هو ظاهر ومع هذا يمكن أن يجاب عنه فيقال:

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بإظهار الدعوة حين ذاك فلما أُمر أظهرها وبلغهم إياها.

فتبين أنه لم يكن مخفياً دعوته ؛ بل لم يؤمر بإظهارها بعد وهذا كله لم يكن باجتهاد منه.

٢- أخرج الإمام مسلم في قصة إسلام عمرو بن عبسة قوله : (**كنت ، وأنا في الجاهلية ، أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان. فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً. فقعدت على راحلتي فقدمت عليه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً ، جرءاء عليه قومه**)[٢].

---

(١) انظر ابن هشام ص (٢٧٤) . طبعة دار الفكر.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ،كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها.

وهذه القصة ، وإن كانت صحيحة ، فليس فيها دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو إلى الإسلام سرّاً . بدليل أن عمرو بن عبسة يقول : سمعت برجل بمكة يخبر أخباراً فقعدت على راحلتي ، فقدمت عليه. وكان عمرو رضي الله عنه خارج مكة قطعاً وسمع بخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه يخبر أخباراً . فكيف يقال إذاً: إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو سرّاً وأمره كان منتشراً خارج مكة فضلاً عن داخلها؟ وقد قيل: إن عمرو بن عبسة رابع أو خامس من أسلم؛ وهذا يدل على أن الدعوة ليست سرية منذ البداية.

فصار هذا دليلاً عليهم ، وليس دليلاً لهم والحمد لله.

وليس في قوله : (**فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً جرءاء عليه قومه**) دليل على السرية. لأمرين :

الأول: أن قومه ما تجرأوا عليه بالأذى إلا أن أمره ودعوته كانت ظاهرة.

الثاني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ربما استخفى ببدنه عن قريش ؛ لأنهم كانوا يؤذونه،فقد اجتمعوا عليه مرة وخنقوه وكادوا يقتلونه. ونظير ذلك تخفيه في غار ثور حين الهجرة. وليس ذلك دليلاً على أنه كان يدعو سرّا. بل ورد في آخر حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه (**وقد أراد قومه قتله فلم يستطيعوا**) فتخفيه كان من هذا الباب. ويؤكد ذلك أيضاً أن عمرو بن عبسة ، رضي الله عنـــه ، لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إني متبعك . قال : (**إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالي وحال الناس؟**) [1]. وهذا دليل على أن أذى قريش قد اشتد على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في تلك المدة ، وهذا يوضح أمر استخفائه عليه الصلاة والسلام، وأمر عمرو بأن يرجع إلى قومه لأنه لا يستطيع ذلك، ولم يأمره بالاستخفاء في مكة ؛لأن قريشاً في الغالب سوف تعرف ذلك وستؤذيه.

---

(١) قطعة من الحديث السابق في قصة إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه ، التي أخرجها مسلم.

وفرق بين الدعوة السرية والتخفي من الأعداء عند الحاجة.

٣- أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس ، رضي الله عنهما. قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بمكة قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء، فاسمع من قوله ثم ائتني . فانطلق الآخر حتى قدم مكة وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلام ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني فيما أردت.

فتزود وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدم مكة . فأتى المسجد ، فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه – يعني الليل – فاضطجع. فرآه علي فعرف أنه غريب . فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء . حتى أصبح ، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد . فظل ذلك اليوم ولا يرى النبي ، صلى الله عليه وسلم حتى أمسى . فعاد إلى مضجعه فمر به علي. فقال : أما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه. فذهب به معه ولا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى إذا كان يوم الثالث فعل مثل ذلك فأقامه عليّ معه. ثم قال له: ألا تحدثني ؟ ما الذي أقدمك هذا البلد ؟ قال : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لَترشدني فعلت؟ ففعل . فأخبره . فقال: فإنه حق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء .فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي ففعل . فانطلق يقفوه، حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل معه فسمع من قوله، وأسلم مكانه . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: " **ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري** " **فقال : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم . فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إلا الله . وأن محمداً رسول الله . وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه . فأتى العباس فأكب عليه. فقال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجاركم إلى الشام عليهم . فأنقذه منهم . ثم عاد من الغد بمثلها . وثاروا إليه فضربوه . فأكب عليه العباس فأنقذه** "[1].

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب في إسلام أبي ذر رضي الله عنه.

وقصه إسلام أبي ذر ، رضي الله عنه تشبه تماماً قصة إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه، وقد قيل إن عمرو أخا أبا ذر لأمه . وما يقال هنا هو ما قيل هناك لأن هذا الحديث نال اهتمام الكثيرين ممن يرون السرية في الدعوة. فسوف أتكلم باختصار عن المواضع التي تنقض استدلالهم بهذا الحديث.

١- إن أبا ذر رضي الله عنه ، بلغه أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو في قومه بني غفار فأرسل أخاه وقال له : "اعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء".

فأين السرية في الدعوة ؟ وقد انتشر أمره عليه الصلاة والسلام خارج مكة فضلاً عن داخلها . ثم إن أخاه لما وصل إلى مكة سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال لأبي ذر : " رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر". فأين السرية ؟ وقد سمع الغريب من الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة .

وهنا ملاحظة أن أخا أبي ذر رضي الله عنه قال له كما في بعض الروايات: "وكن من أهل مكة على حذر فإنهم قد شنفوا له وتجهموا له". وما كان ذلك منهم إلا لأنه كان يظهر دعوته.

وقصة إسلام أبي ذر متقدمة جدّاً. حتى قال كثير من أهل السير إنه رابع من أسلم من الصحابة.

٢- إن ما كان من علي ، رضي الله عنه ، من التكتم كان من باب الخوف من أذى قريش لأبي ذر فإنه ورد في بعض الروايات عند الإمام أحمد في المسند أن أبا ذر قال: (**فانطلقت حتى قدمت مكة فتضعف رجل منهم فقال : أين هذا الرجل الذي يدعونه الصابئ ؟ قال:فأشار إلي فمال أهل الوادي علي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشياً عليّ**) [1]. فكان تكتم علي رضي الله عنه ، من هذا الباب.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٤) بسند صحيح وأصله في مسلم.

فالدعوة فيما يظهر كانت جهراً ولكن كون بعض الصحابة يخفي إسلامه فهذا من باب المصلحة الخاصة. وليس في ذلك دليل على السرية في الدعوة. والفرق بين الأمرين أن التخفي من العدو عند الحاجة له أصل في الشريعة، أما الدعوة السرية فليس لها أصل في الشريعة ؛ فإن موسى عليه السلام لما قتل النفس قال الله تعالى واصفاً حاله : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ [القصص : ٢١] أي خرج من مصر طلباً للنجاة . ولما أرسله الله إلى فرعون قال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القصص: ٣٣]. ولم يُنكر عليه سبحانه وتعالى خوفه، ولكنه طمأنه فقال عز من قائل : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل : ١٠].

وتدبر قصة موسى عليه الصلاة والسلام فإن الله أرسله إلى فرعون مباشرة في أول الدعوة مع أنه سبحانه وتعالى ذكر أن أول من يكفر من أهل القرى هم المترفون قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤].

فكيف وقد اجتمع لفرعون الملك والترف والجبروت ومع ذلك أرسل إليه موسى في أول الدعوة فهذه دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، جهرية ليست سرية . ومن تتبع قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام عرف ذلك أيضاً ؛ فإنه بدأ دعوته مباشرة مع قومه ، ولم يكن معه أحد - وهو صغير حين ذاك - قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٢] . فهذه دعوة عامة . ثم أفرد أبيه بدعوة خاصة قال الله تعالى مخبراً عنه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم : ٤٢].

وإذا اجتمعت الدعوة العامة والخاصة ؛ فإن ذلك أبلغ في الحجة ، وهذا جنس ما فعله نوح عليه الصلاة والسلام ، كما ورد في قوله تعالى في سورة نوح : ﴿ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٨-٩].

وهذا لا يعني السرية في الدعوة ؛ بل هو من باب التنوع في الدعوة ومن باب إقامة الحجة العامة والخاصة ، وهذا أبلغ في الدعوة كما قلنا، لأن نوحاً عليه السلام مكث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين، وفي هذه المدة الطويلة نوّع الدعوة ، وأقام الحجة العامة والخاصة على قومه لعلهم يرشدون.

وقد يكون معنى ﴿ جِهَارًا ﴾ الدعوة العامة و﴿ إِسْرَارًا ﴾ الدعوة الخاصة كدعوته لزوجه وابنه فإنهما لم يؤمنا كما أخبر الله عنهم . وأفردهم بالدعوة الخاصة لخصوصية القرب منه ولشفقته عليهم.

ومما يدل أيضاً على أن الاختفاء له أصل في الشريعة عند الحاجة إليه ، ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من الاختفاء في غار ثور أثناء الهجرة لما خشي على نفسه من قريش.

٣- إن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر أبا ذر بالرجوع إلى قومه كما أمر عمرو بن عبسة رضي الله عنهما ولكنه عليه الصلاة والسلام أمر أبا ذر بإخبار قومه. والمعنى: أخبرهم بالإسلام ، وادعوهم إليه ، و لم يأمره بالسرية في الدعوة.

٤- إن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال لأبي ذر : (**ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري**) قال أبو ذر رضي الله عنه : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، و لم ينكر الرسول صلى الله عليه وسلم عليه ذلك . وبالفعل خرج إلى المسجد في مكة، ونادى بأعلى صوته أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فثار عليه القوم وضربوه حتى أضجعوه . فأنقذه العباس منهم ، وفي الغد أعاد ما فعل . فأنقذه العباس منهم ، وفي كلا الحالتين لم ينهه الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

والملاحظ أن الذين يقولون بالدعوة السرية متناقضون في استدلالاتهم أشد التناقض وسبب هذا أنهم اختاروا هذا المنهج واعتقدوه ، ثم صاروا يبحثون عن الأدلة من هنا وهناك.

والذي قرأ التاريخ وسير أهل العلم يعلم تماماً أن هذا المنهج لم يقل به أحد من أهل العلم و لم ينتهجه أحد منهم منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وإلى يومنا هذا. ولكن وجد في التاريخ الإسلامي حركات سرية سياسية وليست دعوية.

ولكي تزول الشبه تماماً في هذه المسألة لابد من معرفة أحواله عليه الصلاة والسلام مع الدعوة في السنوات الأولى من مبعثه . فأقول : لابد أولاً من التفريق بين النبوة والرسالة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بعد كلام له في كتاب النبوات: "والمقصود هنا الكلام على النبوة،فالنبي هوالذي ينبئه الله ، وهو ينبئ بما أنبأ الله به ؛ فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول . وأما إن كان يعمل بشريعة قبله ، و لم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة ، فهو نبي ، ثم نقل قول ابن عباس – رضي الله عنه – فأولئك الأنبياء ؛ يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم . فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم به من الخبر والأمر والنهي" [1] .

ولذلك فإنه يصح أن يقال: كل رسول نبيٌ وليس العكس. فإذا علم هذا فإنا نقول:إن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مرت بمراحل .

الأولى : مرحلة ما قبل النبوة ، وهي مليئة بمقدمات النبوة أو إرهاصات النبوة إن صح التعبير ، وهي كثيرة في كتب الدلائل وهي من جنس ما حصل لموسى وعيسى عليهما السلام . ومدة هذه المرحلة أربعون سنة كلها بمثابة الإعداد للنبوة.

الثانية : مرحلة النبوة ، وتمتد من نزول الوحي عليه في غار حراء ، وقوله له: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ قال : ما أنا بقارئ إلى أن قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ

---

(١) كتاب النبوات ص (٢٨١).

﴿ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥].

وقد سبق هذه الحادثة رؤيا رآها الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام. فقد رأى أن جبريل عليه السلام يغُتُّه ويقول له اقرأ . كما ذكر ذلك ابن إسحاق في السيرة [١] وكانت إعداداً لما سيأتيه في اليقظة وتهدئة لقلبه عليه الصلاة والسلام [٢]. أما غته له في اليقظة فهو كما قال أبو سليمان الخطابي : " إنما فعل ذلك به ليبلو صبره ويحسن تأديبه ، فيرتاض لاحتمال ما كلفه به من أعباء الدعوة " [٣].وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل :٥].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في أول هذه الحقبة يجهل حاله، حتى أخبره ورقة بن نوفل رحمه الله ، أن هذا هو الناموس الذي كان يترل على موسى . فاستأنس بقوله واستبشر، ثم فتر الوحي فشق ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم وبلغ به الحزن مبلغه فخرج إلى رأس شاهق في مكة يريد أن يتردى منه ، فبدا له جبريل ، وقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً .

فسكن جأشه ، وقرت نفسه ، وعلم أنه نبي . وكان كلما فتر عنه الوحي خرج إلى رؤوس الجبال فيطمأنه جبريل فيرجع [٤] . وهذا من باب التشويق والتحفيز ورفع الهمة،والأظهر أنه لم يترل عليه من سورة العلق في بداية الأمر إلا الآيات الخمس الأول ؛ لأن قوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦] نزلت في أبي جهل عندما هم أن يؤذي الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهو في

---

(١) السيرة لابن هشام ص (٢٤٥).

(٢) وهذا القول هو لعلقمة بن قيس كما نقله عنه الحافظ أبو نعيم الأصبهاني . انظر: البداية والنهاية (٤/٣)

(٣) انظر : البداية والنهاية (٩/٣).

(٤) انظر: القصة في صحيح البخاري ، كتاب التعبير ، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي مسند الإمام أحمد (٢٥٩٤٨).

الصلاة[1]. وهذا في فترة لاحقة عندما أظهر الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، الصلاة في المسجد.

وبعد أن تيقن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، أنه نبي وتتالى الوحي عليه وانتشر أمره آمن به المقربون وهم : خديجة زوجته ، وأبو بكر صديقه وخليله ، وعلي ابن عمه ويعيش في بيته، وزيد مولاه.

وهؤلاء آمنوا بمجرد أن سمعوا خبر الرسول صلى الله عليه وسلم وعلموا أمره، فرضي الله عنهم أجمعين وألحقنا بهم في جنات النعيم؛ وهذه فترة نبوة لم يؤمر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بمواجهة الكفار . وقد عرفناك الفرق بين النبوة والرسالة سابقاً . وقد ورد في مسند الإمام أحمد عن عامر الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشيء ، ولم ينزل القرآن ، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل فنزل القرآن[2]. فالله اعلم.

وهذه الفترة هي التي ظُن أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا بها سرّاً بينما الأمر ليس كذلك.

الثالثة : مرحلة الرسالة ، وقد بدأت منذ أن أنزل الله عليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١-٢].

وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر أن أول شيء نزل من القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾ ،والمقصود بحديث جابر أن هذه السورة أول شيء نزل من القرآن بعد فترة الوحي، كما ثبت في أحاديث صحيحة منها الحديث الذي رواه

---

(١) ذكرنا القصة مختصرة وإلا فالأصل في صحيح مسلم ،كتاب صفات المنافقين، باب قوله (إن الإنسان ليطغى) وفي مسند الإمام أحمد (٨٨٠٥).

(٢) انظرالبداية والنهاية (٥/٣) قال ابن كثير عن إسناد هذا الحديث صحيح إلى الشعبي . ولعل ذلك كان في فترة الوحي.

مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: (... **فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئيت منه حتى هويت إلى الأرض . فجئت إلى أهلي فقلت: زملوني زملوني، فزمَّلُوني. فأنزل الله:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾).

فدل ذلك على أن جبريل كان قد نزل عليه بأول سورة العلق ، ثم فتر ، ثم نزل عليه بسورة المدثر وكانت أول ما نزل بعد فترة الوحي.

فحصلت النبوة بنزول: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وحصلت الرسالة بنزول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

ثم قام الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار قومه وبدأ بالمقربين كما أرشده ربه في قوله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ **[الشعراء : ٢١٤]**.

وجاء في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فعم وخص[1].

وهذا أبلغ في إقامة الحجة كما مر معنا . وبعد ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذه المرحلة تلي مرحلة الإنذار، وكانت أشد على الرسول صلى الله عليه وسلم مما قبلها، وهي بداية الجهاد. قال ابن إسحاق : فلما بادأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع كما أمره الله ؛ لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه فيما بلغني حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته [2].

وقال ابن الجوزي في تفسيره: "ورد في قوله تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ ثلاثة أقوال :

---

(١) انظر :تفسير ابن كثير .

(٢) السيرة لابن هشام ، ص (٢٧٦).

الأول : فامض لما تؤمر قاله ابن عباس .

والثاني : أظهر أمرك قاله مجاهد.

والثالث : الجهر بالقرآن في الصلاة ".

والصحيح أن الآية تشمل جميع ما قيل بالإضافة إلى معنى آخر يفهم ضمناً من سياق الآية ومن مدلول كلمة ﴿ فَٱصْدَعْ ﴾ وهو الجهر بالحق ليصدع به الباطل ويهدمه . وذلك من باب التخلية قبل التحلية.

ومن تدبر ما ذكرناه تبين له أمران:

الأول : لطف الله سبحانه وتعالى بنبيه ، حيث لم يحمله أعباء النبوة والرسالة والدعوة والجهاد جملة واحدة . وإنما كان الأمر بالتدرج.

الثاني : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيئاً في أمر الدعوة من تلقاء نفسه،بل كان منقاداً لأمر ربه ، حيث أمره وأين وجّهه.

وفيه دلالة على أن منهج الدعوة توقيفي.

فائدة :

ذكر أهل الأصول قاعدة وهي : أن الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم أمر لأمته،إذا لم يكن هناك تخصيص . مثل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ **[الأنفال : ٤]** .وقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ **[النحل : ٢٥]** . إذا تقرر هذا، فإن الآية التي أمر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بالدعوة عامة للمؤمنين وشاملة لهم فعليهم أن يصدعوا هم كذلك بالدعوة . وخصوصاً أنها التي استقر عليها أمر دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي تالية لآيات الإنذار.

وقالوا أيضاً: إن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فإذا كان الأمر هو الصدع بالدعوة فإن الإسرار بالدعوة يكون منهيّاً عنه ، وخصوصاً بعد ظهور الإسلام وانتشاره ، نقول ذلك على تقدير أنه كان هناك دعوة سرية.

واعلم أن السرية تنافي البلاغ الواجب على الأمة ،وصدق عمر بن عبد العزيز رحمه الله حيث قال : " **إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة**[1]".

وقال أبو ذر الهروي يرحمه الله : " **فلا والله لا دين المتناجين دين ، ولا رأي المتسترين متين** " [2] .

ويشهد لذلك قوله تعالى: : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء : ١١٤] والأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح شيء ظاهر وليس من النجوى أو السر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" فقوله في هذه السورة : ﴿**اقرأ**﴾ كقوله في آخرها ﴿**واسجد واقترب**﴾ وقوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ٩-١١]".

هذا متناول لجميع الأمة وكقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ١ ، ٢] . فإنه خطاب للمؤمنين كلهم . وكذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ [المدثر : ١، ٢] . لما أمر بتبليغ ما أنزل إليه من الإنذار . وهذا فرض على الكفاية. فواجب على الأمة أن يبلغوا ما أنزل إليه وينذروا كما أنذر" [3]. والله أعلم.

وقد يقال: إن الدعوة السرية تجوز قياساً على حال الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة إذا كان هناك جاهلية مطلقة ،كالتي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم. أما بعد ظهور الإسلام فممتنع أن يكون هناك جاهلية مطلقة، لكن قد

---

(١) الدارمي (٣١٩) واللالكائي في الاعتقاد (٢٥١) . وابن عبد البر في الجامع (١٧٧٤) وإسناده حسن.

(٢) ذم الكلام (٤/٤٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/٣٢٧).

يوجد جاهلية مقيدة بمكان ما أو نفر ما ، وحيثما وجدت الطائفة المنصورة فلا جاهلية حينئذ . وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام في "الاقتضاء" وقال: "لا جاهلية مطلقة بعد دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم". نقول ذلك أيضاً على تقدير أن الرسول صلى الله عليه وسلم مارس الدعوة السرية.

وبعد ذلك ذكر الدكتور ناصر المقوّم الثاني من مقومات فقه الواقع فقال:

[التأصيل الشرعي : من الملحوظ في واقعنا أن أكثر المعنيين بفقه الواقع ممن لم يدرسوا العلوم الشرعية ، ولم يتخصصوا فيها ؛ بل إن عباقرة العلم السياسي المعاصر حسب ما تنشر وسائل الإعلام من غير المسلمين].

أقول وبالله التوفيق :

مادام أن المعنيين بفقه الواقع لم يدرسوا العلوم الشرعية ، وطلاب العلوم الشرعية لم يدرسوا فقه الواقع كما أشرت إليه في أول الكتاب.فهذا من أعظم الأدلة على أنه ليس هناك تلازم وتداخل أو على الأقل ترابط بين علوم الشريعة وعلم السياسة الذي يزعم الدكتور أنه علم.

وإذا كان طلاب العلم الشرعي لم يدرسوا هذا العلم فهذا دليل على أن هذا العلم ليس من علوم الشريعة التي يبنى بعضها على بعض كما ذكر ذلك في ص (٥).

وكذلك فإنه ليس من المعقول أن يكون هذا من علوم الشريعة ويهمله جميع الأئمة المتقدمين منذ القرن الأول وإلى القرن الرابع عشر ؛ بل حتى الجامعات الإسلامية الحديثة لم يفردوا له قسماً و لم يجعلوا له مقررات على الطلاب.

وأيضاً ؛ فإن طلاب العلم الشرعي قد اكتفوا بدراسة السياسة الشرعية التي مصدرها ألقرآن والسنة عن هذا العلم المزعوم، الذي مصدره وسائل الإعلام التي لا يخفى ما فيها من كذب وتلبيس وتدليس وغش وخديعة.

وأيضاً ؛ فإن كون المعنيين بهذا العلم هم ممن لم يدرسوا العلوم الشرعية ؛ بل من غير المسلمين أصلاً . فهذه قرينة على أن هذا العلم ليس من الشريعة في شيء .

وهذا كله على التسليم بأنه علم . ولكن الصحيح أن هذا ليس بعلم بل هو فن من الفنون وإليك أقوال المعنيين بهذا الفن.

قال الأستاذ إبراهيم درويش والأستاذ بكري العمري تحت عنوان (مشكلة التعريف بعلم السياسة):

"نود أولاً أن نلفت النظر إلى أنه ليس من السهولة التوصل إلى تعريف شامل جامع لعلم السياسة،ومصدر هذه الصعوبة هو عدم يسر تحديد مكونات هذا العلم من المعرفة " [1].

قلت : لو كان من الشريعة لتيسر تحديد مكوناته.

وقال الدكتور نظام بركات بعد أن ذكر أن العلوم الطبيعية استحقت اسم (علم) لأنها وصلت إلى قواعد وقوانين ثابتة:

" ...أما العلوم الاجتماعية ؛ فإنها ما زالت عاجزة عن الوصول إلى تلك القوانين الثابتة".[2]

ولا شك أن السياسة ، وما يكتب حولها هو من باب العلوم الاجتماعية . ولا يمكن أن تستقر على قوانين ثابتة ؛ لأن الزمن يتغير والمفاهيم تتغير . ولأن الله سبحانه وتعالى خلق البشر و لم يطبعهم على عقل واحد . ومن هنا يأتي الفرق بين السياسة الشرعية وغيرها من السياسات، فالسياسة الشرعية يتم فيها ضبط العقول على القوانين الشرعية الإلهية . وأما في غيرها من السياسات ؛ فإنه يتم محاولة ضبط العقول بقوانين من وضع العقول . وبالتالي ؛ فإن النتائج لا تستقر لأن العقول في مجموعها تتغير وفي أفرادها تتطور . ناهيك عن ما يدخل في هذه العقول من الأهواء.

وقال الدكتور فاضل محمد :

---

(١) كتاب علم السياسة لهما ، ص (٩).

(٢) انظر: كتاب مقدمة في الفكر السياسي ، الدكتور نظام بركات ، عند تعريفه لهذا العلم .

"يزعم البعض أن علم السياسة لا يعد علمًا بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح ، وذلك بسبب ضخامة المادة التي يتناولها بالبحث وتعقيدها ، ولصعوبة تطبيق الطرائق العلمية الدقيقة في البحث وفي التجربة عليها ، ولأنه ليس هناك رأي شامل جامع بين الخبراء والمختصين حول طرائق البحث في هذا العلم ، وحول مبادئه والنتائج المستخلصة منه ؛ ولأنه عاجز عن التنبؤ بالتطورات السياسية التي تحدث في المستقبل حقيقة. إن علم السياسة ليس علماً بالمعنى الدقيق ما دامت قوانينه والنتائج المستخلصة منه لا يمكن التعبير عنها بمصطلحات دقيقة مضبوطة ، وما دامت غير قادرة على التنبؤ بالأحداث السياسية بصورة دقيقة.

يضاف إلى ذلك أن العلاقات الاجتماعية والسياسية في تغير مستمر وما يعد منها صحيحاً اليوم قد لا يكون كذلك في المستقبل" [1].

وقال الدكتور محمد إسماعيل :

"فالسياسة كما يقال في أحيان كثيرة (فن) ،وقد يتم التوصل إلى القرارات بأساليب تقديرية (أو فهلوية)" [2].

وقال الأستاذ حسن صعب :

"والسبب المباشر لذلك (عدم تسمية هذا الفن بعلم) هو أن الخبراء في اليونسكو الذين التقوا لم يتفقوا على مثل هذا التعريف ، ولذلك لم يمنح اسم العلم"[3].

وقال جان ماري رانكان :

"إن احتفاظ علم السياسة باسمه كعلم إنما هو احتفاظ تقليدي".

---

(١) العلوم السياسية ، لفاضل محمد ص (٥).

(٢) انظر :كتاب دراسات في العلوم السياسية ، د. محمد إسماعيل ص (٢٣-٢٤).

(٣) انظر :كتاب مقدمة لدراسة علم السياسة ، حسن صعب ص (٤٥).

وقرر استحالة المعرفة العلمية للسياسة ، وبالتالي استحالة إطلاق هذا الاسم عليه.

وقال : "إن الوقائع السياسية ليست محددة . ومن هنا يبرز سؤال حول موضوعية أجهزة الإعلام التي يقال - بشيء من السرعة - بأنها مستحيلة . إن بلوغ الحقيقة قد يكون متعذراً لكن بلوغ الكذب يمكن أن يتم بسهولة".

وقال أيضاً :" إن العامة لا يستطيعون المقارنة بين الحقيقة السياسية والصورة التي تعطيها وسائل الإعلام".

وقال أيضاً: "إن من غير الممكن إذاً الإحاطة بالواقع من خلال تفكير مسبق".

وقال أيضاً : " إن علم السياسة لن يزيد إذاً من قدرة الناس على التأثير على العالم إلا بطريقة محدودة "[1] .

فهذا كلام أهل الشان ، ولا أدري على أي أساس أطلق عليه الدكتور ناصر اسم (علم) ، مع ان المعْنِيِّين به أبعدوه من قائمة العلوم إنصافاً منهم وغيرة كذلك على علومهم .

أما الدكتور ناصر فلم يكتف بإطلاق الاسم عليه بل يريد إدخاله ضمن العلوم الشرعية بلا حجة ولا بينة . و لم يتدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل: ١١٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] .

وقوله تعالى:﴿ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ ﴾ [طه:٦١] .

وقوله تعالى : : ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [يونس: ٥٩] .

---

(١) انظر كتاب : علم السياسة ، جان ماري رانكان . ترجمة محمد صاصيلا ص (٨ ، ٩ ، ١١ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٤) .

وقوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النحل: ٥٦] .

وفي الصفحة نفسها قال :

[حتى رأينا من طلاب العلم من يفسر الحديث المشهور (من حسن إسلام المـــرء تـــركه مالا يعنيه) أي بأن يترك أمور السياسة وفقه الواقع لغيره ؛ بل إن هناك من إذا أراد أن يثني على أحد طلاب العلم عدد من محاسنه وصفاته العلمية أنه لا يتدخل فيما لا يعنيه - يقصد الأمور السياسة - وهذا تفسير للحديث على غير ما ورد له ، وحمل له على غير محله][1] .

أقول وبالله التوفيق :

لا شـــك أن عـــبارات هذا الكتاب خالية تماماً من الصبغة العلمية كما هو واضـــح . والذي ينبغي على طالب العلم وهو يكتب في مسألة مهمة كهذه المسألة التي تتعلق بجميع الأمة أن يكون أسلوبه علمياً عند التحرير والتقرير ، فالكلام العام والعائم لا يجدي شيئاً .

فشـــهرة الحديث الذي ذكر ، والذي نصه : (**من حسن إسلام المرء تركه مـــالا يعـــنيه**) . لا تكفـــي للاستدلال به ، فقد يكون مشهوراً ولكنه ضعيف أو موضوع .

والحديـــث أخـــرجه الإمـــام مالك في الموطأ[2] ، وابن ماجة[3] في سننه ، والـــترمذي في جامعه[4] وقال: غريب، ورجح إرساله ، وممن قال : إنه لا يصح إلا مرسلاً الإمام أحمد ويحيى بن معين والبخاري والدارقطني .

---

(١) في هذه الفقرة والفقرة السابقة فسر فقه الواقع بعلم السياسة وهذا يتعارض مع تعريفه له ص (٤٣) .

(٢) الموطأ (١٦٧٢) ، رواية الليثي .

(٣) سنن ابن ماجة (٣٩٧٦) .

(٤) جامع الترمذي (٢٣١٧) .

وقـــال ابـــن رجب في الجامع : " وقد خلط الضعف في إسناده عن الزهري تخليطاً فاحشاً والصحيح فيه المرسل " .

والحديث حسنه النووي ، وصححه الألباني وفي تصحيحه نظر ، فإن غاية ما يقـــال فيه أنه حسن ، وقد جزم الأئمة السابقون - وحسبك بهم - أنه لا يصح إلا مرســـلاً ، لأن الثقات أمثال مالك ويونس ومعمر وإبراهيم بن سعد إنما رووه عن الزهري مرسلاً ، ولكن له طرق أخرى ضعيفة يتقوى بمجموعها المرسل .

وأجمـــع ما قيل في معنى الحديث : هو ترك المسلم لكل أمر لا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة ، وعلى ذلك توزن الأقوال والأفعال .

ولا أدري مـــا مقصود الدكتور بقوله : " أي بأن يترك أمور السياسة وفقه الواقـــع " فإنـــه سبق وأن أشار إلى أن فقه الواقع هو علم السياسة كما في قوله في الفقرة السابقة: " من الملحوظ في واقعنا أن أكثر المعنيين بفقه الواقع ممن لم يدرسوا العلوم الشرعية ، ولم يتخصصوا فيها ، بل إن عباقرة العلم السياسي المعاصر حسب ما تنشر وسائل الإعلام من غير المسلمين " .

وتأمل أنه لما ذكر فقه الواقع قال بعده : " عباقرة العلم السياسي " ولم يقل : " عـــبارة فقه الواقع " . وهذا يبين أن فقه الواقع عنده هو علم السياسة . وقد أشار إلى ذلك أيضاً في آخر العبارة المذكورة سابقاً .

والـــواو في قولـــه : " أمور السياسة وفقه الواقع " قد تفيد الجمع والمشاركة باعتـــبار أنها المطلوب تركها، وقد تفيد التفريق والمغايرة إذا لم يكن ذلك على سبيل الترادف .

وقد عرف فقه الواقع بتعريف، ولكنه استخدم هذا المصطلح في مواضع بحيث يفهم منه التعارض مع التعريف، كما هو مشار إليه في هذا الموضع. فتارة يستخدم فقه الواقع وتارة يستخدم علم السياسة مع عدم مراعاة ما ذكره في التعريف .

أمـــا إنكار الدكتور على طلاب العلم الذين يأمرون بترك السياسة وأن ترك السياسة ليس مما يعد من محاسن طالب العلم .

فأقول : إن إنكاره هذا ليس في محله ، لأن السياسة ليست من العلوم الشرعية حتى يثاب على طلب معرفتها ، وغاية ما في الأمر أنها وسيلة لغاية ، وهي أن تكون الأمـــة قويـــة مترابطة مرهوبة الجانب ، وذلك مقصد من مقاصد الشريعة لم تهمله وتتركه للأهواء المتضاربة ، والشريعة بأسرها تدل على ذلك المقصد وتؤكد عليه وفي تطبيقها غنية عن كل شيء .

ولكي يعلم هل السياسة مما يستحب تركها أم لا ؟ لابد من معرفة هل هي مما ينفع في الدنيا منفعة لا تنافي الشرع ، أم هي مما يضر في الدنيا والآخرة ، وإذا اجتمع النفع والضر فأيهما أكبر ؟ لأن الحكم للغالب .

وقد تقدم كلام جان ماري : " إن علم السياسة لن يزيد إذاً من قدرة الناس على التأثير على العالم إلا بطريقة محدودة " .

وإذا نظر العاقل في حال كثير من الدول الإسلامية وغيرها وجد أنها لم تخرج من دوامات الفوضى والاضطرابات والفقر والجهل والمرض بسبب السياسة وما عليها من صراعات ، وحيث إنه لا سياسة من غير منصب سواءً كان منصب ولاية عامة أو إمـــارة أو وزارة ونحو ذلك ؛ فقد جاء في الشرع النهي الصريح عن طلب الولاية أو الإمارة وجاء ذمها في أحاديث كثيرة منها حديث عوف بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن شئتم أنبأتكم عن الإمارة ، وما هي ؟ أولها ملامة وثانيها ندامـــة ، وثالثها عذاب يوم القيامة ، إلا من عدل)[1] ومنها حديث ابن عمر رضى الله عـــنهما أن الـــنبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنكم ستحرصون على الإمارة ، وإنها ستكون ندامة وحسرة يوم القيامة ، فنعم المرضعة ، وبئست الفاطمة)[2] .

---

(١) صحيح الجامع (١٤٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٨) .

ومـــنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (**ليتمنين أقوام ولوا هذا الأمر أنهم خروا من الثريا وأنهم لم يلوا شيئاً**)[1] .

ومنها حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث قال له النبي صلى الله عليه وسلم : (**يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تتأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**)[2] .

قال ابن رجب رحمه الله : " وإنما نهاه عن ذلك لما رأى ضعفه وهو صلى الله عـــليه وسلم يحب هذا لكل ضعيف ، وإنما كان يتولى أمور الناس لأن الله قواه على ذلك وأمره بدعاء الخلق كلهم لطاعته وأن يتولى سياسة دينهم ودنياهم " .

وهـــذا يعني أن سياستهم في دينهم ودنياهم تابعة للنبوة ، والأحاديث تجيب أيضاً عن أيها الغالب : نفعها أو ضرها ؟ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**لابد من العريف ، والعريف في النار**)[3] والعريف هو من يلي أمر القبيلة ، وحكم النبي صلى الله عليه وسلم على العريف أنه في النار ، لأن الغالب على العرافة مما يقتضي دخول النار . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**اتقوا الله فإن أَخْوَنكم عندنا من طلب العمل**) والمراد بالعمل الإمارة ، وإطلاق النبي صلى الله عليه وسلم الخيانة على طالبها ؛ لأن العاقل لا يدخل نفسه فيما فيه حرج عظيم ولذلك أجمع أهل العلم على ذم طلب الإمارة .

وإذا كـــان المنصب الذي تمارس من خلاله السياسة مذموماً ؛ فعلمها أقل ما يقال فيه إنه ليس ممدوحاً ، بل هو من جنس المباحات فإن ترتب عليه مفسدة على طـــالب العـــلم من ضياع للوقت وانشغال عن العلم أو دخول في فتنة كان تركها ممدوحاً ، ولما كان الغالب عليها ذلك صار التارك لها أيضاً ممدوحاً .

---

(١) أخرجه أحمد بسند حسن (١٠٧١٧) .

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٢٠) .

(٣) صحيح الجامع (٧١٨٥) .

قـــال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في شرحه " لحلية طالب العلم "[1] كلمة جامعة أنقلها كاملة للفائدة .

قال : " فيه فقه ثالث ظهر أخيراً وهو فقه الواقع الذي علق عليه بعض الناس العلم ، وقالوا: من لم يكن فقيهاً في الواقع فليس بعالم ونسوا أن النبي صلى الله عليه وســـلم قـــال : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) ثم غفلوا عن كون الإنسان يشـــتغل بفقه الواقع أن ذلك يشغله عن فقه الدين بل ربما يشغله عن الاتجاه للتعبد الصـــحيح ، عبادة الله وحده وانصراف القلب إلى الله والتفكر في آيات الله الكونية والشرعية ، والحقيقة أن انشغال الشباب بتفقه الواقع صد لهم عن الفقه في دين الله لأن القـــلب وعـــاء إذا امتلأ بشيء امتنع عن الآخر ، لا يمكن أن يمتلئ بهذا وهذا. فاشتغال الإنسان في الفقه في الدين وتحقيق العبادة والتوحيد والإخلاص خير له من الـــبحث عن الواقع وماذا فعل فلان وماذا فعل فلان . وربما يتلقون فقه الواقع من روايات ضعيفة أو موضوعة في وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية أو يبنون مـــا يظنونه فقه واقع على تقديرات وتخمينات يقدرها الإنسان، ثم يقول: هذا فعل لهذا؟ ويعلل بتعليلات قد تكون بعيدة من الواقع أو ينظر إلى أشياء خطط لها الأعداء مـــن قـــبل على واقع معين، تغير الواقع وزال بالكلية فبقيت هذه الخطط لا شيء. والمهم أن الفقه [فقه النفس وفقه البدن] هذا هو الذي يطلب من الإنسان أن يحققه . ففقـــه النفس الذي هو صلاح القلب بالعقيدة السليمة ومحبة الخير للمسلمين وما أشـــبه ذلك، هذا ينبني عليه أيضاً فقه البدن معرفة هذا القول حرام هذا حلال هذا الفعـــل حرام هذا حلال وما أشبه ذلك ، أما فقه الواقع فالإنسان إذا احتاج إليه فلا شك أنه لابد أن يعرفه وأما أن تصرف الهمم كلها إلى فقه الواقع ، واقع في الحقيقة غير واقع أحياناً يكون كذباً ودجلاً وتقديرات وتخمينات ليست مبنية على أصل ... هو هذا بلانا ، فقه الواقع في الحقيقة اتباع للهوى " .

---

(١) الشريط السابع من الشرح المذكور .

وبمثل قوله يقول الشيخ الألباني رحمه الله والشيخ الفوزان حفظه الله والشيخ ابـــن غديان حفظه الله وغيرهم من أهل العلم، وقد مر معنا كلام الشيخ محمد عبده والشيخ حسن البنا رحمه الله .

وكان العلماء من السلف رحمهم الله يبتعدون عن كل ما يشغلهم عن العلم والعمل ، وقد قال سفيان الثوري رحمه الله : " العلماء إذا علموا عملوا وإذا عملوا شغلوا وإذا شغلوا فقدوا وإذا فقدوا طلبوا وإذا طلبوا هربوا "[1] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم وخفـــت أماناتهم، وكانوا هكذا – وشبك أصابعه – فالزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ بما تعرفه ، ودع ما تنكر ، وعليك بأمر خاصة نفسك ودع عنك أمر العامة**)[2] .

ولا شك أن السياسة من أمر العامة وتأمل الحديث فإنه يغنيك عما سواه .

وفي ص (٢٣) قال :

[لـــذا ، فـــإن أقوى مقوم من مقومات فقه الواقع هو التأصيل الشرعي وأحق الـــناس في هذا الجانب هم العلماء وطلاب العلم ، ولا يستلزم أن يكون المتخصص في فقـــه الواقع أحد خريجي كلية الشريعة ، وإنما لابد أن يكون لديه من العلم الشرعي ما يحتاج إليه في تخصصه مما لا يعذر بجهله من فرض العين أو الكفاية] .

أقول وبالله التوفيق :

قوله : "لذا، فإن أقوى مقوم من مقومات فقه الواقع التأصيل الشرعي ".

هذا الكلام حق بلا ريب بل نقول على قدر ما يكون علمه بالقرآن والسنة وما يتبعها من العلوم على قدر ما يكون مدركاً لواقعه وواقع المسلمين .

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم .

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٨٥) بسند صحيح .

ولكن إذا ربطت هذا الكلام بما بعده تتبين لك تناقضات كبيرة .

فهـــو يقـــول : " لذا، فإن أقوى مقوم من مقومات فقه الواقع هو التأصيل الشرعي وأحق الناس في هذا الجانب هم العلماء وطلاب العلم " .

ولا أدري ما المقصود بقوله: وأحق الناس في هذا الجانب هم العلماء وطلاب العلم ؟

وليس لذلك إلا احتمالان :

الاحـــتمال الأول : أن العلماء وطلاب العلم هم أحق الناس بهذا المقوم وهو التأصيل الشرعي كما يفهم من قوله (في هذا الجانب) .

فـــأقول: إن العـــالم لا يسمى عالماً إلا إذا كان على قدر عظيم من التأصيل الشرعي ، وهذا مسلم ولا شك فيه .

وكذا طالب العلم على قدر ما يكون عنده من التأصيل الشرعي على قدر ما تكون مرتبته في العلم . وهذا هو الأقرب لمفهوم كلامه ولا يخفى ما فيه من التناقض لما ذكرنا .

الاحـــتمال الثاني : أن العلماء وطلاب العلم هم أحق الناس بهذا الجانب أي بفقه الواقع . ويجاب عن هذا من وجوه:

١ - تقدم معنا أن من كان عالماً بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو مدرك للواقع ، وعلى قدر كماله في الأول يكون كماله في الثاني وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء: ٨٣]

والصـــحيح أن أولي الأمر هم العلماء ، وقد قيل: إن هذه الآية نزلت عندما أشـــاع الناس في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أنه طلق زوجاته، فلما سمع عمر بهذا ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واستنبط الخبر فلم يجده صحيحاً ، وهذه

عادة العلماء لا يتكلمون حتى يستيقنوا ، مع أن أهل المدينة جميعهم قد تكلموا بهذا . فكانت هذه مزية عظيمة لعمر رضي الله عنه ، لأنه هو الذي استنبط الخبر ، وللعلماء من بعده لأن الله أمر برد الأمر إليهم[1] .

وتأمل أن طلاق النبي صلى الله عليه وسلم لنسائه من عدمه ليس أمراً شرعياً بحتاً ومع ذلك أسند استنباطه للعلماء .

٢ - وكذلك نقول: صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : (**العلماء ورثة الأنبياء**)[2] .

فكيف يقال أو يظن أن ورثة الأنبياء لا يفقهون الواقع . ومما لا شك فيه أن العلماء المقصودون في هذا الحديث هم علماء الدين . وذلك إجماع بين المسلمين .

فإذا لم يتم الإذعان لهذا وهو كاف لمن أراد الحق، فإنا نقول أين الدليل من الكتاب والسنة الذي يدل على أن فقه الواقع المزعوم من الشريعة ؟

وديـن الله سبحانه وتعالى كامل ، فقد شرع لعباده كل ما فيه خير لهم في الدنيا والآخرة، وحرم عليهم كل ما فيه ضرر لهم في الدنيا والآخرة . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [مريم: ٦٤] .

وأما قوله : " ولا يستلزم أن يكون المتخصص في فقه الواقع أحد خريجي كلية الشريعة ، وإنما لابد أن يكون لديه من العلم الشرعي ما يحتاج إليه في تخصصه مما لا يعذر بجهله من فرض العين أو الكفاية " .

ففيه تناقض واضطراب بين .

فالدكتور ناصر مرة يلقي باللوم على العلماء وطلاب العلم ، كما هو واضح من تقديم هذا الكتاب لهم . ومرة على جميع الأمة، كما في قوله : " أصبحنا عالة

---

(١) أصل القصة في صحيح مسلم (٣٦٩١) وانظر في ذلك : كتب التفسير .

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٢٠٥٨) وأهل السنن بسند صحيح .

عـــلى أعدائنا ، وهماً على أمتنا " . وكما في قوله : " ومن هذا المنطلق وجدت أن جهلنا بواقعنا سبب رئيسي من أسباب مصيبتنا " .

ونحن نقول: إن العالم قد استغنى بعلم الشريعة عن مثل هذا العلم ، وإذا بلغ علوم الشريعة إلى الناس فقد أدى ما عليه . وأما العامي فليس في وسعه إدراك ذلك وقد قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

وكلامه يشير إلى أن خريج كلية الشريعة يعد من العلماء وهذا غير صحيح ، ولا يحتاج إلى إثبات .

ثم إن الدكتور بكلامه السابق يدعو جميع المكلفين (يعني عامة المسلمين) إلى التفقه في هذا العلم ؛ لأن الذي لا يعلم من الشريعة إلا ما يحتاج إليه في تخصصه وما لا يعذر بجهله من فرض العين أو الكفاية عامي بإجماع أهل العلم .

وأي فائدة ترجى من دخول العامة في مثل هذه المتاهات، فكان من الواجب على الدكتور وغيره حث العامة على التفقه في دين الله القائم على الكتاب والسنة .

أما حثهم على أمر مفاسده أعظم وأكبر من مصالحه فلا شك أن ذلك مذموم إن لم يكن محرماً .

بـــل إن الدكـــتور يجعل هذا الأمر الذي مفاسده أكبر من مصالحه من علوم الشريعة وهذا من الجهل العظيم . وقد تقدم معنا كلام أهل التخصص في هذا الأمر وأن العامة لا يمكن أن تتصور مسائله .

والمتدبر للأمور يعلم أنه لا ينتج عن زج العامة في مثل هذا الأمر إلا انبعاث مـــنهج الخوارج من جديد . وجدلاً أن هؤلاء العامة صاروا علماء في السياسة فأية فائدة ترجى منهم وهم جهال بالشريعة .

وبعـــد ذلـــك اســـتمر الدكتور في عرض الموضوع من ناحية أهمية التأصيل الشرعي . وقد قدم كلاماً طيباً في ص (٢٤ ، ٢٥) ولو كان متدبراً للكلام الذي

ذكـــر في تلك الصفحتين لكان كافيًا له ، ولما أدخل نفسه في هذه الدوامة التي لم يســـتطع الخروج منها . فإنه قد رد على نفسه من حيث لا يشعر . بذكره الآيتين الكريمتين .

فقد ذكر قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

وهـــذه الآية كافية لأهل الإيمان ؛ فإنها لا تأتي على قلب فيه إيمان إلا ملأته يقيـــناً وتصديقاً بأن الخشية لا تكون إلا من الله وحده . وأن أعداء الإسلام مهما جمعـــوا وحشدوا من قوة ضد أهل الإسلام إلا تلاشت هذه القوة أمام إيمان المؤمنين وتوكـــل المتوكلين على رب العالمين ، وكلام الدكتور وأشباهه أصاب بعض الأمة بالإحـــباط والرعب. فتجد بعض الناس لا يجلس في مجلس إلا تكلم في قوة الأعداء وتخطيط الأعداء ، وكأنه ليس من أهل الإسلام والإيمان، ولا كأن أسلافه رضي الله عنهم فتحوا أقطار الدنيا وهزموا أكبر القوى في تلك الحقبة .

مـــع العلم بأنهم كانوا قلة في العدد ولديهم ضعف في القوة المادية ، ولكنهم أقوياء بقوة الإيمان واليقين بنصر الله لهم متى ما نصروه . وتهويل الدكتور ناصر لهذه القضـــية يعـــد من باب الإرجاف[1] . وانظر مصداق ذلك في قوله : " ومن هذا المنطلق... " ص (٩) وقوله : " على طالب العلم ... " ص (٢١) ، وقوله : " هناك آثار إيجابية ... " ص (٣٦) وقد تكون المصلحة في كثير من الأحيان التقليل من شأن

---

(١) قـــال الشيخ عبد الرحمن السعدي في رسالته (السياسة الشرعية) ما نصه : (ومما يجب على المؤمنين أن يحـــذروه غاية الحذر من المخذلين المرجفين ومن المفسدين بينهم في السعي في الفتن والتفريق بينهم ؛ فإن هؤلاء أضر عليهم من العدو المحارب ، قال تعالى في وصف أمثال هؤلاء : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكـــم إلا خـــبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾ [التوبة : ٤٧] . أي يســـتجيبون لهؤلاء المفسدين لا يفهمون مغزى مرادهم فيغترون بهم فتحصل الفرقة بين المؤمنين فعلى المؤمنين أن يتنبهوا لهؤلاء المفسدين) .

الأعداء . وهذا مستفاد من قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٣-٤٤]

والمعنى الإجمالي للآيتين أن الله سبحانه وتعالى يقلل الأعداء في أعين المسلمين لكي يتشجعوا على القتال ولا يجبنوا ، ويقلل المسلمين في أعين الكفار لكي يتقدموا ولا يفروا ويتكاسلوا عن إحسان العدة . ولما أمر الله بقتال أولياء الشيطان أخبر سبحانه أن كيد وليهم ضعيف فقال سبحانه : ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦-٧٨]

فإذا التحم الفريقان، أمكن الله المسلمين من الكافرين وأيدهم بنصره . وهذا من لطفه ورحمته .

وفي ص (٢٤) نفسها ذكر الآية الكريمة الثانية ، وهي أيضاً كافية في الرد عليه ، وهي قوله تبارك وتعالى :﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]

قال ابن كثير - رحمه الله - : " الجزاء من جنس العمل " . فالله تبارك وتعالى شرط في هذه الآية نصرة دينه فمن نصر دينه في نفسه أولاً نصره الله في الدنيا والآخرة . وهي كقولة تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج:٤٠] .

ولم يشترط تبارك وتعالى على عباده فقه الواقع بالصورة التي قررها الدكتور، حتى ينصرهم ويثبت أقدامهم .

فمتى ما تحقق نصر المسلمين لدين الله نصرهم الله في الدنيا والآخرة، وقد قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران:١٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحج: ٣٨].

قال ابن القيم في زاد المعاد : " على قدر الإيمان تكون المدافعة " . إذاً فلماذا الخـوف ما دام الله هو الذي يدافع عن المؤمنين ؟ ولماذا الإرجاف ؟ ولماذا زعزعت الـتوكل ؟ وذلك بالتهويل من شأن الأعداء وخططهم وقدراتهم ، وبالمقابل وصف المؤمنين وأهل الإسلام بأنهم ألعوبة بيد الكفار وليس في يدهم من الأمر شيء ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

قال ابن كثير : " يخبر تعالى أنه يدافع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر: ٣٦].

وقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٣] .

واسمع إلى هذه الآية التي غفل عنها كثير ، وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال ابن كثير - رحمه الله - : " يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم فلا حول ولا قوة لهم إلا به . وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته . ومن توكل عليه كفاه " .

والصبر من أعظم أسباب النصر ولذلك قال تعالى :﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال:٦٥].

وقال تعالى : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٦] ومن الآيات التي تدل أيضاً على أن الله تبارك وتعالى يوهن كيد الكفار هي قوله تبارك وتعالى : : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنفال: ١٨]

قال ابن كثير - رحمه الله - : " هذه بشارة ؛ أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل . مصغر أمرهم ، وأن كل ما لهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة ".

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٩] . قال ابن كثير - رحمه الله - : " يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ولا تحسبن يا محمد ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ﴾ أي فاتونا فلا نقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا ، وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا " .

وكذلك فإنه متى ما كان الناس مؤمنين حقاً متوكلين على الله صدقاً فإنه ينصرهم على أعدائهم في هذه الدنيا بأشياء قد تكون محسوسة لديهم ، وقد يرونها رأي العين مثل أن يجعل الملائكة تدافع عنهم أو تقاتل معهم وضمن صفوفهم وقد حصل هذا بالفعل يوم بدر وأحد .

قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٩ - ١٠]

وقد قال تعالى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥] .

وروى الإمـــام مســـلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : (**رأيت عن يمين رســـول الله صـــلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين – أي ملكين في صورة رجلين – عليهما ثياب بيض ، ما رأيتهما قبل ولا بعد**) وفي رواية الطيالسي : (**لم أرهمـــا قبل ذلك اليوم ولا بعده يعني جبرائيل وميكائيل يقاتلان عنه كأشد القتال**) ؛ وهذا الحديث أخرجه البخاري ولكن لم يقع عنده التصريح باسم الملكين.

وقـــد روى الطبراني وابن منده (**أنه صلى الله عليه وسلم سأل الحارث بن الصمة عن عبد الرحمن بن عوف فقال: هو بجنب الجبل . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الملائكة تقاتل معه، قال الحارث: فذهبت إليه ، فوجدت بين يديه سبعة ، فقلت له: ظفرت يمينك ، أكل هؤلاء قتلت ؟ فقال لا : أما هذا وهذا فأنا قتلتهما ، وأما هؤلاء فقتلهم من لم أره ، فقلت: صدق الله ورسوله**) .

وبمناسبة ذكر يوم أحد . أقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يكونوا مكترثين بالكفار مع العلم أنهم نزلوا على حدود المدينة من دون أحد . ولكن لما عزم على قتالهم اجتمع مع أصحابه بعد صلاة الجمعة ، ثم وعظهم وذكرهم وحثهم على الجهاد ثم دخل عليه الصلاة والسلام بيته ولبس لامته ثم أذن للناس بالخروج .

فـــأين الهالـــة التي وضعها الدكتور لفقه الواقع ؟ فإنك كما ترى لم يرسل الرســـول صـــلى الله عليه وسلم أحداً يراقبهم منذ خروجهم من مكة ليعرف كم عددهـــم ؟ وما هي قوتهم ؟ ومن أين سيأتون ؟ وما هي خطتهم ؟ فإنه وكل ذلك كلـــه لله حتى أتى وقت القتال فخرج هو وأصحابه لقتالهم . وتأمل هزيمة أحد فإنها كانت بسبب مخالفة أمره صلى الله عليه وسلم ولم تكن بسبب الجهل بفقه الواقع . وبالمقـــابل تأمل كيف عصم الله النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين من أن ينتصر انتصاراً غير شرعي بسبب الكثرة والقوة وإنما نصره بالثقة به سبحانه وليس بالكثرة ولا بالقوة . وتدبر ذلك جيداً فإن الهزيمة والنصر دارا مع المخالفة والموافقة للشرع لا مع فقه الواقع .

أعود فأذكر حديثين تأييداً لمعاني الآيات السابقات وهي قوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس : (**احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك**)[1] .

وقولـــه عليه الصلاة والسلام فيما أخبر به عن ربه : (**يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً آذنته بالحرب**)[2] .

ومن عرض الآيات والأحاديث التي سبق ذكرها نصل إلى نتيجة ، هي : أنه متى مـــا تحقق في الأمة ما ورد في الآيات والأحاديث المذكورة ، وحفظوا حدود الله وكانوا أولياء لله : ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف:٦٤] وحسبنا حفظه تبارك وتعالى .

وفي ص (٢٧) تحت عنوان سعة الإطلاع وتجدده قال :

[فمـــثلاً عـــلم الفرائض ، علم مهم جداً ، بل قيل: إنه نصف العلم ومع ذلك فيســـتطيع طالب العلم أن يتقنه في فترة محددة ، ثم يبدأ في الإفادة منه وتطبيقه ، وليس فيه مجال للتوسع إلا في مسائل فرعية ، وكذلك علم النحو ، فلم يترك المتقدم للمتأخر شـــيئاً ، فمـــا علينا إلا أن نتقن ما دونه أسلافنا ، ولذلك باءت محاولات التجديد فيه بالفشل وحق لها ذلك].

أقول وبالله التوفيق :

لا أعـــلم لماذا اختار الدكتور علم الفرائض ليمثل به على كلامه . فإن كان مقصوده أن باقي العلوم الشرعية يمكن أن تدرك في فترة وجيزة أو محددة كما يمكن تعـــلم الفـــرائض فهـــذا لا يوافق عليه ، وهو معلوم البطلان . ولو اختار غير علم الفرائض كان أولى . لأن علم الفرائض قواعد معروفة منصوصة أما فقه الواقع فهو في حكم المجهول لعدم توافر الضوابط العلمية فيه وله . وعلوم الشريعة تحتاج إلى زمن

---

(١) أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وصححه الألباني في الجامع (٧٩٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب الرقائق ، باب التواضع وهو من غرائب الصحيح .

طويـــل لإدراكها، فقد أُثِرَ عن الإمام أحمد أنه قال : " طلبت باب الحيض في تسع سنين " وبهذه المناسبة نشير إلى ما قاله سلمان العودة وعائض القرني من أن العقيدة يمكـــن تعلمها في عشر دقائق ، وهذه العبارة متكررة في أشرطتهم . وهي من الخطأ الشـــنيع الفاحش ؛ لأن كلامهم يشير إلى حصر العقيدة في توحيد الربوبية فقط ، وهذا القسم من أقسام التوحيد يمكن تعلمه في عشر دقائق لأنه يكفي فيه أن تعلم أن الله هـــو الخـــالق الرازق المدبر وكان كفار مكة من قريش يقرون بهذا ، ولكن لم ينفعهم ذلك بشيء .

أمـــا تعـــلم العقيـــدة بمدلولها عند أهل السنة والجماعة بالصورة التي استقر مـــنهجهم عـــليها ، فـــلا يمكن تعلمها في عشر دقائق ولا عشرة أيام بل تحتاج إلى سنوات وإلى علماء أيضاً تدرس عليهم . ولا ينبغي التهوين من علوم العقيدة ؛ لأنها الأساس الذي يبنى عليه أمر الدين .

وقـــول الدكـــتور ناصر في علم الفرائض : " وليس فيه مجال للتوسع إلا في مسائل فرعية " .

فهـــذا غير صحيح لأنه لا يمكن التوسع أبداً في علم الفرائض بل غاية ما في ذلك أن ترجح مسألة من مسائل الخلاف . أما التوسع فلا يمكن ؛ لأن معنى التوسع إضافة جديد إلى قديم . وعلم الفرائض من علوم الشريعة ، والشريعة كاملة وليس مما يتغير بتغير الزمان . أما قوله : " وكذلك علم النحو فلم يترك المتقدم للمتأخر شيئاً ، فما علينا إلا أن نتقن ما دونه أسلافنا ، ولذلك باءت محاولات التجديد فيه بالفشل وحق لها ذلك " .

فنقول: وكذلك علوم الشريعة لم يترك المتقدم للمتأخر شيئاً ، وما علينا إلا أن نتبع ما دونه أسلافنا .

بل نقول إن الشريعة أصلاً كاملة ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

عـــلوم السلف ليست تكميلاً للشريعة إنما هي بمثابة التبيين لها . وقد شهد الصحابة لرســـول الله صـــلى الله عليه وسلم أنه بلّغ أتم التبليغ . قيل لسلمان : (قد علمكم نـــبيكم صـــلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة ؟ فقال: أجل ...) إلى آخر الحديث[1] . وقال أبو ذر رضي الله عنه: (لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً)[2] .

وعـــلماء السلف - رحمهم الله - تكلموا على جميع المسائل التي حصلت في عهدهم ؛ بل حتى التي لم تحصل في عهدهم ؛ ومن دقائق مسائلهم أنهم قالوا: لو صاد رجـــل سمكة من البحر ووجد في بطنها خاتماً . فما الحكم ؟ مع أن هذه المسألة من الندرة بمكان[3] .

ونقـــول للدكتور : إنك قلت إن مصير الأمة متعلق على فقه الواقع ، وأنه فرض كفاية وأنه من علوم الشريعة إلى آخر ما ذكرت .

فهل يا ترى أن الشريعة الكاملة أهملت هذا الأمر الذي يتعلق به مصير الأمة؟ أو أن عـــلماء الســـلف لم يتبيـــنوا أن فقه الواقع فرض كفاية [4] ! وقد ضربنا لك مثلاًعـــلى اهـــتمامهم بدقـــائق المسائل التي يندر حصولها أو تكاد تكون معدومة الوقوع .

فتنبه يا دكتور وخذ بوصية كثير من السلف بأن لا تتكلم في مسألة ليس لك فيها سلف .

---

(١) أخـــرجه أبـــو داود (٧) والـــترمذي (١٦) في كتاب الطهارة ، وقال: حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني . وأصل الحديث في مسلم .

(٢) أخرجه أحمد (٢١٣٥٥) (٢١٤٢٩) .

(٣) انظر كتاب أحكام الخواتم لابن رجب الحنبلي .

(٤) وخصوصـــاً أن فرض الكفاية واجب على الجميع في الأصل ، يأثمون بتركه . ولكن إذا فعله بعضهم سقط عن البعض الآخر رحمة من الله . وهو قول الجمهور .

وفي ص (٢٧) نفسها قال :

[نظراً لتشعب هذا العلم وشموله ، فيحتاج المتخصص فيه إلى كثير من الفنون ، سواء علوم الشريعة ، كالعقيدة والفقه أو العلوم الاجتماعية كالتاريخ أو العلوم المعاصرة كالسياسة والإعلامية ، وهلم جرا . وإذا قصر في أي علم من هذه العلوم أو غيرها مما يحتاج إليه ، فينعكس ذلك سلبياً على قدرته على فقه الواقع وتقويم الأحداث والحكم عليها] .

أقول وبالله التوفيق :

تأمل كلامه تجد أن فيه اضطراباً شديداً بل تناقضاً. فالدكتور ذكر أن المتخصص في هذا الفقه يحتاج إلى كثير من الفنون ، و لم يذكر شيئاً منها ، بل اكتفى بذكر العلوم التي يحتاج إليها ، كعلوم الشريعة والعلوم الاجتماعية والعلوم المعاصرة. وإن كان يريد أن (الفنون) و(العلوم) مترادفات فهذا غير مسلم لا عند المسلمين ولا عند غيرهم، وقد مر معنا أن منظمة اليونسكو تفرق بين ما ينطبق عليه اسم العلم وما ينطبق عليه اسم الفن . والدكتور لا يراعي اصطلاحاته فهو يقول في أول كلامه: " نظراً لتشعب هذا العلم وشموله " وهو يريد فقه الواقع. فتارة يسمي ما يدعو إليه فقهاً وتارة علماً وتارة فناً كما في قوله: " إن أول ما يجب أن يعتني به المتخصص في هذا الفن " .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله " يختلف هذا العلم عن كثير من العلوم. فهناك بعض الفنون يستطيع طالبها أن يتقنها في فترة محددة ، ثم ينتقل إلى غيرها ، بينما بعض أنواع العلوم ... " .

فهو يتكلم عن العلوم ثم ينتقل إلى الفنون ثم يعود إلى الفنون وهذا يشعر بالاضطراب أو أنه يرى الترادف وهذا غير مسلم وخصوصاً أنه في مقام التأصيل كما زعم .

ومن الأمثلة العجيبة أيضاً قوله : " إن من أول ما يجب أن يعتني به المتخصص في هذا الفن أن يبني علمه على أسس شرعية مستمدة من الكتاب والسنة " .

ولك أن تتصور أن الأسس الشرعية يتكون منها علم ومن هذا العلم يتكون فن.

فهـــذا الفن عنده يتكون من علوم مبنية على أسس شرعية وهذا ليس كلاماً عـــلمياً . إذْ الفن أقل من العلم فضلاً عن أن يتكون من عدة علوم . ولكن الأمور عنده متداخلة بشكل يصعب معه فكها .

ومن تناقضاته أنه سبق وأن قال في ص (٢٣): " إنه ليس من اللازم أن يكون المتخصـــص في فقه الواقع أحد خريجي كلية الشريعة ، وإنما لابد أن يكون لديه من العـــلم الشـــرعي مـــا يحتاج إليه في تخصصه مما لا يعذر بجهله من فرض العين أو الكفاية " .

وكلامه هذا يدخل فيه جميع طبقات المكلفين ؛ لأن الذي لا يعرف من الدين إلا ما يعذر بجهله لا يخرجه من كونه عامياً .

وهـــو هنا ص (٢٧) يرى أن المتخصص فيه يحتاج إلى كثير من الفنون سواء عـــلوم الشريعة ، كالعقيدة والفقه أو العلوم الاجتماعية كالتاريخ أو العلوم المعاصرة كالسياسية والإعلامية وهلم جرا . هذا كلامه بحروفه ولك أن تقارن بين كلامه في ص (٢٣) وص (٢٧) لترى كيف يكون التناقض .

فالرســـالة أصـــلاً مقدمـــة للعلماء كما في بدايتها ، وفي وسطها يرى أن المتخصص فيه لا يحتاج من العلم إلا ما لا يعذر بجهله ، ثم يعود ويقول إنه يحتاج إلى علوم الشريعة كالعقيدة والفقه والعلوم الاجتماعية كالتاريخ والعلوم المعاصرة إلى أخر ما يقول .

وما يطلبه الدكتور مستحيل في حق العالم فضلاً عن العامي. (راجع المقومات والمصـــادر التي يطالب بها للتأكد من ذلك) . ويكفي دليلاً على ما نقول ما ذكره تحت عنوان: سابعاً: المصادر الإعلامية، حيث قال : " وهي من أهم المصادر المعاصرة ، سواء أكانت مسموعة أم مقروءة أم مرئية ، ومن أبرزها :

١ - الصحف والمجلات والدوريات .

٢ - نشرات وكالات الأنباء العالمية .

٣ - الإذاعات .

٤ - التليفزيون .

٥ - الأشرطة والوثائق .كل ذلك مع التعمق في كتب السياسة ومعرفة دهاليزها".

فسبحان الله من تابع هذه الأمور كيف يبقى له وقت لطلب العلم الشرعي إن كان طالباً ؟ أو مراجعته وتدريسه إن كان عالماً ؟ وكيف يبقى وقت للعبادة والقيام بالمسؤوليات الأخرى من أسرية واجتماعية وطلب رزق ونحوه ؟ ألا يصح بعد ذلك أن يقال: إن كلام الدكتور ضرب من الاستحالة ونمط من المجازفة ؟ كيف وقبل هذا المصدر السابع ستة أخرى تحت كل مصدر منها عدة مطالب .

وصدق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله حيث يقول : " بل لقد تجد فيمن يلقبون منهم أنفسهم " علماء " ينقلون اسم " العلم " عن معناه الإسلامي الحقيقي المعروف في الكتاب والسنة إلى علوم الدنيا والصناعات والأموال ، ثم يملؤهم الغرور فيريدون أن يحكموا على الدين بعلمهم الذي هو الجهل الكامل "[1] .

وقال ابن القيم معلقاً على قول أيوب لما سئل: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم ؟ فقال : الكلام اليوم أكثر والعلم فيما تقدم أكثر : " ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام ، فالكتب كثيرة جداً ، والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة ، والعلم بمعزل عنها ... " وقال أيضاً : " ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخـــذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علماً ووضعوا فيها الكتب وأنفقـــوا فيها الأنفاس فضيعوا فيها الزمان . وملأوا بها الصحف مداداً ، والقلوب سواداً "[2] .

---

(١) انظر كتابه : كلمة حق ص (١٢٥) .

(٢) الضوء المنير على التفسير (٤ / ٥٣٨) .

وللأسف فإن الإخوان المسلمين أغرقوا في السياسة حتى قدموها على الشرع وعلومه من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

ولـــذا فإن منهجهم لم يقدم علماء بحق ، مع كثرة متبعيه في كثير من البلاد الإســـلامية ومـــع مضي ما يقارب القرن على ظهوره . بل إن المتتبع لكلام الشيخ حسن البنا مؤسس الحركة يجده في مصاف كلام صغار الطلبة فضلاً عن العلماء .

ومع ذلك فإن أتباعه وأنصاره غلوا فيه إلى حد كبير فأطلقوا عليه اسم الإمام حسن البنا . بل جعلوه في رتبة الصحابة يقول محمد علي قطب : " إن الذين قدر لهم أن يعايشـــوا الإمـــام الشهيد يعلمون صدق هذه الدعوى فإنه - رحمه الله - كان بالفعل تطبيقاً حياً لفكرته، صورة متجددة للصحابة والتابعين رضوان الله عليهم"[1].

أمـــا بالنسبة إلى الأئمة الأربعة فهو أفضل بل لا يقارن بهم : " يقول محمد علي قطب : " أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم أصحاب مذاهـــب فقهيـــة وليســـوا فيما أنتجته قرائحهم دعاة إصلاح وقادة حركات رغم وقوفهم مواقف شخصية مثلى في وجه الطغيان والتسلط؛ فالمقارنة بينهم وبين الإمام " البنا " في غير موضعها فلكل مقامه ومكانته "[2] .

وهذا ليس غريباً فهم يطلقون اسم العالم والداعية والشيخ على كل من انتهج منهجهم وسلك طريقهم .

إن هـــؤلاء المساكين ظنوا أن منهج السلف وطريقتهم في الدعوة إلى الله لا تناســـب هـــذا العصر ، فراحوا يتخبطون بأفكارهم بحثاً عن منهج جديد مناسب وملائم لهذا العصر على زعمهم ، وما علم هؤلاء أن الخروج من منهج السلف إنما هـــو الخروج من الهدى إلى الضلال . فمن أراد أن يجدد [3] فعليه بما قد اندرس من مذهب السلف لا يسعه غير هذا .

---

(١) انظر تعليق محمد علي قطب على كتاب: الإمام حسن البنا الرجل القرآني ، ص (٢٢) .

(٢) انظر المصدر السابق ص (٥٥) .

(٣) انظر كتاب : أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة ليوسف القرضاوي ص (١٠١) فقد تكلم عن مسألة التجديد بمفهومه فأتى بطوام وهوام يجب الحذر منها .

ولا يخفى أن الأمة بحاجة ماسة إلى علماء ودعاة سلفيين يعيدون من ضل من الناس إلى المنهج القويم ، ويربونهم على هذا المنهج الحق ؛ فمن كان عليه نجا وأفلح ، ومن كان على غيره فقد ضل وهلك .

وفي ص (٢٨) قال :

[لذا يلزم المتخصص أن يكون لديه دأب لا يكل في متابعة الأحداث ، ودراسة أحوال الشعوب] .

أقول وبالله التوفيق :

سبق أن بينا أن الدكتور يدعو جميع المكلفين للعناية بهذا الفقه ، وبينا أيضاً أنه بحسب ما ذكر من المطالب فإن هذا الفقه يستحيل على العالم فضلاً عن العامي . أضف إلى تلك المقومات والمصادر ما في هذه الفقرة من الدأب الذي لا يكل في المتابعة !

فالعالم سوف تشغله هذه الأمور عن العلم ونشره .

وطالب العلم سوف تشغله عن طلب العلم والإفادة .

والعامي لا يستفيد من هذه الأمور ولا يفيد بها . وهي تشغله عن الطاعات والعبادات التي تقربه إلى الله ، وهي كذلك تعرضه للفتن . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح إذا قدر أن هناك مصالح ، أضف إلى هذا أنه لا يوجد دليل شرعي ، يحث على مثل هذا .

وسوف أذكر مثالاً يدل على خطر تعاطي هذه الأمور حتى على العلماء وطلاب العلم . فقد جاء في سيرة رفاعة الطهطاوي[1] ، وهو أحد حفظة كتاب الله ومن أصحاب العلم بالتفسير والفقه والحديث واللغة ، وكان له نبوغ على أقرانه وخصوصاً في علم التفسير . وهو أحد خريجي الأزهر . مما أدى إلى اختياره لمصاحبة

---

(١) انظر كتاب : جذور الإنحراف في الفكر الإسلامي لجمال سلطان ، ص (١٥) .

أول بعثة مصرية إلى فرنسا للتحصيل العلمي ، وكان مرشداً دينياً لها وإماماً للصلاة . فلما وصل إلى فرنسا وبدأ يقرأ في كتبهم وصحفهم وثقافاتهم تحول تحولاً جذرياً . فلما عاد إلى مصر راح يكون جماعات لترجمة كتب الفرنسيين ويدعو إلى كثير من أفكارهم . وبعد ذلك تأسست دور كثيرة متخصصة في ترجمة الكتب الفرنسية بحذافيرها وبكل عقائدها وعاداتها ، وقد أدى هذا العمل إلى جنوح طبقات هائلة من الناس إلى دراسة الثقافة الفرنسية ، وهجروا الثقافة الشرعية الإسلامية ففتح بذلك باب شرٍّ على المسلمين لم يغلق حتى اليوم .

ومن انحرافاته أنه كان يدعو إلى تقنين الشريعة على هيئة المدونات الأوربية ، ويدعو إلى منع تعدد الزوجات وتحديد الطلاق ، والدعوة إلى اختلاط الجنسين[1] .

وقد كان علماء السلف - رحمهم الله - يحذرون من مطالعة كتب الكفار والقراءة فيها وتعاطي علومهم لعلمهم بتأثيرها على الناس .

ولا يخفى ما أفسده علم الكلام من عقائد المسلمين ، وكانوا يشنّعون على من يتعاطى هذا العلم أشد التشنيع وما ذاك إلا لمفاسده الدينية .

ثم نقول للدكتور: ما هذه النتيجة التي ستجنى من هذا العلم؟ هل هي تقرير أن الكفار يعادون الإسلام وأهله ويخططون للنيل منه. فنقول: أرح نفسك فقد جاء في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبين ذلك بنصوص صريحة. قال تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠] .

وقوله سبحانه: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة:١٠٩] .

وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة:٣٢] وغيرها من الآيات كثير.

---

(١) انظر كتاب (الولاء والبراء) للقحطاني ، ص (٤٠٣) .

ومـــن الســـنة قوله عليه الصلاة والسلام من حديث ثوبان رضي الله عنه : **(توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها. فقال قائل : أو مـــن قـــلة نحن يومئذ ؟ فقال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وليترعـــن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت)**[1] ولم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن سبب تداعي الأمم علينا هو قلة فقهنا بالواقع إذْ لدينا نصوص قطعية من الكتاب والسنة تبين أن الكفار يعادون الإسلام وأهله ، وهذا لا يحتاج إلى مزيد توضيح ولا يحتاج إلى إثبات بعد إثبات الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، إذاً ما النتيجة التي سيحصل عليها الدكتور ؟ الله أعلم .

فـــلم يـــبق عـــلى الأمـــة إلا الاستعداد كما أمرهم سبحانه وتعالى فقال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

والإعداد نوعان :

١ - إعـــداد شرعي إيماني ، ويتناول تكميل التوحيد وما يتعلق به وتكميل العبادات وما يتعلق بها ، وترك المحرمات وما يقرّب منها .

٢ - إعداد مادي دنيوي ، وذلك باتخاذ الأسباب الحسية الظاهرة وهو بحسب الاستطاعة وبحسب الحال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

ولا يكفي الإعداد المادي وحده، فهو كما أن العبادات ليست ثمناً للجنة بلا رحمـــة الله فالأســـباب كذلك لا تكفي من غير الإعداد الشرعي الإيماني ، وبحسب كمـــال الإعداد الأول تقل أهمية الإعداد الثاني . وكمال الإعداد الأول يجبر نقص الإعـــداد الـــثاني ، حتى يصل الأمر إلى الكرامة من الله ومن آثارها حصول المنافع الدنيويـــة من غير اتخاذ الأسباب التي تجري العادة باتخاذها . وأيضاً فبكمال الإعداد

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) ، وصححه الألباني .

الأول تحصـــل البركة في الإعداد الثاني ومن أثر البركة قوة الضعيف وكثرة القليل . والأدلة على ما ذكرنا من المعاني لا تعد ولا تحصى . فإذا تقرر ما ذكرناه .

فانظـــر إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقد كانوا في بدر قليـــلي العدد والعدة ، وليس هناك مقارنة بين الفريقين في العدد والعدة ، ولكن الله نصـــرهم عـــلى عدوهم ، وذلك بسبب الإعداد الشرعي الإيماني الذي جبر نقص الإعـــداد المـــادي. وفي يوم حنين كان المسلمون أكثر عدداً وعدة ، فلم يغن عنهم الإعداد المادي شيئاً ، ولم ينصروا حتى أكملوا ما حصل في الإعداد الشرعي الإيماني من نقص . ولا يشك أحد أن الأمة في هذا العصر محتاجة إلى الإعداد الإيماني ، وقد قال ، عليه الصلاة والسلام: (**ولا يغلب اثنا عشر ألف من قلة**)[1] .

والمتأمل لسير الصحابة يعلم أنهم لم يهملوا الأسباب ، ولكنهم أيضاً لم يغلوا في اتخاذها[2] . ولذلك لما انتهى خالد بن الوليد رضي الله عنه من فتنة الردة باليمامة، جـــاءه الأمر من أبي بكر الصديق رضي الله عنه بالذهاب إلى الشام وذلك استعداداً لقتال الروم وفارس وهما من هما . وقد خرج خالد رضي الله عنه بجيشه مباشرة إلى الشـــام ، وجيشـــه في أشد الإنهاك من حرب الردة، وليكون هناك بين فكين . ولم يذكر خالد رضي الله عنه أنه سيعود إلى المدينة ليكمل العدة وليعوض عمَّن قتل من الصحابة في حرب الردة ويخطط في كيفية الذهاب إليهم وقتالهم . ولما أحوجه القتال إلى مزيد من الإمداد أرسل إلى أبي بكر رضي الله عنه يطلبه المدد . فما كان من أبي

---

(١) أخـــرجه أبو داود والترمذي ، كتاب الجهاد ، باب السير . قال الحاكم على شرط الشيخين وسكت عنه الذهبي وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٨٦٠) .

(٢) قـــال ابن رجب في جامع العلوم والحكم عند شرح حديث عمر في التوكل : " ويدل على أن الناس إنمـــا يؤتـــون من قلة تحقيق التوكل ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها ، فلذلك يتعـــبون أنفســـهم في الأسباب ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد ولا يأتيهم إلا ما قدر لهم ، فلو حققوا التوكل على الله بقلوبهم لساق إليهم أرزاقهم مع أدنى سبب " .

بكـــر رضي الله عنه إلا أن أمده بالقعقاع بني عمرو التميمي. فقيل لأبي بكر: أتمده برجل وقد أرفض عنه جنده، فقال أبوبكر : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا[1] .

وليس هذا على أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بغريب ، فقد قال عليه الصـــلاة والسلام في أبي طلحة رضي الله عنه : (**لصوت أبي طلحة في الجيش خير مـــن فئة**)[2] . وفي رواية (**خير من ألف رجل**) [3] وقال عليه الصلاة والسلام : **(يأتي على الناس زمان ، يغزو فئام من الناس ، فيقال لهم : فيكم من رأى رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، فيقولون نعم، فيفتح لهم**) إلى أن قال : (**انظروا هل تـــرون فيهـــم أحداً رأى من رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فيوجد الرجل فيفتح لهم به**)[4] .

فما أحوج الأمة الآن إلى الاقتداء بأسلافهم والاهتداء بهديهم، لعله ينالهم من العزة والتمكين ما نال أسلافهم خصوصاً أن الله ضمن لنبيه صلى الله عليه وسلم أن لا تستباح بيضة أمته ولو اجتمع عليها من بأقطارها[5] .

وفي ص (٣٠) وتحت عنوان القدرة على الربط والمقارنة والتحليل قال :

[هناك عناصر أساسية للوصول إلى حقائق الواقع وتوقع المستقبل ، وهي:

١ – جمع الأخبار والمعلومات .

---

(١) انظـــر : الكـــامل لابـــن الأثـــير (٢ / ٢٦٢) والقعقاع بن عمرو التميمي ، أحد فرسان العرب المشهورين وأبطالهم في الجاهلية والإسلام، له صحبة، قال أبوبكر: صوت القعقاع في الحرب خير من ألف فارس. شهد اليرموك وفتح دمشق، والقادسية وأكثر وقائع العراق، وسكن الكوفة وشهد صفين مع علي رضي الله عنه، توفي سنة ٤٠ هـــ . انظر كتاب التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٨٣/٣) .

(٢) أخـــرجه أحمـــد (١٢٠٧٩) . والحـــاكم (٣٥٢/٣) ، وقال على شرط مسلم ووافقه الألباني-انظر: السلسلة الصحيحة (١٩١٦) والفئة هي الجماعة أو الفرقة .

(٣) صحيح الجامع (٤٩٥٧).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب: فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .

(٥) أخرجه مسلم (٧٢٥٨) وجميع أهل السنن في كتاب الفتن .

٢ – المقارنة والربط بين الأحداث .

٣ – تحليل المعلومات والوصول إلى نتائجها .

أما الأول فمسألة آلية يستطيعها كثير من العامة .

وأما الثاني والثالث فتحتاج إلى عاملين أساسيين .

الأول: الموهبة، والثاني: الاكتساب .

فلو ضعف أحد العاملين أمكن تداركه بالثاني. ومن هنا فإن قضية المقارنة والربط ثم التحليل مسألة مهمة وأساسية ، وبدونهما تكون النتائج خاطئة. وهذان العنصران لابد أن يبنيا على أساس متين من التأصيل العلمي والتجربة العملية ، مع قدر من الموهبة والذكاء يساهم في تحقيق المناط وتخريجه وتنقيحه] .

أقول وبالله التوفيق :

إن فساد هذا الكلام أظهر من أن يحتاج إلى رد .

ولكن بما أن هذا الزمن زمن العجائب والغرائب والناس فيه يقبلون الكذب أكثر مما يقبلون الصدق، وصار فيه الحق باطلاً والباطل حقاً . فأقول بإيجاز: إن ما يطلبه الدكتور من المكلف هو أمر مستحيل بإجماع العقلاء ، ولو لم يكن لهذا المكلف إلا هذا العمل . بل إن الدول النامية تعجز عن مثل هذا، لما يحتاج إليه من إمكانات مادية وبشرية وتقنية .

والدول المتقدمة دنيوياً أنشات مراكز استراتيجية احتاجت إلى آلاف الموظفين والمتخصصين للقيام بمثل هذا الأمر[1] .

وقد فشلت مؤسسات إعلامية وصحفية كثيرة في العالم عن القيام بمثل هذا العمل لا من حيث الجمع ، ولا التحليل. ومن اطلع على حقائق تلك المراكز

---

(١) جاء في موسوعة السياسة لعبد الوهاب الكيال : " أن عدد العاملين في السافاك الإيراني قبل انحلاله أو تحويله يصل إلى ثلاثة ملايين موظف فما بالك بالدول الأكبر " .

الإســـتراتيجية وقرأ عنها ، وجد ما يذهل العقل . فعلى سبيل المثال فإنك تجد فيها قســـماً متخصصاً في العلاقات بين الدول الإفريقية يحتوي على ملفات متابعة يومية ويتفرع عنه قسم متخصص في العلاقات بين الدول العربية في أفريقيا ، إلى أن تصل إلى أن هناك متخصصين في العلاقات الاقتصادية بين دولتين ، وآخرين متخصصين في الحـــدود بين تلك الدولتين ، وهذا أمر أصبح معروفاً ومسلماً به . ومما يبين أن هذا الأمـــر في غايـــة الصعوبة أن بعض المكتبات في الدول النامية حاولت وضع ملفات سياســـية عن القضايا السياسية العالقة، أو الأزمات السياسية في العالم ، وفشلت في هـــذا مع أن الأمر مجرد تجميع معلومات صحفية ليس إلا ، دونما بحث عن مصداقية تلك المعلومات أو تحليلها !

وفي ص (٣٠) تكلم عن مسألة الربط والتحليل يعني بين الأخبار ثم قال : **[وموضـــوع الـــربط والمقارنـــة والتحليل عملية معقدة متشابكة تخضع لعدة اعتبارات ومجموعـــة عوامـــل ، تختلف من واقع لواقع ، ومن حدث لحدث ، ومن زمن لزمن . ولســـت هنا في سبيل بيان ذلك وشرحه ، وإنما أردت أن أؤكد على أهمية هذا المقوم ، وعدم الغفلة عنه ، ومدى تأثيره سلباً أو إيجاباً على فقه الحاضر ورؤية المستقبل ، و(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)] متفق عليه. البخاري ١٥/١ . مسلم (١٠٣٧) .**

أقول وبالله التوفيق :

فكما ترى أيها القارئ الكريم فقد جعل الدكتور ناصر عملية تجميع الأخبار السياسية والربط بينها وتحليلها من الدين وذلك أنه بعد ما ذكر أهمية الربط والمقارنة والتحـــليل ومـــدى تأثيرهـــا قال : (ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[1] . والاستدلال بهذا الحديث في غير موضعه البتة .

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب العلم ، باب: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . وقد ورد عند ابن ماجة بلفظ (الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) قال الألباني حسن . وما أكثر اللجاجة في هذا الزمان .

ومـــن قـــرأ في كـــتب المبتدعة ليرد عليهم لم يكن نظره في هذه الكتب من الدين ، وقتل المسلم الذي تترس به العدو ليس من الدين ، وإن كان جائزاً .

فإن كان يعتقد أن تجميع هذه الأخبار والمقارنة بينها وتحليلها من الدين الذي يســـتدل بالحديث من أجله، فقد أبعد النجعة وشابه أهل التحسين والتقبيح الذين جعلوا الدين تبعاً لعقولهم والعقل ليس من مصادر التشريع إجماعاً .

والحديث معناه واضح ، وقد ذكر ابن حجر رحمه الله في الفتح رواية عند ابن أبي عاصم حكم عليها أنها حسنة تبين المراد ولفظها : (من يرد الله به خيراً يفهمه في الديـــن) فالفقـــه في الديـــن والفهم فيه بمعنى . وقال : " المراد الفهم في الأحكام الشرعية " ، وقال أيضاً : " وفيه فضل التفقه في الدين على سائر العلوم " .

والدين كما يقول أهل اللغة هو الطاعة .

وينحصر في الإسلام لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمـــران: ١٩] إن شئت فقل إن الدين هو كل ما يطاع الله به مقيداً بما ورد في القرآن والسنة .

إذاً فهل يصح أن يجعل الدكتور تلك الأمور من الدين ، أي من الطاعات التي يتقرب إلى الله بها وهو لا يملك دليلاً على ذلك ، ولم يسبق أن أحداً من أهل العلم قال بقوله .

وفي ص (٣٢) وتحت عنوان التفاعل الإيجابي مع الواقع قال :

[مـــن أجل أن تفقه الواقع لابد أن تعيش هذا الواقع ، أن تكون عنصراً متاثراً ومؤثراً فيه] .

وبالجملة فقد تكلم في هذه الصفحة بكلام أشبه ما يكون بألغاز العامة .

فإنـــه لم يبين فيه مقدار هذا التفاعل وهذا التأثر والتأثير ، ولم يبين ضوابطه وحدوده . فإن هذا التفاعل قد يصل بصاحبه إلى مخالفة الشريعة وقد يحاول تغيير هذا الواقع بغير الطرق الشرعية ولا يخفى ما في ذلك من المفاسد .

فقـــد يكون هذا التفاعل عن طريق إنشاء أحزاب معارضة أو جماعات سرية تسعى لتحقيق أهدافها بأية وسيلة ولو كان في ذلك من المخالفات الشيء الكثير .

أو عن طريق استخدام العامة في التأثير على القرارات السياسية ، وذلك عن طريق المظاهرات والتجمعات الغوغائية التي هي مرفوضة في الإسلام وقد أفتى بعدم جوازهـــا فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز وفضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمهما الله .

وقد يكون من آثاره تهييج العامة على ولاة الأمور ولا يخفى ما يقع بسببه من المفاسد والفتن العظيمة ؛ فإن العامة يعلمون ما لهم ولا يعلمون ما عليهم وإن علموا تجاهـــلوا ، بســـبب الهوى . وبهذه المناسبة فإني أذكر كلاماً للشيخ حافظ الحكمي – رحمـــه الله – يبين فيه ما الواجب لولاة الأمور ؟ فقال : " الواجب لهم النصيحة بموالاتهـــم عـــلى الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم برفق ، والصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم وإن جاروا ، وترك الخروج بالسيف عليهم ما لم يظهـــروا كفـــراً بواحاً وأن لا يغرّوا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح والتوفيق .

والأدلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (**اسمعوا وأطيعوا وإن تأمَّر عليكم عبد**).
وقال صلى الله عليه وسلم : (**من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة الجاهلية**) .

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه : (**دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعســـرنا ويســـرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**) .

وقـــال صـــلى الله عليه وسلم : (**إن أُمِّر عليكم عبد مجدع أسود يقودكم بكـــتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا**) وقال صلى الله عليه وسلم : (**على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**) وقال : (**إنما الطاعة في المعروف**) وقال صلى الله عليه وسلم : (**وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع**) وقال صلى الله عليه وسلم : (**من خلع يداً من طاعـــة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهـــلية**) وقال صلى الله عليه وسلم : (**من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهم جميـــع فاضربوه بالسيف كائناً من كان**) وقال صلى الله عليه وسلم : (**ستكون أمـــراء فتعرفون وتنكرون فمن كره برئ ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع، قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال: لا ما صلوا**) وغير ذلك من الأحاديث وهذه كلها في الصحيح"[1] .

وسوف أذكر بعض الأحاديث والنقولات تتمة للفائدة .

عن وائل بن حجر رضي الله عنه قال : سأل مسلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمـــنعونا حقـــنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه، ثم سأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم**)[2].

وعـــن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : (**إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها !**) قالوا : يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : (**تؤدون الحق الذي عليكم ، وتسألون الله الذي لكم**)[3].

---

(١) انظر كتاب (٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة الإسلامية) ص (١٢٨) . أما الأحاديث فانظرها في صحيح البخاري، كتاب الأحكام . وصحيح مسلم ، كتاب الإمارة .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإمارة .

(٣) متفق عليه ، البخاري ، كتاب الأحكام ، مسلم ، كتاب الإمارة .

وعـــن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(مـــن أطـــاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن يُطِعْ الأمير فقد أطاعني، ومن يَعْصِ الأمير فقد عصاني)**[1] .

وعـــن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**من أهان السلطان أهانه الله**)[2] .

قال الإمام أحمد في كتاب أصول أهل السنة من رواية عبدوس العطار :

" ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كانوا اجتمعوا عليه ، وأقروا له بالخلافـــة بأي وجه كان بالرضا ، أو الغلبة ، فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين ، وخـــالف الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن مات الخارج عليه مات ميـــتة الجاهلية ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس ، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق "[3] .

وفي ص (٣٤) وتحت عنوان :

سادساً : حسن اختيار المصادر : قال :

[مشـــكلة فقـــه الواقع تباين مصادر ...] إلى أن قال : **[وبهذا يعيش المتخصـــص في هـــذا العلم في حيرة من أمره كيف يختار هذه المصادر ويتعامل معها ...]**

---

(١) متفق عليه ، البخاري ، كتاب الأحكام. مسلم ، كتاب الإمارة .

(٢) أخـــرجه الترمذي ولكن بلفظ (سلطان الله في الأرض) والحديث في السلسلة الصحيحة (٢٦٩٦) وهـــذا من تمام وكمال الشريعة الإسلامية، ولذلك فإن العقلاء من جميع الأمم يقرون هذا. فقد قال الكـــاتب الفرنســـي تيري بريتون: إن من أسباب نجاح اليابان وتقدمها هو الاستقرار السياسي وهو ناتج عن الالتفاف حول الإمبراطور والانقياد له. ذكرت هذا مجلة القافلة ولا يحضرني الآن رقم العدد .

(٣) لا يحـــل قـــتاله ولا الخروج عليه إلا أن يظهر منه كفر بواح . فيجب على أهل الحل والعقد عزله، وتنصيب الأصلح؛ ولكن بشرط الاستطاعة وعدم إحداث مفسدة أكبر وأعظم من المصلحة المرجوة. انظر كتاب شرح العقيدة الطحاوية ص (٣٨١) .

ولكـــن الدكتور ناصر لم يُبعد هذه الحيرة عن المتخصص[1] في هذا العلم و لم يـــبين له طريقة اختيار المصادر، ولكن اكتفى بذكر صعوبة الاختيار وأهميته . و لم يتطرق إلى كيفية الاختيار والطريقة الصحيحة في ذلك . وهذه نقطة مهمة يجب عليه بيانهـــا على الوجه الصحيح ، وخصوصاً أنه ذكر أنها قد تسبب انحرافاً في العقيدة[2] أضـــف إلى هذا كله علمه بان أكثر الأخبار التي يتداولها العالم : إنما هي من مصادر غـــير موثوق بها ؛ لأنها من دول كافرة . وقد ذكر هو ذلك في كتابه البث المباشر حيـــث قال : " ذكر الدكتور محمد عبده يماني أن منظمة اليونسكو أجرت دراسة اتضـــح من خلالها أن ٩٠٪ من الأخبار التي يتناقلها العالم من إنتاج خمس وكالات عالمية فقط ، وهي : (أسوشيتد برس) و(يونايتد برس) و(وكالة الصحافة الفرنسية) و(رويـــتر) و(تاس السوفيتية) والأوليان أمريكيتان والثالثة فرنسية والرابعة بريطانية والخامسة سوفيتية "[3] .

وما دام أنه يعرف ذلك (أن معظم الأخبار من دول كافرة) كان الواجب عليه أن يوضح طريقة الاختيار والانتقاء إن كانت هناك طريقة ؟ والأمر كما ترى ، لا تستطيع أن تقول : إن أمريكا أصدق من فرنسا ، أو أن هذه الوكالة أصدق من هذه الوكالة ؛ ولذلك سكت الدكتور ناصر عن هذا .

وقد أعجبني فضيلة الشيخ العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله عـــندما أدرك هذه الحقيقة[4] ، فقال : إن من السياسة ترك السياسة . فتدبرها فإنها كلمة حكيمة وخصوصاً في هذا العصر . وذلك لأن الناس اشتغلوا بها وتركوا العلوم الشرعية والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل .

---

(١) ليعلم القارئ الكريم أنه لم يعرف أن أحداً من الصحابة أو التابعين أو أئمة الدين المشهود لهم بالخيرية تخصص في هذا العلم ، أو حثّ على التخصص فيه . فتنبه .

(٢) من شريط فقه الواقع .

(٣) انظر كتاب البث المباشر ، لناصر العمر ص (٤٥) .

(٤) الحقيقة أن معظم الأخبار السياسية هي من مصادر غير إسلامية ، بل هي من دول همها هدم الإسلام وتضليل المسلمين .

وفي ص (٣٦) وتحت عنوان :

الآثار الإيجابية لفقه الواقع قال :

[بـــل لا أعدوا الحقيقة إذا قلت : إن مستقبل الأمة قد يتوقف على مدى فقه الواقـــع ، والتعامل معه . فقد تتخذ مواقف مصيرية ، لم تبن على أسس علمية ، تؤدي بحياة الأمة إلى مهاوي الردى ، وكم من موقف اتخذ في حياة أمتنا المعاصرة لم يستمد من شريعتنا أذاقنا الذل والهوان] .

أظن أن كل منصف من طلبة العلم يشاركني في أن هذا الكلام وهو قوله : إن مستقبل الأمة قد يتوقف على مدى فقه الواقع والتعامل معه ، فيه مبالغة عظيمة وتفخيم هائل لهذا الأمر .

بل أقول: لو كان الأمر بهذه الأهمية التي وصفها الدكتور ، لبينه لنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أو في سنة نبيه الكريم بياناً واضحاً شافياً .

ومـــن المعلوم من الدين بالضرورة أن الشرع كامل ، وأن القرآن والسنة بينا للمكلف كل أمر يحتاجه في هذه الدنيا . فكيف يعقل أن يُهمل هذا الأمر وهو متعلق بالأمة كافة و لم يرد فيه شيء لا في القرآن ولا في السنة .

وقد قال تبارك وتعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩] .

قال ابن كثير رحمه الله : " قال ابن مسعود رضي الله عنه : قد بُيّن لنا في هذا القـــرآن كـــل علم وكل شيء ، وقال مجاهد : كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق ، وعلم مـــا ســـيأتي ، وكـــل حلال وحرام وما الناس محتاجون في أمر دنياهم ، ودينهم ، معاشهم ومعادهم " .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الكهف: ٥٤] . قال ابن كثير رحمه الله

تعـــالى : " يقـــول تعـــالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها كي لا يضلوا عن الحق ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان ، وهذا الفـــرقان ؛ الإنسان كثير المجادلة ، والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله ، وبصره لطريق النجاة " .

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] أي مبيناً لكل شيء . وأما السنة فهي أيضاً كاملة شاملة، وقد شهد الصحابة رضى الله عنهم أجمعين على ذلك .

وقد مرّ قول أبي ذر رضي الله عنه : " ولقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يقلب طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً "[1] .

وقـــال ســـلمان رضي الله عنه عندما قيل له : علّمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة ؟ قال " أجل: ... "[2] . وذكر ابن جرير في كتاب " تهذيب الآثار " له عن مـــالك قال : " قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تم هذا الأمر واستكمل ، فإنمـــا ينبغي أن تتبع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تتبع الرأي " . إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة في هذا الباب .

والخلاصـــة : أن هناك سؤالاً يجب أن يطرح على الدكتور وهو : ما دام أن مســـتقبل الأمة متوقف على فقه الواقع ، فأين الدليل من الكتاب أو السنة على ما تقول ؟ ونترك الإجابة له .

وفي ص (٣٧) وتحت عنوان إحكام الفتوى وإتقانها قال :

[أشار ابن القيم رحمه الله تعالى إلى أهمية فقه الواقع للمفتي والحكم على الشيء فرع عن تصوره كما قرر العلماء] ثم ذكر أن ذلك في كتاب إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم – رحمه الله – دون ذكر الصفحة .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ، وابن جرير، وهو في مسند الإمام أحمد (٢١٣٥٥) .

(٢) سبق تخريجه .

قبل أن أتكلم على هذه المسألة أود أن أنقل كلام ابن القيم رحمه الله ليكون القارئ على بينة من أمره .

يقول رحمه الله في كتابه إعلام الموقعين وتحت عنوان :

خطـــاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري – رضي الله عنهما – في القضاء وشرحه .

قـــال : " ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم : أحدهما :

فهـــم الواقع ، والفقه فيه، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يحيط به علماً .

والنوع الثاني : فهم الواجب في الواقع ، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه ، أو على لسان رسوله في هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهـــده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً : فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقـــع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ، كما توصل شاهد يوسف بشق القميص من دبر إلى معرفة براءته وصدقه وكما توصل سليمان عليه السلام بقوله : "ائـــتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما " إلى معرفة عين الأم ، وكما توصل أمير المؤمنين علي عليه السلام بقوله للمرأة التي حملت كتاب حاطب لما أنكرته: لتخرجنّ الكـــتاب أو لنجردنك؛ إلى استخراج الكتاب منها ، وكما توصل الزبير بن العوام بتعذيب أحد ابني أبي الحقيق بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دلهم على كنز حييّ لما ظهر له كذبه في دعوى ذهابه بالإنفاق بقوله : المال كثير والعهد أقرب من ذلـــك ، وكمـــا توصل النعمان بن بشير بضرب المتهمين بالسرقة إلى ظهور المال المسروق عندهم ، فإن ظهر وإلا ضرب من اتهمهم كما ضـــربهم، وأخبر أن هـــذا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم "[1] .

---

(١) إعـــلام الموقعـــين لابن القيم (٨٧/١) باب القضاء . طبعة دار الفكر . وكرر الكلام نفسه في كتاب (بدائع الفوائد) (١١٧/٢) وكرره أيضاً في (١٢/٤ – ١٤) . طبعة دار الفكر .

مـــا قالـــه ابن القيم حق وهو موافق للشرع والعقل وعليه أهل العلم والقضاء . ولذلـــك تجـــد بعض القضايا في المحاكم منذ زمن طويل لم يبت فيها بحكم ، نظراً لأن الصورة لم تتضح أمام القاضي فيتأخر الحكم في بعض القضايا إلى عشرين وثلاثين سنة .

فإدراك واقع القضية أمر مهم في الحكم على هذه القضية بذاتها . وإن شئت فقل معرفة واقع الشيء مطلوب عند إرادة الحكم عليه وليست هذه القاعدة خاصة بأمور الشرع فقط بل هي عامة على كل واقع يراد الحكم عليه وخذ على هذا بعض الأمثلة لتوضيح ذلك :

فـــلو ذهـــبت إلى الطبيب وأخبرته أن عندك طفلاً مريضاً في البيت وتريد له علاجاً . فإن الطبيب حتماً سيقول لك أحضره إلي لأكشف عليه وذلك لمعرفة واقع المريض بقياس درجة الحرارة والضغط وفحص الدم ونحوه ، وبعد معرفة حالة المريض (واقعه) يمكن أن يصف له الدواء المناسب .

وكذلك رجل المرور لا يستطيع أن يحكم على أحد السائقين أنه مخطئ أو غير مخـــطئ حـــتى يـــرى الحادث في موقعه والسيارتين على حالتهما . وهذا معروف ومشاهد .

ولتمام الإيضاح لابد من معرفة أمرين مهمين هما:

الأول : أنه يوجد عوامل تؤثر في الحكم على الواقع مثل ارتفاع حرارة الطفل في المـــثال الأول ، وتحريك إحدى السيارتين في المثال الثاني وهذه العوامل بلا شك تؤثر في الحكم على الواقع والدليل على ذلك أنه بتغيرها يتغير الحكم على هذا الواقع .

الثاني : أن معـــرفة بعض الواقع لا تؤثر على الحكم في هذا الواقع، فمثلاً: لو كان اسم الطفل المريض في المثال الأول زيداً أو عمرواً فإن هذا لا يؤثر في الحكم ؛ لأن الطبيب لا يهمه اسم الطفل عمرواً كان أو زيداً .

وفي المـــثال الـــثاني فإن اختلاف ألوان السيارتين أو اتحادهما فيه لا يؤثر عند رجل المرور بشيء .

فتنبه إلى هذا الكلام البسيط لأننا سنحتاج إليه فيما بعد لتقرير مسألة مهمة . فإذا علم هذا فإن الحكم على القضايا الشرعية يحتاج إلى معرفة واقعها لدى القاضي وهذا من باب أولى، وهو مُقرر شرعاً وعقلاً .

ولذلك فإن القاضي يتم له الأمر في حكمه إذا كان ملماً بالشرع وعنده حسن فهم وفطنة وذكاء ومعرفة لأحوال الناس . ولذلك كان عمر رضي الله عنه يحرص على أن يكون من يعينه في منصب القضاء صاحب ديانة وفطنة وفي قصته مع كعب بن سور شاهدٌ على ذلك ولولا الإطالة لذكرناها[1] .

وإذا عدنا إلى كلام ابن القيم رحمه الله المذكور آنفاً واستدلال الدكتور به لوجدنا اختلافاً كبيراً وتبايناً واضحاً . وإليك بعض وجوه الاختلاف .

١ - إن الباب الذي يتكلم فيه ابن القيم رحمه الله هو باب القضاء وأهمية فقه واقع القضية للقاضي ، والباب الذي يتكلم فيه الدكتور هو باب السياسة وبذلك فهو يريد نقل الاستدلال من نطاق القضاء والقضايا المحددة إلى الواقع السياسي الذي ليس له ضوابط ولا حدود والفرق واضح لدى طالب العلم .

٢ - إن فقه الواقع (فقه القضية ومعرفة أحوالها) ضروري للقاضي ومع هذا فإن الفقهاء لم يشترطوا أن يكون القاضي فقيهاً بالواقع مع الحاجة إليه لأن هذا الواقع ليس محدداً[2] .

ثم إنه كلما كان أعلم بالشرع وأصوله كلما قلت حاجته إلى فقه الواقع في القضية .

---

(١) ذكرها ابن الجوزي في كتاب " الأذكياء " . وملخصها : أن امرأة أتت تشكي زوجها ففهم منها ما لم يفهمه عمر ، وأمره عمر بسبب ذلك أن يقضي لها فقضى لها فأعجب عمر بقضائه وفطنته فعينه قاضياً في البصرة .

(٢) ومن كتاب الروض المربع قال : ويشترط في القاضي عشر صفات وهي: أن يكون بالغاً ، عاقلاً ، ذكراً ، حراً ، مسلماً ، عدلاً ، سميعاً ، بصيراً ، متكلماً ، مجتهداً وفي الأخير خلاف والراجح أنه لا يشترط. قال شيخ الإسلام : وهذه الشروط تعتبر حسب الإمكان وتجب ولاية الأمثل فالأمثل إلى أن قال : ولا يشترط أن يكون القاضي كاتباً أو ورعاً أو زاهداً أو يقظاً ! وهي الشاهد .

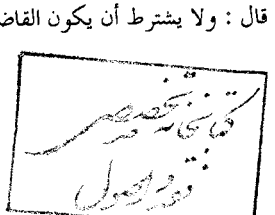

٣ - إن الدكـــتور لو تأمل كلام ابن القيم رحمه الله والأمثلة التي استدل بها لعـــلم أنهـــا رد عـــليه بل هي صريحة في اتباع الشرع لا اتباع فقه الواقع . فالقصة الأولى[١] التي ذكرها ابن القيم وهي قصة شاهد يوسف وكيف استدل بقد القميص من دبر على براءة يوسف عليه السلام .

فـــإن ابن القيم لم يوفق في ضربها مثلاً وذلك لأنه قيل: إن الشاهد هذا طفل تكلم في المهد، وروي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة رضى الله عنهما وكذلك عن هـــلال بـــن يساف وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبياً في الدار، واخـــتاره ابن جرير . وقد ورد في حديث مرفوع قال ابن جرير : حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا حماد وهو ابن سلمة أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (**تكلم أربعة وهم صغار ، فذكر شاهد يوسف**)[٢] .

وجزم به السهلي للحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر من تكـــلم في المهد . والحديث المشار إليه هو الحديث السابق (تكلم أربعة وهم صغار منهم شاهد يوسف) .

والحديـــث أخرجه أحمد والبزار والطبراني والبيهقي في الدلائل وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه وسكت الذهبي عنه وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به. وحســـنه الحافظ في الفتح وصححه السيوطي في الدر المنثور والشيخ أحمد شاكر. والعلة فيه اختلاط عطاء بن السائب ولكن نص بعض الحفاظ على أن سماع حماد بن سلمة كان قبل الاختلاط . وتوقف فيه الألباني[٣] لكنه قال : " ثم إن ظاهر القرآن

---

(١) من هنا تحول الكلام لنقاش ابن القيم رحمه الله في الأمثلة التي ساقها مستدلاً بها على أهمية فقه الواقع. والحق أن الأمثلة التي ساقها صريحة في إتباع الشرع وليست من باب فقه الواقع .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير .

(٣) السلسلة الضعيفة (٢/ ٢٧٣).

في قصة الشاهد أنه كان رجلاً لا صبياً في المهد . إذ لو كان طفلاً لكان مجرد قوله إنها كاذبة كافياً وبرهاناً قاطعاً ، لأنه من المعجزات ، ولما احتيج أن يقول: "من أهلها"، ولا أن يأتي بدليل حي على براءة يوسف عليه السلام ، وهو قوله : ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يوسف: ٢٦-٢٧] .

قلت : أولاً الطفل لم يقل إنها كاذبة حتى نقول إنها كافية ولكنه أرشد إلى دليل محسوس لحكمة وهذا ليس بغريب. فصاحب جريج لم يقل له أنت لست بأبي ولكنه قال : أبي راعي الضأن أو الغنم وسيعرفون ذلك أيضاً بالشبه والقرائن عندما أحالهم إليه وهذا دليل محسوس أيضاً .

ثم إن النفي ببينة أقوى وأوقع في النفس من النفي بدونها، وفي عالم الجريمة الدليل الداخلي أقوى من الخارجي والمقصود بالداخلي ما كان من واقعها .

وتأمل قصة الذي كان يقاتل مع المسلمين أشد القتال ومع ذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه في النار وهو الصادق المصدوق ومع ذلك فقد تبعه صحابيان يرمقانه حتى أصيب بجراحة فقتل نفسه.و لم يكن تتبع الصحابة له عن شك في خبر النبي صلى الله عليه وسلم ولكنه زيادة في اليقين و لم ينكر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ [البقرة: ٢٦٨] قال ابن كثير: "أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة " . وقال البغوي : " ليس ذلك من الشك ولكن من قبيل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال " .

قلت : مصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : (**ليس الخبر كالمعاينة**)[1] .

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٤٦) وغيره بسند صحيح .

وتـــأمل قصة الملكين اللذين تساءلا عن حال النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : " إنه مطبوب " - أي مسحور - وكان ذلك كافياً ولكن الآخر سأله : "مـــن طبه " قال: " لبيد بن أعصم " ثم قال أيضاً : " في أي شيء " . قال : " في مشط ومشاطة وجُفّ طلعة ذكر " قال وأين هو ؟ قال : " في بئر ذروان "[1] .

ولـــذا نقـــول: إن إحالة شاهد يوسف عليه السلام مع أنها معجزة إلى أثر محســـوس من واقع الجريمة هو بعض المعاينة ، ولا يزيد المعجزة إلا قوة، ثم هو يمحو الشكوك ويردها . وفي الجملة هو من جنس الأمثلة المذكورة سابقاً وبهذا يتضح عدم وجاهة ما قاله الشيخ الألباني رحمه الله .

فـــإذا صـــح أن الشاهد طفل وهو الراجح للحديث المذكور،كانت معجزة جعلها الله على لسان هذا الصبي لبراءة يوسف عليه السلام .

ولذلك لا يصلح أن يقاس عليها أو تضرب مثلاً مع باقي الأمثلة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله .

أمـــا القضـــية الثانية التي ذكرها ابن القيم رحمه الله، فهي قصة سليمان عليه الســـلام وكيفية استدلاله في الحكم على أن الأم هي الصغرى، وذلك عندما قال : (ائـــتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما) فقالت الأخت الصغرى: لا تفعل بل هو ابنها . فعلم بذلك أنها أمه لأن الأم لا يطاوعها قلبها في قتل ابنها[2] .

وقـــد نســـي ابـــن القـــيم أن هذا فهم من الله آتاه سليمان وذلك بقوله سبحانه: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ ﴾ [الأنبياء: ٧٩] .

ملحوظة : أن فهم سليمان كان في مسألة الغنم التي نفشت في الحرث.

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الطب ، باب السحر .

(٢) القصة في الصحيحين ، البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب (ووهبنا لداود) . ومسلم ، كتاب الأقضية، باب (اختلاف المجتهدين) .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره : " قلت: أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف " .

ولذلك نقول: لا يقارن حكم الأنبياء بحكم غيرهم من الناس ؛ لأنهم معصومون وغيرهم غير معصوم .

وبالجملة فحكم سليمان عليه السلام كان تفهيماً من الله كما هو نص الآية وليس من فقه الواقع في شيء .

أما القصة الثالثة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله ، فهي كيفية توصل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى استخراج كتاب حاطب[1] من المرأة التي حملته بقوله لها لما أنكرته: لتخرجن الكتاب أو لنجردنك .

أقول وبالله التوفيق :

قال الله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٠] .

فالرسول عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، وإنما يتبع ما يوحى إليه كما هو ظاهر الآية وكما دلت عليه آيات أخر .

ولذلك ما كان للرسول عليه الصلاة والسلام ليعلم عن كتاب حاطب الذي أرسله مع المرأة ، لولا أن أوحى الله إليه بذلك .

وكذلك علي رضي الله عنه ما كان ليعلم عنه لولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبره بذلك ، وأمره أن يلحق بالمرأة .

---

(١) هو الصحابي حاطب ابن أبي بلتعة رضي الله عنه ، من أهل بدر وقصته مشهورة وهي في الصحيحين، البخاري ، كتاب الجهاد ، باب: الجاسوس . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب: من فضائل أهل بدر رضى الله عنهم .

قال علي رضي الله عنه كما في صحيح البخاري : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد وقال : (**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها**) .

وعليه فإن فعل علي رضي الله عنه مع المرأة إنما هو طاعة للرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً له . وهذا يتضح بقوله كما في إحدى الروايات المذكورة في كتب السيرة[1] : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا يعني في تصديقنا للرسول عليه الصلاة والسلام .

والخلاصة : أن علياً رضي الله عنه اتبع الشرع وذلك بطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام بتنفيذ المهمة التي أمره بها . وليس لفقه الواقع دخل في ذلك .

وليست القصة الرابعة التي ذكرها ابن القيم عن أخواتها ببعيد . الزبير بن العوام (وتعذيبه أحد ابني أبي الحقيق بأمر[2] رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دلهم على كنز حييّ لما ظهر له كذبه في دعوى ذهابه بالإنفاق بقوله : المال كثير والعهد أقرب من ذلك) .

أقول وبالله التوفيق :

قصة تعذيب الزبير رضي الله عنه لابن أبي الحقيق مأخوذة من كتب السيرة ولم ترد في شيء من كتب الصحاح أو السنن . ولكن أورد أبو داود في سننه حديثاً ولم يذكر فيه قصة التعذيب فقال في حديث ابن عمر رضي الله عنه : (**إن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل أهل خيبر فغلب على النخل والأرض ، وألجأهم إلى**

---

(١) انظر سنن البيهقي (١٤٧/٩) .

(٢) قال ابن القيم رحمه الله : " إن الزبير عذّب ابن أبي الحقيق بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم " . وما دام أنه بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام فلا أدري لماذا جعله من فقه الواقع . وغاية ما في الأمر أنه امتثل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فقهاً منه رضي الله عنه . وقد كرر ابن القيم القصة في كتاب " بدائع الفوائد " وذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الزبير بذلك .

قصورهم ، فصالحوه على أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء والبيضاء والحلقة ، ولهم ما حملت ركابهم ، على أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيبوا مسكاً لحيي بن أخطب ، وقد كان قتل قبل خيبر ، كان احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت النضير ، فيه حليهم ، قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعية[1] : (أين مسك حييّ بن أخطب ؟) قال: أذهبته الحروب والنفقات ، فوجدوا المسك ، فقتل ابن أبي الحقيق وسبي نساءهم وذراريهم وأراد أن يجليهم : فقالوا يا محمد دعنا نعمل في هذه الأرض ولنا الشطر ما بدا لك ، ولكم الشطر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين وسقاً من تمر وعشرين وسقاً من شعير)[2] .

أما أبو رافع عبد الله بن أبي الحقيق، ويقال : سلام بن أبي الحقيق فقد روى البخاري في صحيحه قصة قتله فقال : (**بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطاً إلى أبي رافع ، فدخَل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلاً وهو نائم فقتله)[3]** .

وقد روى الحافظ البيهقي حديث أبي داود وزاد عليه : (فدفعه - يعني - ابن أبي الحقيق - رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان حيي قبل ذلك دخل خربة فقال: قد رأيت حيياً يطوف في خربة هاهنا فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي الحقيق)[4] .

وقد يقول قائل: ها هو الحافظ البيهقي ذكر قصة تعذيب الزبير رضي الله عنه لابن أبي الحقيق . (على فرض صحة الحديث) .

---

(١) هو عم حييّ بن أخطب .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الخراج والإمارة ، باب: حكم أرض خيبر ، وقال الألباني : صحيح .

(٣) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي ، باب: قتل أبي رافع .

(٤) أخرجه البيهقي (١٣٧/٩) ولكن في سنده نظر لأن حماد بن سلمة شك عمن يرويه .

أقول نعم :

ولكن لم يوجد المسك بناءً على اعتراف ابن أبي الحقيق لأن رجلاً[1] ذكر لهم أي - للمسلمين - أنه رأى ابن أبي الحقيق يطوف بالخربة فذهبوا فطافوا بها فوجدوا المسك.

وابـــن القـــيم نفسه ذكر ذلك في زاد المعاد فقال : " فدفعه رسول الله إلى الزبير ، فمسه بعذاب وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال : قد رأيت حُيَيّاً ، يطوف في خـــربة ها هنا ، فذهبوا ، فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة ، فقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي الحقيق " ، وقد ذكر ابن القيم أنّ الذي اعترف عليهم بالمال هو ابن عم كنانة ، وكنانة هو ابن أبي الحقيق[2] .

وقال ابن كثير نقلاً عن ابن إسحاق: "فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجـــل من اليهود فقال لرسول الله: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟ قال: نعم. فأمر رسول اللهصلى اللهعليه وسلم بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كترهم[3]. وذكر أيضاً أن أبي الحقيق عذب في بعضه ولكنه لم يذكر أنه اعترف بشيء .

وبالجملة فإنه لو صح تعذيب الزبير رضي الله عنه لابن أبي الحقيق، فإنما ذلك بأمـــر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك ابن القيم نفسه بقوله : وكما توصـــل الزبير بن العوام بتعذيب أحد ابني أبي الحقيق بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما عند ابن اسحاق .

أمـــا القصة الأخيرة أو المثال الأخير الذي ذكره ابن القيم رحمه الله فهو قصة الـــنعمان بـــن بشـــير رضي الله عنه عندما ضرب المتهمين بالسرقة إلى ظهور المال المسروق عندهم، فإن ظهر وإلا ضرب من اتهمهم كما ضربهم ، وأخبر أن هذا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) قد يكون عمّ حيي .

(٢) زاد المعاد (٣/٣٢٦) طبعة مؤسسة الرسالة .

(٣) البداية والنهاية (٣ / ٢٠٠) ، طبعة دار الريان .

قـــبل أن أبـــدأ الكلام عن هذه القصة أذكرها بتمامها ليكون القارئ على بينة.

قال أبو داود : حدثنا عبد الوهاب بن نجدة ، ثنا بقية ، ثنا صفوان ، ثنا أزهر بـــن عـــبد الله الحرازي ، أن قوماً من الكلاعيين سرق لهم متاع ، فاتهموا أناساً من الحاكة ، فأتوا النعمان بن بشير صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ، فحبسهم أياماً ثم خلا سبيلهم ، فأتوا النعمان فقالوا : خليت سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان!! فقال النعمان : ما شئتم ، إن شئتم أن أضربهم فإن خرج متاعكم فذاك ، وإلا أخذت من ظهوركـــم مثل ما أخذت من ظهورهم ، فقالوا : هذا حكمك ؟ فقال : هذا حكم الله وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم [قال أبو داود : إنما أرهبهم بهذا القول ، أي لا يجب الضرب إلا بعد الاعتراف][1] .

ولعل القارئ الكريم علم أن النعمان بن بشير رضي الله عنه صرح بأن الحكم هو حكم الله ورسوله كما هو نص الحديث . وبذلك يكون فقه النعمان رضي الله عنه من باب الفقه في الدين، وليس من باب الفقه بالواقع .

ويؤيـــد ذلك أيضاً ما رواه أبو داود عن النعمان بن بشير في مسألة من يزني بجارية امرأته .

حيـــث قـــال الـــنعمان عندما كان أميراً على الكوفة ورفعت إليه القضية : **(لأقضـــين فيـــك بقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كانت أحلتها لك جلدتك مائة : وإن لم تكن أحلتها رجمتك)**[2] .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الحدود ، باب: امتحان السارق في الامتحان بالضرب . والنسائي ، كتاب الحدود ، باب: امتحان السارق ، قال الألباني : حسن .

(٢) أخـــرجه أبـــو داود ، كـــتاب الحـــدود ، والترمذي وابن ماجه أيضاً ولكن الحديث ضعيف أعل بالاضـــطراب والانقطاع وقد أوردته لأن أحمد وإسحاق احتجا به كما ذكر ذلك الترمذي . وكثيراً ما يوجد في أقوال الصحابة قولهم عن أشياء هذا حكم الله ورسوله وهو من هذا الباب .

وحكم النعمان في هذه المسألة لأنه يعلم نص حكمها من الشرع وليس لفقه الواقع دخل في ذلك . ولولا الإطالة لضربنا أمثلة هي أقرب من الأمثلة التي ذكرها ابـــن القيم، ومن شاء فلينظر في حكم عمر على من وقع على جارية امرأته وحكمه على من عرض بالقذف[1] .

والخلاصة :

أن المـــتأمل المنصـــف لما قلناه يعلم أن الأمثلة التي ساقها ابن القيم رحمه الله صريحة في اتباع الشرع بلا تكلف وليس لها علاقة بما يسمى فقه الواقع.

وليس ابن القيم معصوماً كما قال ابن عباس رضي الله عنه : (كل يؤخذ من كلامـــه ويـــترك إلا صاحب هذا القبر) يريد الرسول عليه الصلاة والسلام . وقال أيضاً: (يوشك أن تنزل بكم حجارة من السماء . أقول لكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبوبكر وعمر)[2] .

وفي الصفحة نفسها (٣٧) قال :

[بيـــنما نجـــد أن الفتوى التي تصدر من علمائنا مبنية على تصور تام للأوضاع الجاريـــة ، وفقـــه عميق للمستجدات تكتسب أهمية قصوى ، ولا تدع مجالاً لطاعن أو مخالف] .

أقول : الحمد لله .

إن الدكتور بهذا الكلام ألزم نفسه إلزامات عديدة لا يستطيع أن يتخلص من أحدها فضلاً عن أن يتخلص منها جميعاً .

ولنبدأ معه على أنه يريد بـــ " علمائنا " أعضاء هيئة كبار العلماء .

---

(١) وكلها مذكورة في الموطأ للإمام مالك . وغيرها كثير .

(٢) أثـــر ابن عباس أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٢٣٩) . وأصله في مسند الإمام أحمد وقال عنه أحمد شاكر صحيح الإسناد .

إن عـــلماءنا الكـــبار - والحمد لله - محل ثقة لدى طلاب الحق من الخاصة والعامـــة في مشـــارق الأرض ومغاربها ، وعدالتهم ظاهرة ، ولا ينازع في ذلك إلا صـــاحب هوى أو غير منصف، وسيرتهم مكشوفة ومعروفة لدى عموم الناس. ولم يتـــبين لي أنـــا شخصياً من حضور دروسهم ومحاضراتهم أنهم أمروا طلابهم بمتابعة التليفزيون والإذاعة والمجلات السياسية أو الاهتمام بالتقارير السياسية أو قراءة كتب السياسيين ومتابعة تحليلاتهم .

إلى غـــير ذلك مما ذكره الدكتور في مصادر فقه الواقع . بل كانوا وما زالوا يحذرون طلاب العلم عن كل ما يشغلهم من هذه الأمور ، عن طلب العلم الحقيقي وهو علم الكتاب والسنة ولهذا فإن فتاواهم صارخة بالتحذير من كل أمر شره أكثر من خيره وضرره أكبر من نفعه . ولو أخذنا التليفزيون مثالاً على ذلك ، الذي جعله الدكـــتور ناصر من أهم المصادر لفقه الواقع لوجدنا الفتاوى الكثيرة من علمائنا في تحريمه والتحذير منه . فها هو سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز يقول فيه : " وأما التليفزيون فهو آلة خطيرة وأضرارها عظيمة كالسينما أو أشد. وقد علمنا من الرسائل المؤلفة في شأنه ومن كلام العارفين به في البلاد العربية وغيرها ما يدل على خطورته وكثرة أضراره بالعقيدة والأخلاق وأحوال المجتمع ، .. " إلى أن قال : "ولا شـــك أن ما كان بهذه المثابة وترتب عليه هذه المفاسد يجب منعه والحذر منه وسد الأبواب المفضية إليه، فإذا أنكره الإخوان المتطوعون وحذروا منه فلا لوم عليهم في ذلك لأن ذلك من النصح لله ولعباده . ومن ظن أن هذه الآلة تسلم من هذه الشرور ولا يبث فيها إلا الصالح العام إذا روقبت فقد أبعد النجعة وغلط غلطاً كبيراً ، لأن الرقيب يغفل ... "[1] .

وكذلـــك صدرت فتوى من فضيلة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله مفادها التحريم بعد أن قدم كلاماً نفيساً في ذلك[2] . وغيرهم كثير .

---

(١) انظر : كتاب الكواشف الجلية لأخطاء بعض الكتاب .

(٢) انظر : كتاب الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتليفزيون تأليف مروان كجك ص (٢٦٢ – ٢٦٥) .

والجميع يعلم فتاوى علمائنا المتناثرة هنا وهناك بشأن التليفزيون ، وليس مقصودي أن أجمع كل ما قيل فيه من فتاوى لأنه أمر ظاهر .

والغريب أن الدكتور نفسه في بعض أشرطته صرح بأنه حرام ولا يجوز إبقاؤه في البيت وإليك بعضاً مما قاله :

قال في شريط " أسباب تخلف المسلمين[1] : " إلى من عندهم هذا الجهاز في بيوتهم ما دمتم بُليتم وبلوتم أنفسكم بإدخال هذه الأجهزة إلى بيوتكم) وقال في شريط التوحيد أولاً : " تجد بعض الناس يخاف من زوجته أكثر من خوفه من الله . نأتي لبعض الناس فنقول له: لماذا جئت بالتليفزيون والفيديو إلى بيتك ؟ قال : والله ، أنا أرى أنه حرام) . ثم قال (ناصر) : طيب يعني يعلم أن الله حرَّم هذا ، طيب إذا كنت تعلم أن الله حرَّم هذا فلماذا جئت به إلى بيتك ؟ ! قال : ماذا أفعل بزوجتي . ماذا فعلت به زوجته هددته "[2] .

وهذا تناقض من الدكتور ، لأن ما حرم استعماله حرم اقتناؤه عند الجمهور ويشمل الحكم جميع المكلفين . ولا يكون حراماً على أناس حلالاً لغيرهم وطلاب العلم هم أولى الناس بالابتعاد عن الحرام . وإلا فكيف يصح أن يكونوا قدوة لغيرهم ؟!

وبالجملة فإن علماءنا الأفاضل ليسوا من أهل الاعتكاف على شاشات التليفزيونات وحاشاهم عن ذلك . وليسوا من أهل الاشتغال بالإذاعات وما يقال فيها . وهم أيضاً ليسوا ممن يجلسون الساعات والساعات لتقليب صفحات الجرائد والمجلات، أو قراءة نشرات وكالات الأنباء وغيرها . بل أوقاتهم محصورة بين طلب

---

(١) في شريط أسباب تخلف المسلمين ، ذكر أسباباً كثيرة و لم يذكر منها : جهلهم بفقه الواقع . وفي شريط فقه الواقع جعل الجهل بفقه الواقع أهم أو أول أسباب تخلف المسلمين !

(٢) قال في هذا الشريط: إن بلادنا هذه تنتشر فيها الخرافات والبدع والشركيات، وقال: إن دروس التوحيد قليلة ولا تكفي: ولا أعلم لماذا لم يشمر هو عن ساعد الجد ويدرس التوحيد ما دام أنه يعرف أهميته ويترك الأمور التي لا تنفع المسلمين بل تضرهم.

العـــلم ونشره أو بالجلوس للإفتاء وإرشاد الناس ومع ذلك هم فقهاء في الواقع كما اعـــترف الدكتور نفسه بذلك حيث قال : " بينما نجد أن الفتاوى التي تصدر من علمائـــنا مبنية على تصور تام للأوضاع الجارية ، وفقه عميق للمستجدات تكتسب أهمية قصوى، ولا تدع مجالاً لطاعن أو مخالف " وهذا الكلام منه طيب . ولكن لا أعلم لماذا انتقد هو ومن على منهجه فتواهم بجواز دخول الجيوش الغربية للمساعدة أثـــناء حـــرب الخليج ؟ وكذلك انتقاده لفتوى الشيخ ابن باز في جواز الصلح مع اليهود ؟

ونعود فنقول: إنهم إذا كانوا بهذه المثابة ، وهم كذلك فلا حاجة إذاً لمصادر فقه الواقع الإعلامية أو السياسية[1] التي ذكرها الدكتور . وعلى من أراد أن يكون مثلهم أن يسلك مسلكهم وينتهج طريقتهم .

وبذلك يتضح أن فقه الواقع الذي ذكره الدكتور ناصر لا يقدم ولا يؤخر ، بـــل هو عبء على طالب العلم ويشغله عما هو أهم منه . وأثبتنا من خلال الكلام اليســـير عن سيرهم أنهم كانوا علماء موثوقاً بهم وبفتاواهم ، بل هم مقدمون على غيرهـــم عـــند العامة والخاصة من غير أن يكون لهم اهتمام بمصادر فقه الواقع التي ذكرها الدكتور .

ولك أن تتساءل كيف أنه صور لنا في كتابه أنه لا يمكن لأحد فقه الواقع إلا إذا تعاطى المقومات والمصادر التي ذكرها، ومع ذلك يقول: إن علماءنا فقهاء بالواقع مع أن كثيراً منهم يحرمون بعض تلك المصادر أو يقولون بكراهتها فضلاً عن تعاطيها. وفي الوقت نفسه أيضاً يوجه الرسالة إليهم مع انتقاداته الكثيرة لكثير من فتاواهم .

ولكـــني أظن أن العلماء الذين يقصدهم الدكتور ناصر بقوله : " بينما نجد الفتاوى التي تصدر من علمائنا ... " هم علماء نصَّبهم الدكتور لهذا المنصب ، وغير العلماء الذين تكلمنا عنهم (أعني أعضاء هيئة كبار العلماء وأمثالهم) .

---

(١) لأن علماءنا لم يهتموا بها ، و لم يلقوا لها بالاً .

والذي دعاني إلى القول بهذا عدة أسباب أذكر بعضها :

١ - أن الدكـــتور أكثر الوقيعة في العلماء إبان صدور فتواهم بجواز دخول جيـــوش التحالف إلى المملكة أثناء أزمة الخليج . فراح يؤلب الشباب على العلماء ويهيجهم وينتقد فتاواهم ويطعن فيها ويرميهم بقلة الفقه في الواقع وأن فتواهم : إنما هي إرضاء للدولة . وأنهم سلموا بلاد المسلمين إلى الأعداء ، وغير ذلك من الكلام المعروف. وقد نقل عنه هذا الكلام كثير من طلابه ومجالسيه، حتى أخبرني بعضهم أن كلامه خروج على السلطان أو يسبب الخروج عليه .

٢ - أن كتاب فقه الواقع : لم يأتِ إلا بعد الفتوى . وهو انتقاد غير مباشر لأنـــه لا يســـتطيع المواجهة ولكنه أراد بهذا الكتاب أو المحاضرة والله أعلم أن يعطي الشباب ولا أقول طلاب العلم حجة واهية مرفوضة ضد علمائهم .

٣ - رميـــه طلاب العلم الشرعي بفرية عظيمة وهي قوله : " اسمحوا لي أن أقـــول: إن العلمنة دخلت على بعض أو على كثير من طلاب العلم[١] . وحجته في ذلك أنهم لم يتكلموا في السياسة وفصلوها عن الدين)[٢] .

أقول : إن العلمنة (بمفهومها المعروف) كفر ، فكيف يرمي طلاب العلم بها! وإذا دخلت العلمنة على طلاب العلم فإن غيرهم قد باضت وفرخت في قلوبهم ولكن طـــلاب العـــلم الشـــرعي الصحيح يتبعون السياسة الشرعية وليس سياسة المقاهي والمنتديات الشبابية والخلوات البرية بخلافه هو ومن على شاكلته . ولا أقول عن هذه الفرية وهي رمي طلاب العلم بالعلمنة إلا ﴿ سُبْحَانَكَ هَـٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ **[النور: ١٦]** .

٤ - قوله في شريط فقه الواقع : " مع كل أسف الآن اسمحوا لي أن أقول : إن أحد الكتاب المشهورين كتب عن علمائنا يقول: (علماء أجلاء فضلاء) هناك

---

(١) وهذه الكلمة تشمل طالب العلم ، والعالم لأن العالم أيضاً طالب علم والعلم ليس له نهاية .

(٢) من شريط فقه الواقع.

عـــلماء نستفيد من بركتهم ، ولا نأخذ فتواهم في السياسة . من أين نأخذ الفتوى مـــنك ومـــن أمـــثالك . إنه يزدري علماءنا . إنه يزدري علماءنا يا إخوة مع كل أسف[1] . إذا وجد العالم الفقيه بأحكام الشريعة ، وبأحكام السياسة بفقه الواقع[2] هذا يوجد مهابة في نفوس الأعداء " .

وهذا طعن غير مباشر والقارئ اللبيب علم مقصودي من غير كلام . ولكن مع هذا سأبينه حتى يتضح للجميع .

عـــندما ذكر أن أحد الكتاب يزدري علماءنا ثم أتبعها بعبارة : " إذا وجد العـــالم الفقيه بأحكام الشريعة ، وبأحكام السياسة بفقه الواقع هذا يوجد مهابة في نفوس الأعداء " .

وهذا يعني أن العلماء ليس عندهم فقه واقع لهذا فقد وقع الكاتب فيهم ، فلو كـــانوا فقهاء شرع وفقهاء واقع لأوجد ذلك مهابة في نفوس الأعداء كما يقول ، فلما كانوا جهالاً بالواقع لم يكن لهم مهابة ، مما أدى بهذا الكاتب أيضاً إلى أن يقع فيهم . كما هو واضح [3] .

ومـــا قاله في الشريط نفسه (فقه الواقع) وهو تأكيد للفقرة السابقة تحت عنوان: الآثار الإيجابية، وهي قوله :

" استخفاف الأعداء بالعلماء والدعاة . الآن كثير من الأعداء والله يستخفون بـــنا وبعلمائنا وبمشايخنا [4] . ثم قال : الآن إذا اجتمع العلمانيون في مجالسهم ، إذا اجتمع الحداثيون في مجالسهم بدأوا يغمزون ويلمزون فيكم [قدم من كان عنده على

---

(١) والقصد من هذا معروف وهو أنهم لا يفقهون الواقع يتضح ذلك من سياق كلامه .

(٢) قد ذكرنا سابقاً أنه يرى أن فقه الواقع هو علم السياسة ، وهذا دليل آخر على ذلك .

(٣) ويؤيـــد هـــذا قولـــه في ص (٩) " وأيقنت أن فقه الواقع علم هجره الكثير من طلاب العلم ورواد الصحوة " وإذا لم يكن العلماء رواد الصحوة فمن يكون إذاً ؟!

(٤) إن تكرار هذا الكلام بمناسبة وبغير مناسبة يدل على القصد وهو الطعن غير المباشر . والله أعلم .

العـــلماء] وفي علمائنا وفي مشايخنا الله الله أغلقوا هذا الطريق عليهم " . أي تعلموا أنتم فقه الواقع ولا تكونوا كهؤلاء العلماء الذين استخف بهم الأعداء لجهلهم بفقه الواقع .

٥ - قال أيضاً تحت عنوان الآثار السلبية لعدم فقه الواقع في الشريط نفسه : " إن هذا يؤدي (يعني عدم فقه الواقع) إلى خلو الساحة من العلماء والدعاة العالمين بمشـــكلات الأمة ومآسيها . فقه الواقع يوجد العلماء الصادقين المخلصين المثابرين ، وفقه النص وحده لا يكفي كما قلت " .

لاحـــظ أن فقه الشرع في نظره لا يكفي ، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**)[1] . فإن قال : أنا أقصد فقه الواقع من الدين ، نقول له : لماذا إذاً فصلت بينهم ؟ فجعلت علماء شرع وعلماء واقع .

ثم لاحظ قوله : إن فقه الواقع يوجد العلماء الصادقين المخلصين المثابرين أما فقه الشرع فهو لا يكفي في نظره ، ولا يوجد علماء صادقين مخلصين مثابرين كما قـــال . وأخشى أن يكون قصده أن فقه الشرع وحده لا يوجد إلا علماء منافقين مداهنين غير مبالين بالدعوة .

وهذا مفهوم المخالفة لكلامه . ولا أقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل وإلى الله المشتكى . ثم أُذَكِّرُ الدكتور وغيره بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رواه عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**)[2].

٦ - قال في كتاب الحكمة[3] ص (٥٦) ما نصه :

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب العلم ، باب: كيف يقبض العلم .

(٣) كتاب للدكتور ناصر طبعته دار الوطن للنشر .

" يعاقبون المفطر في رمضان ، ولكنهم لا يزيلون مظاهر الشرك ولا يأمرون بالصلاة ، فضلاً عن أن يعاقبوا تاركها . يقرأون القرآن في الإذاعة ، وينقلون خطبة الجمعة في التليفزيون ، ولكنهم يتحاكمون إلى شريعة الطاغوت "[1] .

مـــا أشنعه من كلام، وهل نحن في هذه البلاد نتحاكم إلى شريعة الطاغوت وهل العلماء موافقون على التحاكم إلى شريعة الطاغوت ؟! ولكن ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾ [الكهف:٥] وهل يستطيع طالب علم أن يقول مثل كلامه ؟ ولكنه قلة العلم والهوى . وإلا فإن جماعة التكفير والهجـــرة الـــتي لا يعـــلم مدى انحرافها إلا الله لم تقل مثل كلام الدكتور عن هذه البلاد .

كذلك فإن تهمته الأولى وهي أنه لا يؤمر بالصلاة ولا يعاقب تاركها . هذا كلام يخالف الحقيقة فإن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائمة بواجبها ، بل إنَّا نخشى من غلو بعض أفرادها في هذا الجانب .

٧- قال أيضاً في كتاب الحكمة المذكور ص (٥٧) وتحت عنوان: الخلط في مفهوم الفتـــنة ؛ قـــال : "حتى أصبح سيفاً مصلتاً (يعني خوف الفتنة) على رؤوس الداعـــين إلى الله ، الآمـــرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، فكلما أمر آمر بمعروف ، أو نهى ناه عن منكر ، قيل له: أنك تثير الفتنة ، و لم يعلم أولئك أنهم في الفتنة سقطوا ، وكان من نتيجة هذا الأمر ، أن استمرت الأمة تقدم التـــنازلات الواحد تلو الآخر ، وبعض الدعاة ساكتون أو مسكتون خوف الفتنة حتى ضرب الكفر أوتاده في بلاد المسلمين وهذه هي الفتنة الحقيقية .

---

(١) لا يقـــل قائل أنه يريد غير هذه البلاد (المملكة) لماذا ؟ لأن السياق من أول الصفحة يدل على هذا ، ثانيـــاً : ليس هناك دولة في العالم الإسلامي تعاقب المفطر المجاهر في رمضان إلا هذه الدولة . ثالثاً : قـــوله في الصفحة نفسها: وينفعلون إذا خرجت امرأة سافرة عن وجهها . ولا يغضب الناس عموماً عـــن مـــثل هذا العمل إلا في هذه البلاد . رابعاً : قوله: ولكنهم يتجاهلون دخول اليهود والنصارى والوثنيين إلى بلاد المسلمين وإقامتهم بين ظهرانيهم ، يعني الجيوش الأمريكية وغيرها أثناء أزمة الخليج ووجودها في هذه البلاد ولأن اليهود والنصارى هم من السكان الأصليين لأكثر الدول الإسلامية .

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة :١٩٣]" .

والمقصود بهذا الكلام هم العلماء لأنهم هم الذين يأمرون الدعاة وغيرهم بعدم إثارة الفتنة والرفق في الأمور وتجنيب الأمة المخاطر، وهم الذين أوقفوا بعض الدعاة لما سمعوا منهم الكثير من المقالات التي من شأنها إثارة الفتنة .

فها هو الدكتور ناصر يلومهم على هذا وهو يدعي الحكمة ، بل جعلهم في الفتنة ساقطين ، والعياذ بالله . وجعلهم السبب في تنازلات الأمة أمام أعدائها . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٨- وقال أيضاً في كتاب الحكمة ص (٨٧) تحت عنوان النقد وبيان الأخطاء :

"وطائفة أخرى اعتبروا النصيحة فضيحة، والتنبيه عن الأخطاء تجريحاً ، وجعلوا لبعض الأفراد والهيئات والجماعات قداسة لا تمس ، ومنحوهم حصانة لا ترفع ، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم" .

ولكن نقول لك يا دكتور: فرق بين النصيحة وبين الفضيحة واحكم على نفسك. فهل الذي استعملته مع العلماء هو طريق النصيحة؟ أم هو طريق التشهير والانتقاص والطعن عند الصغير والكبير.

والذي يظهر أن مقصوده بالهيئات ، هيئة كبار العلماء لأنه لا يوجد في هذه البلاد سواها. ومعلوم من المقصود بالجماعات إنها الجماعة السلفية الذين يدعون إلى المنهج السليم القويم الذي هو منهج السلف الصالح .

أريد أن أُذكِّر الدكتور بأن علماءنا لم يجعلوا لأنفسهم حصانة ولا قداسة ولا يرضون بذلك . وأيضاً فإن طلاب العلم لم يمنحوهم هذه الصفات . وإن علماءنا على أتم استعداد لتقبل النصيحة من أي ناصح مخلص ، وصدورهم رحبة لأي مناقشة ولم يسكنوا في قصور عاجية بحيث لا يمكن إيصال النصيحة إليهم فإنهم في المساجد يدرسون ، وبعضهم في الجامعات يحاضرون ، بل إنهم هم الذين يستغلون تجمعات الناس ، ويذهبون إليهم لنشر العلم ، والدعوة إلى الله . وهذا أمر واضح.

ثم إن احترام العلماء ، وتوقيرهم مطلب شرعي ، ولسنا بهذا نمنحهم حصانة لا ترفع وقداسة لا تمس كما ذكر الدكتور ، ولكنا نرفض تطاول الجهال ، وصغار طلبة العلم عليهم . لما لهذا الأمر من أضرار لا تحمد عقباها .

وفي ختام هذه الفقرة أقول : إن ما قرأت من عبارات الدكتور هي فقط من محاضـــرتين ، فمـــا بالك لو تتبعت جميع محاضراته ودروسه فإنك ستجد فيها الكثير والكثير . نسأل الله لنا وله الهداية .

وإتماماً للفائدة فإني أقول : لست الوحيد الذي لفتت نظره هذه القضية ، بل وجـــدت كلاماً للكاتب جـــمال سلطان في أحد كتبه[1] موافقاً لما قلناه ، ولكنه بشـــكل أعم وصورة أوسع ، أستسمح القارئ الكريم في نقله وإن كان فيه بعض الطول .

قـــال في كتابه : "هذه الفلول الفكرية التي دلفت إلى الساحة الإسلامية ، قد عايشـــت - في حياتهـــا السابقة - مناخاً فكرياً ونفسياً وأخلاقياً ، تصوغه لغة الالـــتواء والمداهنة ، والخداع ، والنفاق الفكري والسلوكي ، وهي - من ثم - لا تستطيع أن تفصل بين الحوار الفكري وبين التكتيك السياسي - كما سيأتي بيانه - كمـــا أنها لا تدرك أن ثمة قواعد أخلاقية وقيماً عليا تضبط حركة الحوار الفكري ، وتضمن إبراز وجه الحق من بين آراء الخصماء ، لأنها ألفت " الحوار " على الطريقة " الانقلابيـــة " أي العمـــل عـــلى أساس تشويه أصحاب الرأي المخالف ، تمهيداً لإزاحـــتهم نهائيـــاً مـــن قيادة وتوجيه الصحوة الإسلامية فكرياً . لقد فهمت هذه الطوائـــف ، واســـتوعبت أن الخيار الإسلامي ، هو وحده المنوط به قيادة الأمة في المســـتقبل - بإذن الله - ولما كانوا يشعرون في ذواتهم بل ويجهرون بأنهم وحدهم الممثلون " **للعقلانية** " الإسلامية ، وأنهم وحدهم ، الممثلون " **للاستنارة** " الدينية ، وأنهم - وحدهم - الذين يفهمون أصول " **اللعبة** " !!

---

(١) كتاب أزمة الحوار الديني ص (١١ - ١٣)

فقد رأوا - بالتالي - أن التحدي الأكبر لهم ، ليس في القدرة على التحاور مع علماء الأمة ، وإنما في كيفية إزاحة علماء الأمة ودعاتها ورموزها الإسلامية ، لكي يتبوأوا هم ريادة العمل الإسلامي فكراً وممارسة ، وهم لا يستخفون بهذا الأمل وإنما هم يجهرون به الآن من خلال المنتديات التي يشاركون فيها أو الأبحاث التي يطرحونها ، أو المقالات التي ينشرونها هنا وهناك".

ثم ذكر كلاماً حول من يسمون أنفسهم أصحاب " الفكر الإسلامي المستنير". وقال : "هناك فريق منهم يطلقون على ذلك الاتجاه اسم " الوسطية " [1] الإسلامية ، وهم من ثم " الوسطيون " في الفكر الإسلامي المعاصر ، وغير ذلك من اصطلاحات وشعارات ، توحي - من طرف خفي - إلى نزوع أصحاب هذا الاتجاه إلى نفي الآخرين، وتحييد علماء الأمة ورموزها الإسلامية الكبيرة ، وذلك تمهيد ضروري لتحقيق " الانقلاب " الفكري المنشود ، في قيادة وتوجيه الصحوة الإسلامية الجديدة .

وغني عن البيان - أيضاً - أن هذا الاتجاه يلقى ترحيباً ودعماً من أجهزة ذات سلطان نافذ في بعض ديار الإسلام ، بوصفه التيار المأمول فيه أن يحقق حلم التعايش بين الفكرة الإسلامية والقيم الغربية التي اخترقت - في غفلة - المجتمع الإسلامي ، وذلك واضح من تأمل المساحات الإعلامية المتاحة لذلك الفصيل ، والمراكز الاستشارية الهامة التي يتبوأونها في المؤسسات الثقافية والدينية الرسمية ".

ولذلك فإنك تجد في هذه الفترة من الزمن ترويجاً هائلاً لما يسمى بفقه الواقع، ويتم عرضه مزخرفاً ملمعاً إما بالخطبة الحماسية أو المحاضرات الفكرية أو الكتابات التنظيرية .

---

(١) البرهان على أن هذا الاتجاه هو السائد على دعاة اليوم ، كثرة المحاضرات في الوسطية المزعومة . والواقع شاهد على ذلك فكم من محاضرة أقيمت تحت هذا العنوان .

ولكـــن ليعلم شباب الصحوة أن هذا الأمر مزلق خطير ، ومنعطف حاد من شـــأنه أن يحـــول مسار الصحوة عن طريقها الصحيح ، وأحذرهم - أيضاً - من الانخداع ببريقه المزيف، فهو أشبه ما يكون بالسراب يتعلق الإنسان به ، ولا وجود له . وقد ضرب الله في هذا مثلاً فقال سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور : ٣٩] .

ثم هل يعقل أن ينشر الأعداء خططهم ضد الإسلام وأهله في وسائل الإعلام، حتى يأتي أهل الإسلام فيبطلوها ؟

إن مكر الأعداء عظيم [1] وهو دائماً - في الخفاء . ولذلك لما أرادت قريش أن تمكـــر بالرســـول عليه الصلاة والسلام فإن الله سبحانه هو الذي تولى المكر بهم فقال: ﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال : ٣٠].

قـــال ابـــن كثير رحمه الله في تفسيره: " أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم " .

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٧٩]. فالله هو الذي يبرم للمؤمنين.

وفي ص (٣٨) صنف الدعاة إلى فريقين:

١- فـــريق [**لديهـــم إدراك لواقعهـــم ، ولكـــنه لم يـــبن عـــلى أصول شرعية متكاملة** ، ..] إلى أن قال: [**ولم يحققوا أهدافهم التي أعلنوها وهي إقامة حكم الله في الأرض**] .

---

(١) قال سبحانه في مكر قوم نوح : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ [نوح : ٢٢] . **قال مجاهد: عظيماً .**

وقال سبحانه في مكر قوم إبراهيم ﴿ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾[إبراهيم: ٤٦] .

٢- [وآخـــرون لديهم علم شرعي ، ومنهج سليم في الجملة ، ولكنهم لا يفقهون الواقع ، ولا يتعاملون مع المرحلة التي يعيشونها فتخبطوا في أسلوب دعوتهم ، وتعجـــلوا الشيء قبل أوانه ، ولا يفرقون بين المنهج والأسلوب]، إلى أن قال : [ومن أجل التخلص من هذه السلبيات والأخطاء لابد أن تكون الدعوة إلى الله مبنية على أسس شرعية مستمدة من الكتاب والسنة وفقه سلف الأمة ، ومـــن ذلك فقه الواقع] وأخيراً قال: [نجنب الدعوة وأتباعها المزالق والمخاطر والانحراف] .

أقول : الصنف الأول لن نتكلم عنهم لأنهم ليسوا من أهل هذه البلاد باعتبار أنهم لم يحققوا إقامة حكم الله في الأرض، هذا الاحتمال الظاهر من كلامه وإن كان قبل هذا قد عرَّض بهذه البلاد في كلام شنيع .

أما الصنف الثاني فهم من أهل هذه البلاد لسببين :

* الأول : أن عـــلماءنا الأفاضل - حفظهم الله - هم الذين جعلوا المنهج والأســـلوب في الدعـــوة شيئاً واحداً ، وأنكروا على من قال : " **سلفي العقيدة ، إخـــواني المنهج** " لأن المنهج إذا لم تضبطه العقيدة فليس بمنهج ، أو بعبارة أخرى ، المنهج فرع عن العقيدة وعليه فإن الإخلال بالمنهج ، يعني الإخلال بالعقيدة .

* الثاني : قوله: " **نجنب الدعوة** " وفيه إشارة إلى هذه البلاد لأن احتكاكه المباشر بأهلها .

وفي عبارته هذه "نجنب الدعوة وأتباعها المزالق ، والمخاطر ، والانحراف" غمز ولمز واضح في العلماء . ويفهم من كلامه أن العلماء لم يجنبوا الدعوة وأتباعها المزالق والمخاطر والانحراف [1] .

---

(١) وكما قد قيل : قد يرى تحت الرماد وميض النار .

ولا يظـــن أحـــد أن هذا تكلف لما لم يقصد ، لأن الاحتياط الحقيقي هو رد جميع الشبهات التي من شأنها أن تضر بالمسلمين .

ولذلك لما قرأ أحد علماء أهل السنة تفسير الزمخشري ووجد فيه كلاماً يذكر فيـــه مـــزايا القرآن وفضائله وما فيه من العجائب ، ثم ساق الزمخشري في آخر هذا المدح قوله - تبارك وتعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

قال عالم السنة : هذا خطأ ؛ لأن فيه إشارة إلى أن القرآن مخلوق . وكذلك قـــول الإمـــام أحمد في من قال: إن القرآن مخلوق، أنه جهمي كافر. ومن زعم أن القرآن كلام الله ، ووقف ولم يقل : ليس بمخلوق ، فهو أخبث من الأول [1] يعني من الجهمي الكافر .

ثم إن درجـــات الفهم عند الناس متفاوتة، فقد يفهم الناقد ما لا يفهمه غيره فـــليس عـــليه حينذاك إلى البلاغ . أما إقناع الناس وهدايتهم فهذا ليس لأحد، قال تعالى مخاطباً الرسول عليه الصلاة والسلام :

﴿ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النســـاء: ٨٠] .

وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [الشورى : ٤٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ولذلـــك فـــإن الشبه إذا كانت كبيرة عمل بها في الشرع، قال الرسول عليه الصـــلاة والسلام : " الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجبي منه يا سودة "[2] وذلك لما رأى من شبهه (الولد) بعتبة .

---

(١) يفهم من هذا أنه في وقت الفتنة يخرج عن الأقوال التي من شأنها أن تثير الشبه . وليس هذا جرأة من الإمام أحمد .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب البيوع ، باب تفسير المشبهات .

والذي يعرف كلام أهل العلم رحمهم الله في مسألة التعريض بالقذف يعلم أني لم آتِ ببدع من القول .

فقد ساق ابن حزم بسنده حديثاً عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال فيه : إن رجلين استبا في زمن عمر بن الخطاب فقال أحدهما : ما أبي بزان ، ولا أمي بزانية. فاستفتى في ذلك عمر بن الخطاب ؟ فقال قائل : مدح أباه وأمه ، وقال آخـــرون : قد كان لأبيه ، وأمه مدح سوى هذا ، نرى أن يجلد الحد ، فجلده عمر ثمانين [1].

وفي رواية أن عمر قال : "قد عرض بصاحبه" .

وروي ذلـــك - أيضًا - عن عثمان بن عفان ، وعن علي ، وعن عمرو بن العاص ، وأبي هريرة وسمرة رضي الله عنهم أجمعين ، وعن عمر بن عبد العزيز وعن الإمام مالك وشيخه ربيعة ورواية عن الإمام أحمد ؛ وقال به إسحاق [2] كل هؤلاء روي عنهم أن في التعريض الحد الكامل ثمانين جلدة .

وقـــال بعضهم بالتعزير (دون الحد) منهم الشعبي وإبراهيم وقتادة [3] وبه يقول ابن المنذر كما في الإقناع وهو قول أبو حنيفة ، والشافعي ، واختيار صاحب الروضة الـــندية ، إذا كان مع قرينة تدل عليه ، ولم يأت القاذف بتأويل مقبول. وقد أفتى بهذا شـــيخ الإسلام ابن تيمية [4] . وقال ابن عقيل: إنها مع دلالة الحال صرائح [5] وهو الصحيح والله أعلم ، فإن فيه حفظاً لأعراض المسلمين بإقامة الحدود وبهذا نصل إلى

---

(١) أخرجه ابن حزم في المحلى ، كتاب الحدود ، مسألة التعريض .

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ برقم (١٥٦٩) .

(٣) ذكر ذلك ابن حزم في المحلى ، وابن قدامة في المغني .

(٤) الفتاوى (٣٤ / ٢٢٨) .

(٥) ذكره ابن رجب في القواعد .

نتـــيجة وهي : أنه لا يلزم الراد أن لا يرد إلا على ما كان صريحاً ، بل له أنه يرد على كل ما غلب على ظنه أنه المراد .

وفي ص (٤١) وتحت عنوان التربية الشاملة المتكاملة قال :

[مما يلحظ على كثير من الجماعات المعاصرة عدم شموليتها واهتماماتها الجزئية ، فهذه جماعة تعني بالتربية الروحية ، وأخرى بالتربية الفكرية ، وثالثة تربي أفرادها تربية عسكرية والرابعة تعني بالتربية السياسية وهلم جرا .

وقـــد تأمـــلت في أسباب ذلك فاتضح لي أن أهم سبب لهذا الواقع تصور كل جماعـــة أن الخـــلل في الأمة سببه قصورها في هذا الجانب دون غيره ، فجعلت هدفها الأساس : استكمال هذا النقص وسد الخلل ، وكما ذكرت في الأثر الثالث ما بني على مقدمة خاطئة فنتيجته خاطئة . .]

قلت : نعم ما ذكر صحيح

فـــإن كل جماعة بنَتْ كيانها وما يتعلق به وفق تصورات واعتقادات مؤسسي هـــذه الجماعـــات ، من غير مراعاة لموافقة الشرع أو مخالفته . وهنا مكمن الخطر ، وتـــأمل فســـتجد المؤسسين لهذه الجماعة ليسوا من أهل العلم المشهود لهم به ، بل بعضهم من أهل البدع والأهواء . وقد جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: " إن مـــن ورائكـــم فتـــناً يكثر فيها المال ، ويفتح فيها القرآن ، حتى يأخذه المؤمن والمنافق ، والرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والعبد والحر ، فيوشك قائل أن يقول: ما للناس لا يتبعوني وقد قرأت القرآن؟! ما هم بمتبعي حتى أبتدع لهم غيره ، فإياكم وما ابتدع ، فإن ما ابتدع ضلالة..." [1] .

وهـــذا حق، فإنك إذا بينت البدعة أو تكلمت في مبتدع احتجوا عليك بأنه

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة . وعبد الرزاق في المصنف والحاكم وقال: على شرط الشيخين وسكت عنه الذهبي . والحديث وإن كان موقوفاً فله حكم الرفع .

من حفظة القرآن وهذا ليس بحجة كما هو ظاهر الحديث . والخلاصة إن الجماعات الإسلامية تنقسم إلى قسمين رئيسيين: قسم همهم الدعوة إلى الإسلام دون الدفاع عنه، وقسم همهم الدفاع عنه دون الدعوة إليه .

والمنهج الصحيح الذي كان عليه السلف هو الدعوة إلى الإسلام وفق سنة الإسلام ، والدفاع عنه وفق سنته أيضاً ، ولما كان هذا منهج السلفيين كانوا هم الأسعد بالسنة واتباع السلف .

والتربية السلفية تربية شاملة كاملة ميزانها للأمور موافقة الشرع ، فلا تعظم جانباً على حساب الآخر. وكفاها شرفاً أنها التربية التي تربى عليها الصحابة ومن بعدهم أتباعهم ، وأن الجميع يدعيها ، ولعل في الإشارة غنية عن مزيد من العبارة .

وفي الصفحة نفسها قال أيضاً :

[وهذا التصور الشمولي للواقع يجعل الدعاة يرسمون منهج دعوتهم بشمولية متكاملة بعيداً عن التجزئة والفردية] .

قبل أن أبين ما في هذه العبارة من خلل أشير إلى نقطة مهمة وهي أن الدكتور كثيراً ما يفصل بين العلماء والدعاة ، فيجعل للعلماء حقلاً ومجالاً خاصاً بهم ، وأيضا للدعاة مجالاً خاصاً بهم لا يشاركهم فيه العلماء وفي هذا التصور قصور كبير .

فإذا لم يكن العلماء هم الدعاة : فيا لها من هنات وهنات [1] .

أما الكلام على العبارة السابقة فهو بسبب قوله: " يجعل الدعاة يرسمون منهج دعوتهم بشمولية متكاملة " .

ونقول له ولغيره: إن منهج الدعوة مرسوم وكامل ولا يحتاج إلى رسم . فليس لأي داعية سبيل في تغيير منهج الدعوة ومن أتى بطريقة تختلف عن طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام في الدعوة حكم عليها بالخطأ والفشل .

---

(١) الهنات هي الفتن . كما ورد في الحديث الصحيح عند مسلم عنه عليه الصلاة والسلام: " إنها ستكون بعدي هنات وهنات...".

والدعـــوة إلى الديـــن أصل من أصوله والدين كامل قال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وليعـــلم الدكـــتور أيضاً أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يرسموا منهجاً لدعوتهـــم ، وهم أعلم وأحرص الخلق على الدعوة ، بل كانوا متبعين للمنهج الذي رسمـــه الله لهم . فلم يحيدوا عنه ، ولم يزيدوا فيه أو ينقصوا منه. ومن الآيات الدالة على اتباعهم : قـــولـــه سبحانه وتعالى للرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٠] .

وقولـــه : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] .

وقوله: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [يونس : ١٥] .

وقـــوله ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٩] .

وقوله تقدست أسماؤه : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية : ١٨] . ووالله ، إن هذه الآيات الكريمات ما جعلت لمبتدع حجة ولا لمتبع غير سبيل الرسل عذراً .

ومع هذا فإن الله كما أمر الرسول باتباع الشريعة المنزلة عليه ، نهاه عن اتباع غيرهـــا وشدد عليه . قال من له ملكوت السماوات والأرض : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وقال العلي القدير : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [البقرة : ١٤٥] .

وقال السميع العليم: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال الحكيم الخبير: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

وقال منزل الكتاب: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ [الأنعام : ١٥٠] .

والخلاصة :

أنّنا عرفنا من الآيات السابقة ان الرسل عليهم الصلاة والسلام أمروا باتباع ما أنزل إليهم فحسب ، ونهوا عن اتباع غيره . إذن ما دامت هذه حال الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فإن الواجب على جميع المكلفين من علماء وعامة ؛ اتباع الشريعة المنزلة على رسولهم عليه الصلاة والسلام لا يسعهم غير هذا . أما من ذهب يرسم منهجاً جديداً غير منهج [1] الرسول صلى الله عليه وسلم فإنما يحدث بدعة في الدين، وقد قال عليه الصلاة والسلام: **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)**.[2]

قال الشافعي رحمه الله :

لم يبرح الناس حتى أحدثوا بدعاً

في الدين بالرأي لم يبعث بها الرسل

حتى استخف بدين الله أكثرهم

وفي الذي حُمّلُوا من حقه شغل

---

(١) فإن قال: أنا أقصد أسلوب الدعوة كما قال في ص (٢٨). فمن لم يكفه أسلوب الرسول عليه الصلاة والسلام في الدعوة فأحسن له أن يترك الدعوة لغيره ويدعو نفسه إلى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) متفق عليه ، البخاري ، كتاب الصلح ، باب: إذا اصطلحوا على صلح .

وفي ص (٤٣) قال :

[وبهذا نحمي المسلمين ، ونوجد المهابة لهم في نفوس أعدائهم كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: نصرت بالرعب مسيرة شهر] ثم عزاه إلى صحيح الجامع ١ / ٢٤٠ رقم ١٠٥٦ .

أقول وبالله التوفيق :

يشير كلام الدكتور إلى أن حديث **(نصرت بالرعب مسيرة شهر)** عام للأمة، يعني أن أمته عليه الصلاة والسلام من بعده تنصر بالرعب مسيرة شهر ، هذا مفهوم من قوله: " ونوجد المهابة لهم " يعني للمسلمين في هذا الوقت .

والدكتور ناصر أخطأ في حكمه هذا على أن الحديث عام للأمة وقد يكون خطؤه هذا ناتجاً عن عدم اطلاعه على روايات الحديث ، وما قاله العلماء في شرحه.

والحديث رواه البخاري في كتاب التيمم :

وهو عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى عامة الناس)** [(١)] .

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح :

"قوله: نصرت بالرعب، زاد أبو أمامة : (يقذف في قلوب أعدائي) أخرجه أحمد ، قوله (مسيرة شهر) مفهومه : أنه لم يوجد لغيره النصر والرعب في هذه المدة ولا في أكثر منها ، أما ما دونها فلا ، لكن لفظ رواية عمرو بن شعيب

---

(١) قال الألباني: وهو من الأحاديث المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، الإرواء (١ / ٣١٧) .

فالظاهـــر اختصاصه به مطلقاً ، وإنما جعل الغاية شهراً لأنه لم يكن بين بلده ، وبين أحـــد من أعدائه أكثر منه ، وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى لو كان وحده بغير عسكر. وهل هي حاصلة لأمته من بعده ؟ فيه احتمال" .

قلت :

إن من يتتبع روايات الحديث يجد أن الأصل هو اختصاص الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الخمس كما عند (البخاري) وغيره ، أو بالست كما عند (مسلم) عن أبي هريرة ولكن دلت الأدلة الأخرى على مشاركة أمته له في بعضها .

فالأمـــة تشاركه في كون الأرض مسجداً وطهوراً لقوله: (**فأيما رجل من أمـــتي أدركـــته الصلاة فليصل**) وكذلك إقراره للصحابة بالصلاة على أي أرض والتيمم منها ما لم يقم مانع .

والأمة تشاركه أيضاً في الغنائم لقوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [**الأنفال: ٦٩**] . وقوله عليه الصلاة والسلام: (**من قتل كافراً فله سلبه**). [١]

وقـــولـــــه عـــليه الصـــلاة والسلام : (**إن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا**) [٢] وقد قسم عليه الصلاة والسلام الغنائم على أهلها .

وقـــولـــــه: (**أعطيت جوامع الكلم**) [٣] فهذه خاصة به عليه الصلاة والســـلام وقـــد قـــال في الروايـــة الأخرى (**أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه**) [٤]، وقولـــه: (**أعطيت الشفاعة**) والظاهر أنها الشفاعة العظمى وهي من خصائصه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) متفق عليه ، البخاري ، كتاب الجهاد .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد ، باب تحليل الغنائم .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً .

(٤) صحيح الجامع (١٠٥٨) .

وقوله: (**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى عامة الناس**) وهذه لا تحتاج إلى تقرير فهي من خصائصه حتماً . وكذلك قوله : (**نصرت بالرعب مسيرة شهر**) الأظهر أنها من خصائصه دون أمته لقوله كما في حديث أبي أمامة عند أحمد: (**يقذف في قلوب أعدائي**) ولم يرد دليل يفيد مشاركة أمته له في هذه الفضيلة . وإذا لم يرد المعمم تبقى الخصوصية على أصلها .

وبعد أن ذكر الحديث السابق الذي تكلمنا عنه ؛ قال : [**وصدق الله العظيم** : ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾] [الأنفال : ٦٠] .

ومن خلال السياق الذي ذكره الدكتور قبل الآية ، يتضح أن الدكتور يشير بعد الاستدلال بها إلى أن الذي يرهب به الأعداء هو فقه الواقع . فهل فسر المفسرون رحمهم الله الآية بهذا التفسير ؟ قال ابن كثير رحمه الله : -

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة ، فقال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن ﴾ أي ما أمكنكم ﴿ مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن أبي علي ثمامة بن شفي أخي عقبة بن عامر أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: (**(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي**)[1] . رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب: فضل الرمي والحث عليه. وقد رواه أهل السنن إلا النسائي وكذلك أحمد في المسند .

قال الشوكاني رحمه الله: " والمصير إلى التفسير الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم متعين " .

قـــلت : الحمد لله كفينا المؤونة . فقد فسرها الرسول صلى الله عليه وسلم فهـــل يا ترى كان عاجزاً عن ذكر فقه الواقع أو على الأقل الإشارة إليه ، وقد أوتي جوامع الكلم .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن النصر يحتاج إلى تعاطي الأسباب الشرعية الدينية، والأســـباب المادية الدنيوية ، والله سبحانه أمرنا في هذه الآية بأخذ الأسباب المادية، والنبي عليه الصلاة والسلام أرشدنا إلى أعظم ما يؤثر في القتال وهو الرمي وما يتعلق به . وما هزم المسلمون إلا بسبب الإخلال بهذه الأسباب وخصوصاً الشرعية الدينية.

ومتى ما ارتقى المسلمون من دائرة الإسلام إلى الإيمان وأخذوا من الأسباب المادية ما يستطيعون فإن الله حين ذاك سيتولى الدفاع عنهم، ويكيد لهم – ويقذف في قـــلوب أعدائهـــم الـــرعب ، ويكثرهم في أعين أعدائهم ويقلل أعداءهم في أعينهم ويســـدد رميهـــم ، ويبارك في أفرادهم ويسخر لهم الريح ، وينزل السكينة عليهم ، ويثبـــتهم – وينـــزل الملائكة للقتال معهم ويجعل ما ليس بسلاح في أيديهم سلاحاً إلى غير ذلك مما هو معروف من مَنّ الله وفضله على المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج : ٣٨] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الطارق : ١٥– ١٦] .

قال تعالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الطور: ٤٢].

قـــال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [غافر : ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الطور : ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال : ١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالى : ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران ٥٠] .

وقال تعالى : ﴿ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [الأنفال : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحزاب : ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢].

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكَهُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال : ٤٤].

وقال تعالى : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : ٦٦] .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال٦٦].

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا ﴾ [الفتح : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٦] .

وقال تعالى: ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:١١].

وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [النحل : ١٠٢] .

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٢٥] .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعطي بعض أصحابه العرجون فينقلب في يـــده سيفاً مثل ما حصل يوم بدر لعكاشة ، ويوم أحد لعبد الله بن جحش [1] رضي الله عنهم أجمعين .

وبعد هذه الآيات العظيمة التي تكشف ضعف الإيمان عند المسلمين لأن الله لا يخـــلف الميعاد. ومن أكبر العلامات التي تشير إلى هذا الضعف أنك تجد المسلمين في رمضـــان في وقت الأسحار وفي جميع المساجد شيوخاً وكهولاً وشباباً رجالاً ونساءً يقنـــتون ويطيـــلون القنوت يدعون للمسلمين بالنصر ويتكرر هذا سنين متتالية ولا يســـتجاب لهـــم ، أليس في هذه الأمة رجل مثل من قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم (**رب أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرَّه**) [2].

فيـــا أمة الإسلام عموماً ، ويا شباب الإسلام خصوصاً . كونوا كما كان الصـــحابة رضوان الله عليهم ، تنالوا من ربكم ما نالوا . فإن التوكل على الله أعظم أســـباب النصر وإياكم وكلام المرجفين . وعليكم بالكتاب والسنة تهتدوا وبما فيهما اعملوا توفقوا . وإياكم ومخالفة ما فيهما فتهلكوا .

وفي ص (٤٤) قال :

[ومن ثمرات فقه الواقع كشف سبيل المجرمين بشتى أشكالهم وأنواعهم وكشف خططهـــم مؤذن بإبطال كيدهم ورد تدبيرهم إلى نحورهم ، والعناية بهذا الجانب حماية للمســـلمين ورد كيد الظالمين ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾] [الأنعام : ٥٥].

أقول وبالله التوفيق :

لا أشبه الدكتور إلا برجل ظمآن والسقا على رأسه ويتبين ذلك بمعرفة معنى كلمة " مجرم " في القرآن الكريم .

---

(١) انظر : السيرة لابن إسحاق وذكره جميع من ترجم له .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب صفة الجنة ، باب: في أهل الجنة وأهل النار .

قال الله تعالى: ﴿ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ ﴾ [المعارج : ١١] .

وقال أيضا: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرحمن : ٤٣] .

وقال جل ذكره : ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [إبراهيم : ٤٩] .

وقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾[مريم: ٨٦].

وقال أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾[الزخرف: ٧٤].

وقال أيضا : ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [القمر : ٤٧].

وقال أيضا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان : ٣١] .

ومن هذه الآيات وغيرها يتضح أن كلمة " مجرم " تعني " الكافر " وأن " المجرمين " هم الكافرون . ولم تأت في القرآن بغير هذا المعنى.

وقوله جل ذكره : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

لوجدنا أن الله قدر بقدره الكوني هذه العداوة وفي الوقت نفسه هو الذي يحمي أنبياءه بقدره الشرعي منها، ويبين لهم ما يحتاجون إلى بيانه ولذلك خاطب الله نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ

ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأنعام : ٥٤ - ٥٦].

إذاً مـــن أراد أن يعرف المجرمين ويستبين سبيلهم فعليه بهذه الآيات المفصلات في القرآن الكريم فإن فيها كل ما هو مطلوب .

وليـــس في تتبع الإذاعات وقراءة الصحف ، والمجلات ، والكتب السياسية ، وما شابه ذلك السبيل لمعرفة المجرمين، بل الغالب التأثر السلبي .

وكما أن للأنبياء أعداء من شياطين الإنس والجن، فإن أتباع الأنبياء أيضاً لهم أعداء من شياطين الإنس والجن. وإذا كان لهم جرأة على الأنبياء فهي على أتباعهم أعظم .

وعـــداوة الشيطان للبشر قديمة بدأت قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام أبو البشـــر ومـــنذ كان صلصالاً ، فلما نفخ الله فيه الروح وأسكنه الجنة وخلق حواء وجعلها له مؤنسة خاطبهما سبحانه مبيناً لهما عداوة الشيطان فقال : (إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾) [الأعراف : ٢٢] ثم أخبر أنه عدو لمطلق الإنســـان فقال : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥].

ولمـــا كانت هذه العداوة مستقرة أمر بمعاداته فقال: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ ﴾ [فاطر: ٦] .

وهذه العداوة جاءت مفصلة في القرآن والسنة، فبين فيهما كيفية هذه العداوة ســـواءاً كانت وسوسة أو تخويفاً أو تحريشاً أو تزييناً أو استدراجاً أو إضلالاً إلى غير ذلك مما هو معروف ، مثاله قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟ فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : تهاجر وتدع أرضك وسمـــاءك وإنمـــا مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول ! فعصاه فهاجر ، ثم قعد له**

بطـــريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل وتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ ! فعصاه فجاهد ...) [1] و قد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه يجر الشعرة من الدبر ويمدها ليخيل للمصلي أنه أحدث وأنه ينفخ في دبره ، وهذا من أخف ما يصنع .

وبعد ذلك فإناً لو طرحنا على الدكتور سؤالاً فقلنا : كيف نعرف حقيقة وكيفية عداوة الشيطان مع أنه لا يوجد وسائل إعلام تنشر كيفية عداوته ولا حقيقتها ؟

لا شـــك أنـــه لا يسعه إلا القول: بأن حقيقة عداوته وكيفيتها لا تعلم إلا بالقرآن والسنة . وحينها نقول: لماذا لا تقول بهذا في عداوة الكفار فإن قال : عداوة الشيطان نعرفها من الكتاب والسنة وعداوة الكفار وكيفيتها من وسائل الإعلام .

قلنا له : هذا خطأ لأن الله تبارك وتعالى جمع بين عداوة شياطين الجن والإنس بقولـــه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٣ - ٨٦] .

فالصنفان يجتمعون على عداوة الأنبياء وأتباعهم ، وبعضهم يوحي إلى بعض وبعضهم يوالي بعضاً وبعضهم يؤز بعضاً . ولذلك جمع الله بينهم في المصير كما في قوله : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٦] وقد مّر أن المجرم هو الكافر سواء من الإنس أو الجن .

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٣٨) وصححه ابن حبان والألباني في صحيح الجامع (١٦٥٢)

وجميع الكفار أعداء للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء : ١٠١] .

وتأمل قوله (مبيناً) .

ولما بين الله عداوتهم في كتابه قال: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء : ٤٥] .

وتأمل كيف ختم الآية بذكر ولايته ونصرته بعد ذكر علمه بأعداء المؤمنين به. وقد وعد سبحانه المؤمنين بقوله: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ [النساء : ١٤١] .

وإذا أرادت الأمة التمكين في الأرض فعليها الاستعانة بالله كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأعراف : ١٢٨].

والخلاصة أن استبانة سبيل المجرمين أياً كانوا إنما يكون بالآيات المفصلات كما في آية الأنعام ، ولكن لما ضعف الفقه بالشرع ظهر ما يسمى بفقه الواقع وإلا فإن فقه الشرع هو فقه الواقع على الحقيقة .

وأعود فأذكر ما قلته آنفاً :

إنه لا يمكن تصور أن الأعداء ينشرون خططهم ، وما شابه ذلك في وسائل الإعلام وإلا لما كان هناك حاجة إلى CIA الأمريكي أو SIS , M١٦ , M١٥ التابعة للحكومة البريطانية . أو K G B , M V D الروسيتين أو الموساد الإسرائيلي أو إلى H V A الألماني . إلى غير ذلك من وكالات المخابرات العالمية .

وفي ص (٤٥) قال :

[سابعاً : حماية العلماء

وفقه الواقع حماية للعلماء من وجهين :

١- فالعلمانيون يكيدون لعلماء الأمة ، ويسعون لتشويه صورتهم أمام العامة ، بما يثيرونه من قضايا ، وما يطرحونه من خلافات في مسائل علمية مما يظهر أمام العامة ، وكأنه تناقض في الفتوى وضعف في العلم] .

قبل أن أبدأ مناقشتي لمثل هذه المغالطات، أشير إلى الدبلوماسية التي يستخدمها الإخوان المسلمون عند طرحهم القضايا أو عند نقدهم للأمور ، فكلامهم دائماً يحتمل وجهين ، مما يجعل الناقد في حيرة ولكن إذا عرف الناقد فالحق حمل كلامهم بما يناسب منهجهم .

إن من منهج الإخوان المسلمون في جميع الأقطار الإسلامية، وضع عدو وهمي يزعمون أنه يهدد الأمة في دينها ودنياها ثم يقومون بالصراع مع هذا العدو ليبرزوا أمام العامة بأنهم حماة البيضة، وهم الذين يدافعون عن الأمة، وما ذاك إلا لكسب عواطف الناس وتأييدهم وهو أسلوب سياسي حزبي معروف .

وقد حصل في هذه البلاد ما يؤكد ذلك ، فإن هذه البلاد والحمد لله لا تعاني من خطر العلمانية وغاية ما هنالك أنه يوجد متأثرون بها وهم في الوقت نفسه لا يستطيعون المجاهرة ، وهم كالشعرة السوداء في الثور الأبيض ، ولكن "الإخوان" ضخموا هذه القضية حتى أفسدوا تصور شباب الصحوة ، وصار التقسيم عندهم إما مسلم أو علماني فلم يعد هناك مسلم فاسق ، ومن ثم ظهرت مشكلة التكفير التي تنتشر اليوم بين المسلمين، وخصوصاً التكفير بالمعاصي الذي لم يعد اليوم سراً .

والغريب أن رموز دعوة الإخوان يتهمون جميع من خالفهم أو لم يسر على منهجهم بالعلمنة . وما ذاك الاتهام الخطير الذي وجّه إلى دعاة السلفية إلا شاهد على ذلك .

ومما سبق يتضح لك سر المواجهات العلنية بين الإخوان ومخالفيهم .

وبالمقـــابل فـــإنك تجـــد علماء هذه البلاد يحاولون إخماد أهل البدع بعدم الإكتراث بهم . وما قصة علامة الديار الشيخ ابن باز رحمه الله مع المبتدع الإباضي عنا ببعيد[1] عندما حاول الظهور والشهرة بمناقشة علنية تكون مع العلامة ابن باز فاعتذر عن ذلك لكي لا يفتح على المسلمين باب شر وذلك عملاً بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام (**إن أخوف ما أخاف عليكم كل منافق عليم اللسان**) [2] .

واقتداءً بالسلف في عدم مجادلة أهل البدع.

أعود لمناقشة الفقرة السابقة من كلام الدكتور:

ومناقشتي لها من وجوه هي :

١- إن العلمانيين ليسوا هم وحدهم الذين يشوهون صورة العلماء بين الناس، بل غيرهـــم أيضاً يفعل فعلهم ، وما وقع فيه الدكتور هو من قبيل تشويه صورة العلماء .

٢- قوله : " إن العلمانيين يطرحون الخلافات في المسائل العلمية ، مما يظهر أمام العامة وكأنه تناقض في الفتوى وضعف في العلم " .

أولاً : الظاهر من حال العلمانيين أنهم لا يحسنون المسائل الخلافية ولا غيرها ولا يعرفونها أصلاً .

ثم المســـائل الخلافيـــة مشهورة بين الناس بكل طبقاتهم منذ عهد الصحابة ، وحتى يومنا هذا .

وهذا بالطبع قبل وجود العلمانية أصلاً . ولم يقل أحد من العلماء أو العامة إن الخلاف في المسائل العلمية هو تناقض ، أو ضعف في العلم ، وخصوصاً في هذه البلاد ؛ لأنه أمر مستفيض بين الناس منذ القرون الأولى المفضلة .

---

(١) انظر : كتاب البيان لأخطاء بعض الكتاب ص (١٨٢) لفضيلة الشيخ صالح الفوزان .

(٢) رواه الإمـــام أحمـــد في المسند والبزار والطبراني في الكبير ، قال الألباني صحيح ، صحيح الترغيب والترهيب (١٢٨) .

٣- قوله في آخر الفقرة الأولى :

"ففقـــه الواقـــع كشف لهؤلاء ، وفضح لمآربهم ، وحماية بالتالي لعلماء الإسلام ودرع للأمـــة" . وهذا الكلام مخالف للحقيقة إذ لا أحد يقع في العلماء مثل ما يقع فيهم من يسمون أنفسهم أهل فقه الواقع ، وهذا أمر ظاهر ، وخصوصاً في الفترة الأخيرة .

ثم لا أدري هـــل يريد الدكتور من العلماء العكوف على شاشات التلفزيون وموجـــات الإذاعـــة والصحف ، والمجلات ، وما شابه ذلك ويتركوا نشر العلم ، ويتركوا الناس يموجون في الضلال ويخلوا بينهم ، وبين المنحرفين والمبتدعة .

وكل ذلك بحجة ماذا ؟

بحجة أن يعرفوا أعداء الأمة! إن هذا الطريق غير صحيح كما قدمنا من قبل . وليـــس هـــذا سبيل كشف أعداء الأمة ونظرهم في القرآن والسنة كاف في معرفة الأعداء. وفي ص (٤٥) نفسها الفقرة الثانية قال :

[وفقه الواقع حماية للعلماء من الخاصة ، فعندما تكون الفتوى مبنية على تصور لـــلواقع ، وعـــلم بفروع المسألة وأصولها لا يدع مجالاً لطاعن أو مخالف ، مما يكسب الفتوى احترامها وقوتها ، وتتلقى بالقبول من لدن طلاب العلم والعامة ، وهذا ولا شك يقوي صلة طلاب العلم بعلمائهم ، ويقطع الطريق على من يستغل الأخطاء والعثرات لإبعـــاد شباب الأمة عن علمائها . وبهذا نحمي جانب العلماء ، ونزيد من مكانتهم في نفوس العامة والخاصة] .

أقول وبالله التوفيق :

أولاً : قوله : "وفقه الواقع حماية للعلماء من الخاصة" ؟ !

فنحن نريد من الدكتور أن يخبرنا من هم الخاصة الذين يقصدهم ؟

ثانيـــاً : قوله : "فعندما تكون الفتوى مبنية على تصور للواقع ، وعلم بفروع المسألة وأصولها لا يدع مجالاً لطاعن او مخالف"[1] .

ونقول يا دكتور : هل تتصور أن كل مسألة في الدين تحتاج إلى فقه واقع ؟ . إن معظـــم الأســـئلة التي توجه إلى علمائنا هي في أمور العقيدة ، وأمور الطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والبيع والنكاح وشبه ذلك .

وهذه الأمور ليس لفقه الواقع الذي يدندن حوله الدكتور دخل فيها .

ثم أخـــبر الدكـــتور أن علماءنا لا يضيقون ذرعاً بالخلاف إذا كان من أجل الدليل ولا حكم للنادر .

بـــل إن أعضاء هيئة كبار العلماء بينهم خلاف في كثير من المسائل الفقهية ، وهذا لم يؤثر عليهم ولم ينشب الحرب بينهم ، ولسان حالهم يقول : كل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم عليه الصلاة والسلام .

وهـــذا الخلاف لن ينتهي إلى يوم الدين . ثم إن علماءنا لا يفتون إلا وعندهم علم بأصول وفروع المسائل، فإذا نظرت إلى هيئة كبار العلماء وجدت فيهم المحدث والفقيه والأصولي والمفسر واللغوي والعالم بالأديان والفرق .

أما قول الدكتور بعد الفقرة السابقة :

" مما يكسب الفتوى احترامها وقوتها ، وتتلقى بالقبول من لدن طلاب العلم والعامة " .

أقول وبالله التوفيق :

إن الواجب على طلاب العلم احترام الفتوى إذا كانت مبنية على : قال الله ،

---

(١) دائمـــاً يأخذ الدكتور اتجاه الدفاع عن العلماء وكأنهم يهاجمون . وهذا غير صحيح ، بل العلماء في هذه البلاد ولله الحمد موقّرون مسموع لهم ، منبوذ من يتكلم فيهم .

قـــال رسوله عليه الصلاة والسلام أو على حجة شرعية مقبولة ولا يلتفتون إليها إذا كانت مبنية على غير ذلك .

أما العامة فالواجب عليهم قبول الفتوى ، والعمل بها إذا صدرت من عالم ثقة وليس لهم نقد الفتوى ، ولا ردها ، لأنهم لا يملكون القدرة على ذلك . وقد أمرهم سبحانه وتعالى بسؤال أهل الذكر ، فقال جل ذكره : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْـرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَـمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل : ٤٣] .

والواجـــب عـــلى العالم الرباني أن يفتي بقال الله ، وقال رسوله عليه الصلاة والســـلام ، ولا يبالي بعد ذلك بآراء الناس ، ولا يلتفت ، إلى أقوالهم أو انتقاداتهم الناتجة عن الجهل أو الهوى .

ولكن الواضح من كلام الدكتور أنه يريد من العالم أن يكون دبلوماسيا ، أي يرضي جميع الأطراف ، ولو كان ذلك خلاف الشرع .

وما علم أن العالم إذا اتبع أهواء صغار طلبة العلم هلك ، وأهلكهم معه .

وأذكّـــر الدكـــتور بأن أئمة السلف كانوا ينهون أتباعهم عن كتابة فتاواهم ويأمـــرونهم بالأخذ مما أخذوا منه أي من الكتاب والسنة . ويحذرونهم من تقليدهم واتباعهم بدون معرفة أدلتهم، وهذا الأمر مستفيض عنهم، والله تعالى أعلم .

أما قوله :

"وبهذا نحمي جانب العلماء ، ونزيد من مكانتهم في نفوس العامة والخاصة" .

أقول: ولكن الحقيقة بخلاف ما ذكرت .

لذلك وجدنا في هذه الحقبة من يعارض العلماء ، وهو من دهماء الناس . بل يتعدى به الأمر إلى سبهم وشتمهم، بل إلى محاولة الاعتداء عليهم بالضرب ، ونحوه في بيت من بيوت الله .

وهذا لم يحصل منذ ظهور دعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

وإلى أن حصلت الواقعة المذكورة وهي في أحد مساجد الرياض وتكررت في مسجد من مساجد الطائف، فإلى الله المشتكى وعليه التكلان .

وفي ص (٤٧ ، ٤٨) :

يتكلم الدكتور من منطق المكتشف الذي جاء بأمر جديد لم يسبق إليه ، ألا وهو معاداة أهل الكفر والضلال لأهل الإيمان والإسلام وقد نسي أن القرآن الكريم الـــذي أنزله رب العالمين أتى بحقائق عن هذه المعاداة لا تستطيع أي صحيفة ، وأي مجلة أو أي وكالة أنباء تقديم مثلها للناس .

إن الله سبحانه وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز عن سبب هذه العداوة وكيفيتها وما المقصود منها [1] .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾ [البروج : ٨] .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ۝١٠١ ﴾[النساء :١٠١].

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩].

وقال سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤ ﴾ [النساء: ٥٤] .

وقال سبحانه: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩] .

---

(١) أكتفي بذكر الآيات دون تفسيرها وذلك لسببين : الأول وضوحها ، والثاني عدم الإطالة .

وقال سبحانه : ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [النساء : ١٠٢] .

وقال سبحانه : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة : ١٠] .

وقال سبحانه : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ (١) [آل عمران : ١١٩].

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [آل عمران : ٩٩ - ١٠٠]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

ومع أن الله سبحانه وتعالى بين لنا عداوتهم ، وحقيقة أمرهم فإنه أمرنا بأخذ الحذر منهم وعدم الركون إليهم .

قال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ [النساء : ٧١].

وقال سبحانه : ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النساء : ١٠٢] .

---

(١) قد يقول قائل: هذه خاصة بالمنافقين . أقول : نعم ، ولكن أليس المنافقون أعداء للإسلام . ولذلك فضحهم سبحانه وتعالى في كتابه في كثير من الآيات ، بل أنزل فيهم سورة كاملة .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

ونصيحتي لطلاب العلم ان يهتموا بالمصدرين الكتاب والسنة .

فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] .

قال ابن كثير - رحمه الله - :

"قال ابن مسعود - رضي الله عنه - قد بين لنا في هذا القرآن كل علم ، وكل شيء.وقال مجاهد : كل حلال وحرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق ، وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم " .

وفي ص (٤٩) قال :

[تاسعاً : رفع مستوى الأمة ثقافياً وسياسياً :

ونحن في قاموس الأمم : العالم المتخلف ، والعالم النامي ، والعالم الثالث . إلى غير ذلك من التسميات التي يندى لها الجبين] .

أقول:

لو صدر هذا الكلام من شاب صغير فلعله يحتمل ، أما أن يصدر من الدكتور ناصر صاحب فقه الواقع فهو دليل على جهل الدكتور بالواقع .

اعلم هداني الله وإياك أن هذه الألقاب التي ذكرت لن ترفع عن المسلمين ، وعن بلدانهم إلا إذا تخلوا عن إسلامهم تماماً .

وهذه حقيقة لا خلاف فيها بل هي أمر مسلم به .

ولا أدري هل الدكتور يريد من المسلمين أن يتخلوا عن إسلامهم حتى ترفع عنهم هذه الألقاب ؟

إن هذا الأسلوب الذي يستخدمه أعداء الإسلام ضد المسلمين هو من

أســـاليب الحـــرب النفسية التي تأتي في بعض الأحيان بنتائج تفوق بكثير النتائج التي تحصل نتيجة القوة والحرب .

فإذا وقع الدكتور فيها فغيره إذن من باب أولى .

والعجيـــب أن جبينه يندى من هذه التسميات ولا يندى جبينه لضياع العلم الشرعي الصحيح وظهور البدع والانحرافات في كثير من بلاد المسلمين .

ثم لا أعـــلم هـــل يريد من أعداء الإسلام أن يسودوه عليهم ويلقبوه بأحسن الألقاب حتى يرضى . أما سمع قول الله عز وجل : ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .

وماذا يرجى من قوم عيروا ربهم وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه .

وفي ص (٤٩) نفسها قال :

[وإدراكـــنا لهذا الأمر ، والعمل الإيجابي للخروج منه بداية الطريق للعودة إلى أصالتنا ومكانتنا، وهو الخطوة الأولى للخروج من أزمتنا، ونحن نملك – ولله الحمد – مقومات العز والسؤدد ومقاليد السيادة والريادة .

وما زلنا عالة على غيرنا في ثقافتنا وسياستنا ، وكثير من شؤون حياتنا] .

أقول :

وهذه – أيضاً – مغالطة ليست سهلة فقوله: "إن إدراكنا لهذا الأمر – فقه الواقـــع – والعمل الإيجابي للخروج منه بداية الطريق للعودة إلى أصالتنا ، ومكانتنا وهو الخطوة الأولى للخروج من أزمتنا" .

هذا غير صحيح ...

لأن الخطـــوة الأولى والأخـــيرة الـــتي تعيد لنا أصالتنا هي العودة إلى الدين فحسب ، وبكل اختصار . فافهم .

أما قوله : "وما زلنا عالة على غيرنا في ثقافتنا ، وسياستنا ، وكثير من شئون حياتنا . . ".

كان الأولى به التفصيل لكي لا تختلط الأمور .

لأن ثقافتنا الشرعية وسياستنا الشرعية ليست مستمدة لا من الشرق ولا من الغرب ولسنا فيها عالة على غيرنا ، بل منا تصدر ومنا تستورد .

أما قوله : " وفي كثير من شئون حياتنا " .

أقـــول : نعـــم إن المسلمين مقصرون في هذا الجانب ، ونسأل الله أن يأخذ بأيدينا وأن يوفقنا ، ويغنينا عن أهل الكفر . مع ملاحظة أن استيراد الأمور الدنيوية من ديار الكفر ليس حراماً ولا مكروهاً .

وقـــد كـــان اليهود زمن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أهل صنعة، فكانت صناعة السيوف ، وأدوات الحرب عندهم أكثر مما هي عند المسلمين وكان المسلمون يشترون منهم ما يحتاجونه .

وفي الصفحة نفسها قال :

"ونحن بأمس الحاجة إلى إعادة ثقتنا بأنفسنا ، ومن ثم تعود ثقة الناس بنا" .

إن ثقة أهل الإيمان تكون بالله وحده .

ولذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : (**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت**)[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩١) وهو حديث " حسن " وتسمى دعوات المكروب لتسمية الرسول عليه الصلاة والسلام لها بذلك .

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : (**اللهم لا تكلهم إلي فأضعف عنهم ، ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها ، ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم**) [1].

إذن كان الأولى بالدكتور أن يقول :

ونحن بأمس الحاجة إلى إعادة ثقتنا (بالله) ثم بأنفسنا .

وقبل أن ننتقل إلى مناقشة أخرى ، أحب أن ألفت نظر طلاب العلم إلى مسألة مهمة ، وأيما أهمية. مسألة غفل عنها الدكتور أيما غفلة ومن يتفطن لها فسيدرك أنها كافية في الرد على الدكتور، هذه المسألة وردت في سياق حديث عظيم يرويه ثوبان - رضي الله عنه - عن النبي عليه الصلاة والسلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين : الأحمر ، والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء ، فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها**) !!!

أو قال (**مَنْ بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**) [2]

إذا : فالله - سبحانه وتعالى - أعطى لمحمد عليه الصلاة والسلام أن لا يسلط عليهم (يعني أمته) عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها يعني الأرض [3] .

---

(١) أخرجه أيضًا أبو داود (٢٢١٠) وصححه الألباني.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في باب الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض .

(٣) ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : " ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه " أخرجه مسلم .

ولكـــن الله ســـبحانه وتعالى لم يعط له أن لا يقتل بعض أمته بعضاً أو يسبي بعضـــهم بعضـــاً. ومن عنده نظر يعلم من نص هذا الحديث أن الخوف كل الخوف ليس من الأعداء (اليهود والنصارى ومن عادى الإسلام) وإنما الخوف هو من وقوع الأمـــة بعضها ببعض حتى تهلك كما هو مفاد الحديث . وإذا تأملنا الأسباب التي قد تـــؤدي إلى وقوع الأمة بعضها ببعض لوجدنا أنها تنحصر في الابتداع وعدم الاتباع ومخالفة هدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومـــن تتبع تاريخ الأمة وجد ذلك حقاً ؛ فانظر رحمك الله كم أحدثت فتنة الخوارج والروافض والجهمية على الإسلام من الويلات والنكبات .

والأدلة الشرعية والعقلية مستفيضة في أن الافتراق سبب للصراع .

وصـــدق الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: (**إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة (يعـــني الأهواء) ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة**) وفي رواية قالوا: من هي يا رسول الله ؟ قال (**ما أنا عليه وأصحابي**) [1] ، وفي رواية: هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي .

فحـــري بالدعاة اليوم أن لا يدعوا إلا إلى منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وأصـــحابه وأن يعلموا الناس هذا المنهج وكيف يدافعون عنه ليكونوا صفاً واحداً في وجه أهل البدع والأهواء .

فإنهم سبب كل بلاء على الأمة . وبسببهم يكون الهرج والمرج .

وفي ص (٥٢) وتحت عنوان ضوابط ومحاذير قال :

---

(١) هـــو حديث صحيح مشهور وقد ذكر الألباني طرقه في السلسلة الصحيحة (٢٠٣) ، (٢٠٤) وفي تخريج السنة برقم (٦٣ ، ٦٩) فعلى طالب العلم الرجوع إليه فإنه بحث نفيس .

[أولاً : – الالـــتزام بالأصـــول الشرعية والمنطلقات العقلية في وصف الواقع وتوقع النتائج ورؤية المستقبل] .

وقال أيضاً [ويعرض ما لديه من معلومات وحقائق على ميزان الشرع ومنطق العقل والعقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح] .

قلت : هذا الكلام فيه خلل ظاهر، وهو قلب للحقائق رأساً على عقب .

مـــتى صارت يا دكتور وسائل الإعلام المعروفة من مسموعة ومقروءة ومرئية مصـــدراً لـــلحقائق ؟ إن وسائل الإعلام منذ أنشئت وبرزت بشكلها الحالي ، وهي مصدر تضليل للشعوب [1].

ولا أظـــن عامياً عاقلاً يخالفني في هذا ، فضلاً عن أن يكون طالب العلم هو المخالف .

أما قوله : "والعقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح" فلا أعلم سبب إيرادها ووجه الاستدلال بها .!! ولك أن تقرأ العبارة وتتأمل .

وفي ص (٥٣) قال :

[كمـــا أن أسلوب : حدثني الثقة عمن يثق به ، طريق لا يعتمد عليه في إثبات الحقائق وإيجاد البراهين ولا يعدو أن يكون خبراً قابلاً للصدق و الكذب] .

أقول وبالله التوفيق :

إن الله سبحانه اختص هذه الأمة بهذا العلم علم الإسناد دون غيرها من الأمم. وما أجمل ما قاله الإمام ابن المبارك رحمه الله : (لولا الإسناد لقال في الدين من شاء مـــا شاء) ويقول الإمام محمد بن حاتم : (إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد ، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد) .

---

(١) يوجد اليوم كتب كثيرة في الساحة ، تبين الزيف الإعلامي وكيفيته . ومن أراد المزيد فليرجع إليها .

فـــإن كان الدكتور يقصد أن هذا العلم لا يطبق في هذا العلم لصعوبة الأمر فهـــذا صحيح . وإن كان يقصد أن هذه الطريقة لا يثبت بها خبر فهذا غير صحيح لأن القرآن والسنة إنما وصلا إلينا بطريق الإسناد .

وفي هذا العصر متى ما وجد طريق صحيح صح الخبر وليس في ذلك إشكال ولا أظن أحداً يخالف في ذلك .

ثم إن أغلب من يتكلم في فقه الواقع هم أكثر الناس استخداماً لهذا الأسلوب! وبالجملة فإن الخبر إذا كان قابلاً للصدق أو الكذب فلا يجوز أن يبنى عليه حكم من أحكام الشريعة .

وكـــان الأولى بالدكتور أن يبتعد عن تلك العبارة ؛ لأن فيها تنقص لعلم الإســـناد الذي هو من الدين . والسلف شددوا في ذلك وأغلظوا على من تكلم في هذا العلم .

وفي ص (٥٧) قال :

[خامســاً : عـــدم الجـــزم والقطع في توقع المستقبل. فإن مما يجب أن يلحظه المتخصـــص في هذا العلم عدم الجزم والقطع بما يحدث في المستقبل ، وبخاصة أن الأدلة الـــتي بـــني عليها هذا الأمر تدور بين ظنية الثبوت ، وظنية الدلالة ويندر وجود دليل قطعـــي الثبوت قطعي الدلالة في مثل هذه الأحوال ولو وجد هذا الدليل فإنه يبقى في دائـــرة الاحـــتمال من حيث إمكان الوقوع ؛ لأن الوحي قد انقطع ، ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [سورة لقمان : ٣٤] .

وحـــتى أدلة السنن الإلهية الثابتة التي قد نبني عليها توقعاتنا تطبيقها على محلها يحتاج إلى تثبت وعدم جزم ويقين] .

قبل مناقشة الكلام السابق أريد توضيح مسألة تتعلق بموضوع الفقرة : وهي أن الكلام في أمور المستقبل وما يحدث فيه يعتمد على ثلاثة مصادر هي :

١- المصـــدر الشرعي (الكتاب والسنة) فإن الإيمان بما أخبرا به واجب على كل مكـــلف . مثل هذا ما ورد في أبواب الفتن وأشراط الساعة وعلاماتها وإلى غـــير ذلـــك مما ورد ذكره من الأمور الغيبية المستقبلية في الكتاب أو السنة الصحيحة .

٢- المصـــادر العلمية (أي التي تصدر عن هيئات علمية بحتة) وهنا يكون الموقف أكـــثر حساســـية وأهمية . ولكن القول الحق أن ما صدر عن مثل الهيئات العلمية و لم يكن فيه مصادمة مع الشرع فإنه يقبل ولكن لا يجزم به ؛ لأنه قد يأتي ما يناقضه .

٣- مـــا يصـــدر عـــن الكهان والمنجمين وأشباههم ترفض البتة بل تحارب وهو الموقف الصحيح منها .

والآن نعود إلى كلام الدكتور ، وقد ورد فيه مسألتان ، هما :

١- اعترافه بأن الأدلة التي تؤخذ من مصادر فقه الواقع [١] (ولعله يقصد ما يؤخذ من وسائل الإعلام) بأنها تدور بين ظنية الثبوت وظنية الدلالة . ويندر وجود دليل قطعي .

٢- أنـــه ولو وجد دليل قطعي ، فإنه يبقى في دائرة الاحتمال من حيث إمكان الوقوع وبالتالي :

فإنـــا نقـــول له : ما دمت تعلم هذه الحقيقة وهي أن ما يؤخذ عن وسائل الإعلام غاية ما في الأمر أنه ظن بل أقل درجات الظن [٢] .

---

(١) قد جعل الدكتور ناصر القرآن والسنة من مصادر فقه الواقع كما في ص (٦١) وهنا يصفها بأنها ظنية الثبوت ظنية الدلالة . ولكن سنحمل كلامه على أنه لا يريد القرآن والسنة ولكنه نسي أن يستثني . وإلا لكانت طامة .

(٢) هذا ما يفهم من سياق الكلام وإلا هي عندنا أقرب إلى الكذب ولو لم يخرجوا إلا الصدق لخرجت صحف بيضاء ليس عليها نقطة حبر خصوصاً بعض الأيام .

فـــالواجب عليك أن تأخذ بقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النجم : ٢٨] .

وقـــولـــه تبارك وتعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾ [النجم : ٢٣] .

وتأمل كيف قرنهما وجمع بينهما وقرنهما من بعض .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يونس : ٣٦].

وقال عليه الصلاة والسلام : **(إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)** [1] .

ومـــاذا عسى أن ينفع هذا الدليل إن صحت تسميته دليلاً وهو ظني الثبوت ظني الدلالة وقد جمع بين علتين تبطلان الاستدلال به قطعاً . ؟ !

ولكن الدكتور لو كان يؤمن حق الإيمان بما ذكره في الفقرة السابقة لما كان محـــتاجاً إلى كتابة هذا الكتيب المليء بالتناقضات . فإن كلامه في هذه الفقرة ينافي مضمون الكتاب بشكل عام .

أمـــا مـــا بقي من كتاب الدكتور فإني سأجمل الكلام عليه إجمالاً، وذلك في النقاط التالية :

النقطة الأولى :

وهي قوله في ص (٦٢) :

[وقد قام المفسرون بجلاء هذه القضية بما يشفي الغليل ، وإن شئت فارجع إلى

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأدب، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر .

ما ذكره سيد قطب رحمه الله عن اليهود في أول سورة الصف . وعلى الذين يتصدون لمعالجة قضية فلسطين أن يراجعوا القرآن] .

قلت : في كلامه هذا إشارة إلى مسألتين هما : -

١- أن المفسرين الذين جاءوا قبل سيد قطب لم يشبعوا القضية بما تستحق - الكلام عن حقيقة اليهود - . وفي هذا انتقاص لتفاسير السلف وانتقاص لعلمهم وهذه مسألة خطيرة يجب التنبه إليها .

٢- من كلام الدكتور يتضح أنه يصنف سيد قطب من ضمن المفسرين ، وهذا غير صحيح ، بل الصحيح أن سيد قطب أديب ، ولذلك وقع في أخطاء عقدية عظيمة وإن شئت فارجع إلى كتابه (ظلال القرآن) فإنك ستجد كلاماً وافق فيه الجهمية [1] ، وكلاماً وافق فيه " الاتحادية " و " الحلولية " وفي مواضع أخرى وافق بعض أقوال " الصوفية " الذين يدعون أنهم يرون ربهم في الدنيا .

هذا فضلاً عن أقواله في "الحاكمية " وموافقته بعض أقوال "الخوارج" فيها ولولا الإطالة لنقلت من كتبه ما يؤيد هذا . ثم إني علمت أن بعض الأفاضل من العلماء يؤلف كتاباً فيه بيان لأخطاء سيد قطب ، وانحرافاته ، ولعل الله سبحانه وتعالى ييسر ظهوره للناس لكي تتبين الحقيقة وتزول الغشاوة عن أعين بعض طلاب العلم والعامة .

النقطة الثانية :

وهي حثه طلاب العلم على قراءة الكتب السياسية ، والكتب التي تبحث في هذه المجالات . وذلك في ص (٦٨) .

---

(١) قد يستعظم بعض طلاب العلم هذه الكلمة ، ولكني أذكرهم بهذه الآية وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . والجهمية والمعتزلة والأشاعرة كلهم ملحدون في أسمائه تبارك وتعالى ولكن بين مقل ومستكثر وكل بحسبه والله تعالى أعلم .

ولي معه هنا وقفات هي :

١- ليس من العدل ولا من الشرع أن تلقي المسئولية جميعها على طلاب العلم في جميـــع المجالات . وقد قدمنا سابقاً أن الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - كـــان كـــل منهم على ثغر من ثغور الإسلام ، وهم بذلك مطبقون لوصية الرسول عليه الصلاة والسلام .

٢- أن في التقسيم الوزاري الحاصل في هذه البلاد ، وتوزيع المهام على الوزارات خـــير كثير ؛ بحيث أصبحت كل وزارة تقوم بالمسئولية المناطة بها فحسب وغيرها من الوزارات تقوم بما أسند إليها من مهام .

٣- أن حكومة هذه البلاد حكومة إسلامية - ولله الحمد - فهي مأمونة الجانب على المسلمين وهي محل ثقة ، نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يوفقها إلى ما يحب ويرضى .

٤- أن كثيراً من شباب الصحوة اليوم تقلدوا مناصب في كثير من قطاعات هذه الدولة ، وهذا من شأنه أن يسد بعض النقص الحاصل من بعض الجهال بأمور الشريعة .

وبهذا يتضح أنه ليس من المصلحة أن يحمَّل طلاب العلم كل صغيرة وكبيرة ، وأن المصلحة تقتضي توزيع المهام على أبناء المسلمين وقد قال عليه الصلاة والسلام : **(كل يعمل لما خلق له ، أو لما يسر له)** [(١)].

النقطة الثالثة:

وهي قوله في ص (٦٩) :

[سابعاً : المصادر الإعلامية :

وهـــي مـــن أهم المصادر المعاصرة ، سواء أكانت مسموعة أم مقروءة أم

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب القدر ، باب: جف القلم على علم الله .

مرئية ، من أبرزها [1] .

١ – الصحف والمجلات والدوريات. ٢ – نشرات وكالات الأنباء العالمية.

٣ – الإذاعـــات. ٤ – التلفزيون. ٥ – الأشرطة والوثائق إلى غير ذلك من الوسائل الإعلامية المعاصرة .].

قلت :

إن إرشـــاد صغار طلاب العلم والعامة إلى الوسائل التي ذكرها الدكتور هو إرشاد إلى الفساد بعينه وبكل أنواعه .

ومن هنا فلا لوم إذن على من أدخل بيته "الدش" ، ولا على من أدخل بيته أنواع المجلات ، أو الفيديو ، أو غير ذلك من الوسائل التي يراها الدكتور .

لأن من يقوم بهذه الأعمال يملك حجة وهمية ألقاها إليه الدكتور وهي حجة (فقه الواقع) خصوصاً أنه يرى حرمة التلفزيون والدش.

إن مـــن يرشـــد إلى مـــثل هذه الوسائل ليس – أبدًا – من أهل الغيرة على الإسلام وإن أتت تحت ستار الدعوة .

ونقـــول للدكتور : إذا كنت مقتنعاً بما تقول فليكن ذلك في بيتك ، دون أن تدعو المسلمين إلى ذلك .

وليعلم الجميع أن أخطر أنواع الفساد هو ذاك الفساد المغلف بالإسلام ؛ لأنه ينتشـــر بـــين الناس ولا ينكر ، بل يدافع عنه على أنه الحق ، وقد جاء أن ذلك من علامات الساعة .

وهذا الكلام الذي ذكره الدكتور يحتاج إلى كتاب مستقل للرد عليه ولكني أجمل الكلام عليه وأشير إشارات مختصرة وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد.

---

(١) قولـــــه من أبرزها ... إلى غير ذلك من الوسائل ، يدل على أن الدكتور يرى وسائل أخرى لجمع المعلومات وهي . . . . . ؟

١- إن في متابعة الوسائل التي ذكرها الدكتور ضياع للأوقات ، بل إن ذلك يشغلهم عن واجباتهم الدينية والدنيوية .

٢- إن في هذه المتابعة مسخاً للعقول ، وبالتالي الانجراف مع التيارات الإعلامية يمنة ويسرة ويكونون ممن " يجْمعهم طبل وتفرقهم عصا " .

٣- إن في المتابعة المذكورة ؛ وقوع في المصايد الإعلامية التي أنشأها أعداء الإسلام للنيل من المسلمين وتدمير دينهم ودنياهم من حيث لا يشعرون.

٤- ينتج عن هذه المتابعة تضييع لمفاهيم الولاء والبراء مع أعداء الإسلام .

ومن أراد الاستزادة من هذا الموضوع فعليه الرجوع إلى كتاب " الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون " وهو من تأليف الأستاذ " مروان كجك "، وهذا الكتاب لا يتكلم على الفيديو والتلفزيون فحسب ، بل يتكلم على الخطر الإعلامي على بلاد المسلمين ، وقد قدم حقائق مروعة عن الإعلام ، وقدم فقرات مترجمة لكتاب غربيين اعترفوا فيها بخطر الإعلام وقوة تأثيره على المجتمعات [(١)] .

وهو كتاب قيم في مجاله ، أوصي بقراءته لمعرفة أضرار الإعلام ، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجنب الأمة الإسلامية كل سوء وأن يرد كيد أعدائها ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

النقطة الرابعة :

وهي قولة في ص (٧١) :

[والحذر الحذر أن يعتبر تعلمه نفلاً أو اختياراً] .

---

(١) قال الأستاذ مروان كجك في كتابه هذا :

"وهذا الكتاب يضع أمامك خيوط المؤامرة الإعلامية التي تحيكها أيد أثيمة تتمثل في حفنة من المستغلين ، والطغاة المستبدين وذوي الأفكار الشاذة الهدامة ، والأغبياء المستسلمين لهذه اللعبة الخبيثة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً " .

يعني فقه الواقع وهذا كلام باطل ليس عليه دليل .

فإنه لا يملك دليلاً من كتاب الله ، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدل على أن تعلم فقه الواقع " المزعوم " فرض، وقد ناقشنا سابقاً أدلته وبينا أخطاءه فيهـــا ، وبعده عن الحق وأن جميع ما ذكره حول هذا الفقه إنما هي دعاوى وآراء عقلية وليست شرعية . والله تعالى أعلم .

النقطة الخامسة :

وهي عبارة عن خطأ وقع فيه وذلك في شريط التوحيد أولاً :

وهـــي قوله عندما تكلم عن التوحيد : **[تحدث عن هذا الجانب ابن كثير في العقيدة الطحاوية]** .

أقول وبالله التوفيق :

إن كـــان يقصـــد متن العقيدة الطحاوية ، فهو للإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي المتوفى سنة (٣٢١ هـــ) . ولم يقل أحد أن متن العقيدة الطحاوية للإمام ابن كثير المتوفى (٧٧٤ هـــ) ! .

وإن كـــان يقصد شرح العقيدة الطحاوية المشهور فهو للعلامة ابن أبي العز الحنفي المتوفى سنة (٧٩٢هـــ) - ولم ينسب الشرح أيضاً لابن كثير !

وهذا يدل على قلة اهتمام الدكتور بمثل هذه الكتب والله تعالى أعلم .

أمـــا الخطأ الثاني : فهو قوله في درسه الأسبوعي " شرح منار السبيل " أنه إذا أطلق في الفقه اسم إبراهيم ، فإنه يعود إلى إبراهيم بن أدهم !! .

وهـــذا القول - أيضاً - غير صحيح فإن المشهور المعروف أنه إذا أطلق اســـم إبراهيم في كتب الفقه فإن المقصود : إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي الفقيه ، المتوفى سنة (٩٦ هـــ) .

يقول الأستاذ محمد رواس قلعة جي : وحسبنا أنه إذا أطلق الفقهاء والمحدثون اسم إبراهيم فهو إبراهيم النخعي وإن أطلقوا اسم النخعي فهو إبراهيم النخعي فهما عند إطلاقهما علمان عليه [1] .

وصلى الله على محمد وسلم .

---

(١) موسوعة فقه إبراهيم النخعي ، الطبعة الأولى ص (٢٠)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٥
بداية الكتاب	١٣
مناقشته في تقديم الرسالة إلى العلماء	١٣
مطاعن خفية في العلماء	١٤
الرد عليه في زعمه أن تعلم فقه الواقع واجب	١٥
مناقشة مهمة حول مصطلح "فقه الواقع"	٢٠
كلام نفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية عن العلوم الشرعية والعقلية	٢١
الرد عليه في قوله إن "فقه الواقع من العلوم الشرعية"	٢٧
خطأه في قوله :"إن أمتنا عالة على الأمم"	٣٠
بيان الأسباب الحقيقية في تأخر المسلمين	٣٤
بيان الأمر الذي تصلح به الأمة بالأدلة	٣٦
خطأه في قوله: "إن السبب الرئيس في مصيبة الأمة هو جهلها بواقعها"	٣٨
إثبات أن هذا الفقه المزعوم غير موجود عند السلف	٤٠
اتهام غير مباشر للعلماء	٤١
إنكار مقولة ابن خلدون إن علماء الشريعة لا يصلحون للسياسة	٤١
مسائل مهمة تتعلق بالإمامة والبيعة	٤٢
مناقشة قوله: "إن المواقف المصيرية تتخذ في ضوء فقه الواقع"	٤٦
أمثلة على تناقضاته الكثيرة	٤٨
نقد تعريفه لهذا الفقه	٥٠
ذكر دليله الوحيد في هذا الموضوع وبيان خطأه العظيم في ذلك	٥٣
ذكر كلام أهل العلم في الآية التي استدل بها الدكتور	٥٥

كلام نفيس للشيخ محمد رشيد رضا حول الآية ٦٤
بيان عدم جواز إضافة المعرفة إلى الله، والفقه إلى القرآن ٦٦
استدلاله بآيات خبرية لا يجوز الاستدلال بها ٦٩
مناقشة الأدلة التي أوردها من السنة والرد عليه في كثير من الأمور ٧١
زعمه بأن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة اجتهاد منه .. ٧٩
الكلام على علم النبي صلى الله عليه وسلم وهل يصح وصفه بأنه فقيه ٨٤
الرد عليه في استدلاله بقصة فارس والروم ٨٨
خطأ وقع فيه الإخوان المسلمون ٩٨
استعماله القياس في غير محله ٩٩
علاقة التوكل بالنصر ١٠٢
استدلاله بأثر لم يصح ١٠٥
كلام منقول عن السعدي فيه نظر ١٠٧
زعمه أن لفقه الواقع علاقة بمفهوم "لا إله إلا الله" ١٠٩
كشف بعض التناقضات في كلامه ١١٠
هل الأمة بحاجة إلى فقه الواقع ١١٣
الرد عليه في زعمه أن تعلم فقه الواقع فرض وذكر كلام نفيس لابن القيم ١١٥
أدلة عقلية على بطلان قوله بفرضية فقه الواقع ١١٧
ذكر كثير من الآثار السيئة لهذا الفقه ١٢٠
كلام للعلامة ابن باز عن أسباب ضعف الأمة ١٢٦
مشاغل الشباب في هذا العصر ١٢٨
اعتراف بعض المصلحين ١٢٩
بيان أثر الاستجابة لله ولرسوله وبيان أن منهج الرسول صلى الله عليه
وسلم يخالف منهج الحاكمية ١٣٠
كلام نفيس عن الدعوة السرية وهل مارسها النبي صلى الله عليه وسلم ١٣٥
إثبات أن هذا الفقه المزعوم ليس من علوم الشريعة ١٤٩

هل السياسة علم أم فَنّ؟ ١٥٠
دفاع عن طلاب العلم ١٥٥
كلمة جامعة للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ١٥٧
تناقضات كبيرة وقع فيها الدكتور ١٥٩
الدكتور ناصر ينادي العامة بالاشتغال بهذا الفقه ١٦١
الهزيمة والنصر يدوران مع المخالفة والموافقة للشرع ١٦٦
زعمه أن علم الفرائض يمكن التوسع فيه ١٦٧
هل يمكن تعلم العقيدة في عشر دقائق ١٦٨
تناقض آخر وقع فيه الدكتور حول ما يحتاج إليه المتخصص في هذا الفقه.. ١٧٠
غلو عظيم من محمد علي قطب في حسن البنا ١٧٣
قصة بداية انحراف رفاعة الطهطاوي ١٧٤
كيفية الإعداد للعدو ١٧٦
عجز المكلف عما يطلبه الدكتور ناصر ١٧٩
استدلاله بحديث في غير موضعه ١٨٠
هل مستقبل الأمة متوقف على فقه الواقع ١٨٦
استدلاله بكلام ابن القيم ومناقشته في ذلك ١٨٧
مناقشة الأدلة التي ذكرها ابن القيم وبيان وهمه فيها ١٩١
وقوع الدكتور في إلزام كبير ١٩٩
قوله إن العلمنة دخلت على بعض أو على كثير من طلاب العلم ٢٠٣
وجوب الرد على الشبهات وبيان أن ذلك هو الاحتياط ٢١٢
هل الأمة محتاجة إلى رسم منهج الدعوة ٢١٥
استدلاله بحديث "نصرت بالرعب مسيرة شهر" وبيان ما في استدلاله من الوهم ٢١٨
الإسلام دين علم وعمل ٢٢١
السبيل الحقيقي لمعرفة الأعداء ٢٢٤

طريقة الإخوان في كسب العواطف ٢٢٩
ليس العلمانيون وحدهم الذين يشوهون صورة العلماء أمام الناس ٢٣٠
كثير من المسائل الشرعية لا تحتاج إلى ما يسمى "فقه الواقع" ٢٣٢
القرآن بيّن سبب عداوة الكافرين للمؤمنين ٢٣٤
مغالطة أخرى وقع فيها الدكتور ٢٣٦
وعد الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ٢٣٩
اختصاص هذه الأمة بعلم الإسناد ٢٤١
تناقض كبير وقع فيه الدكتور ٢٤٤
مناقشة عامة وهامة ٢٤٤
نسبته العقيدة الطحاوية لابن كثير رحمه الله ٢٤٩
قوله: إذا أطلق اسم إبراهيم في كتب الفقه فهو ابن أدهم ٢٤٩